جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب



عرضٌ اقتصادي تاريخي

الجزء الأول

تشكيلات ما قبل الرأسمالية والمجتمع الرأسمالي



جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب

عرضٌ اقتصادي تاريخي

تشكيلات ما قبل الرأسمالية

والمجتمع الرأسمالي



١٩٨١

النظام المشاعى البدائى

دار الفـــارابي ص.ب. ٣١٨١ بـيروت
الطبعة الثانية ١٩٨١

الفصل الاول

نشوء المجتمع البشرى

١ ـ منشأ الانسان

القرابة البيولوجية بين الانسان والحيوان

كشف العلماء فى القرن التاسع عشر فى طبقات الارض القديمة العهد عن بقايا قرود منقرضة بلغت درجة عالية من التطور سميت قرود دريوبيتيك ، أو القرود الشجرية . وعلى اساس الاستفادة من هذه البقايا ، وتحليل تطور عالم الحيوان على مر العصور ، برهن العالم الطبيعي الانكليزى العظيم تشارلز داروين واتباعه برهنة علمية على القرابة البيولوجية بين الانسان والحيوانات ومنشأ الانسان من القرود القديمة العالية التطور . وقد اثبتت هذا معطيات كثيرة لعلم التشريح وعلم الاجنة وعلم الاحاثة ، واثبته على الاخص التركيب المتشابه من حيث الاساس للهيكل العظمى وتطور الدماغ وتركيب الدم عند الانسان المعاصر والقرود اشباه الانسان (انتروبويد) . وأكد تطور العلم تاكيدا باهرا هذه النظرية المادية .

اسلاف الانسان هى القرود العليا الشبيهة بالانسان

قبل حوالى ثلاثين مليون سنة كانت تعيش فى احراش البلدان الاستوائيــة قـرود عليـا تدعى بارابيتيك انحدرت منهـا قرود غبّون واورانغوتان المعاصرة والقرود الشجرية المنقرضة ـ دريوبيتيك .

أن القرود الشجرية هي التي كانت الاسلاف المشتركة للانسان والقرود المعاصرة الشبيهة بالانسان ـ الغوررلّي والشمبنزى . وقد وجد العلماء فيما بعد كمية كبيرة من بقايا مختلف القرود المنقرضة اشباه الانسان التي تشغل من حيث تطورها مكانا متوسطا بين القرود الشجرية والانسان . وعثر على هذه البقايا في جميع اقاليم الكرة الارضية تقريبا : في اوروبا وآسيا (في الهند ، في جورجيا) وفي افريقيا الجنوبية .

ونتيجة لدراسة بقايا القرود القديمة الشبيهة بالانسان وتحليل الظروف الطبيعية التي عاشت فيها ، بامكان العلم المعاصر تتبع اهم مراحل التطور التدريجي لاسلاف الانسان المعاصر . ان القرود الكبيرة اشباه الانسان غالبا ما كانت تتخذ وضعا عموديا عند تسلقها الاشجار ، ولذا اخذ تركيب اكف اطرافها الامامية يتكيف تدريجيا مع حركات مسك الاشياء . وفيما بعد اضطرت قطعان القرود الشبيهة بالانسان الى النزول عن الاشجار والانتقال الى نمط الحياة على الارض بعد ان اخذت الاحراش في المناطق التي تقطنها تقل اكثر فاكثر . وقد مكنت عادة اتخاذ الوضع العمودى الحيوانات من الانتقال الى المشية المنتصبة واستخدام الاطراف الامامية لاجل أخذ وجمع الاطعمة ، ولاجل الدفـاع وانزال الضربات ، الخ ..

في هذه الحقبة كانت تعيش قرود شبيهة بالانسان وجدت بقاياها في اراضي افريقيا الجنوبية . وكانت تقطن في السهوب الحرشية والاراضي شبه الصحراوية . ويبين تركيب عظام هذه القرود انها كانت في الاساس تتنقل على اطرافها الخلفية ـ على الارجل ، اى في وضع عمودى . وفي الاطراف الامامية ـ الايدى ـ كان الابهام يواجه الاصابع الباقية ، وكان كبيرا نسبيا خلافا لاصابع اكثرية القرود المعاصرة الشبيهة بالانسان . وهذا يشهد على ان

القرود القديمة كانت قادرة على القيام بحركات لمسك الاشياء ليست في متناول القرود المعاصرة . كذلك كانت للقرود القديمة خاصة بيولوجية هامة هي ما يميزها من تركيب الجمجمة المرتبط بالوضع العمودي للجسد . وقد خلق هذا فيما بعد ظروفا ملائمة لتطور الجمجمة والدماغ بمزيد من السرعة .

ان اسلاف الانسان ، كما يعتبر العلم المعاصر ، قد انحدروا من القرود القديمة التي كانت تقطن ، على الارجح ، في منطقة شاسعة شملت افريقيا واوروبا الجنوبية وجنوب شرقي وجنوب آسيا . فقد وجدت هناك بقايا القرود الشبيهة بالانسان ، وكذلك عظام اقدام الناس (انسان جاوا ، انسان الصين ، الخ) . وتشمل هذه المنطقة ايضا اراضي ما وراء القفقاس السوفييتية . ولا يمكن لاوستراليا ان تدخل في هذه المنطقة لان انعزالها عن بقية اليابسة حدث قبل ظهور الحيوانات اللبونة العليا . ان انعدام بقايا اسلاف الانسان والناس القدامى في القطاعات الشمالية من آسيا واوروبا يبين ان هذه القطاعات ايضا لم تكن موطنا للانسان .

وعليه ، في نهاية العصر الثالثي ، اى قبل اكثر من مليون ونصف مليون سنة ، ادى التطور التدريجي التصاعدي لعالم الحيوان الى اعظم حدث في تاريخ الحياة على الارض – فقد ظهر اقرب اسلاف الانسان نتيجة لعملية مديدة من التطور . ولقد نشأ الانسان بيولوجيا بحكم القوانين الطبيعية الموضوعية لتطور العالم الحيواني .

٢ – دور العمل في تكوّن الانسان

النشاط العملي عند اقدم اسلاف الانسان

عند بحث المسألة المتعلقة بمنشأ الانسان لا يجوز الاقتصار على دراسة تطوره البيولوجي . فالتطور البيولوجي وحده لا يمكنه

توضيح جوهر الانتقال من السلف الحيواني الى الانسان القديم العهد . ان التغير الكيفي في عملية التطور التدريجي للعالم الحيواني اثناء صيرورة الانسان قد اكتشفه فريدريك انجلس الذي اعتبر ان ما يميّز الانسان عن عالم الحيوان هو نشاطه العملي الاجتماعي بمعونة ادوات العمل التي صنعها .

ان خاصة الانسان هذه ، التي لعبت دورا حاسما في مجمل تطوره ، لم تظهر دفعة واحدة وانما كانت نتيجة لعملية طبيعية مديدة على مر العصور . ان افضلية الوضع العمودي عند القرود القديمة الشبيهة بالانسان وتطور اطرافها الامامية قد مكناها اكثر فاكثر من استخدام مختلف الاشياء : الحجارة ، العظام ، الخ .. للدفاع عن النفس من الاعداء الخطيرين ، وللصيد والحصول على الاطعمة . وقد بينت الحفريات ان اسلاف الانسان القدامى كانوا يقتلون ما يصطادونه من حيوانات صغيرة بمواد ثقيلة ، وكانوا يحطمون بالحجارة صدف السلاحف والسرطانات..

ان الاستخدام المنتظم للادوات الطبيعية اوصل اسلاف الانسان الى محاولات لتكييف مواد الطبيعة المحيطة بهم خصيصا لحاجاتهم ، واوصلهم فيما بعد الى اعداد ادوات العمل ، الى النشاط العملي . وفي سياق النشاط العملي كان الناس يحوّلون اشياء الطبيعة بغية سد حاجاتهم .

ان اعداد حتى ابسط الادوات يميّز الانسان عن عالم الحيوان ، لانه ما من حيوان بقادر على القيام بالنشاط الهادف ، وما من حيوان يستطيع اعداد حتى اكثر ادوات العمل بساطة . والانتقال من استخدام ادوات العمل التي اوجدتها الطبيعة — الحجارة والعصي ، والتي كانت تقع صدفة في متناول اليد ، الى اعداد ادوات العمل هو قفزة عظمى في تطور الطبيعة ويدشن تحول القرد الشبيه بالانسان الى انسان .

وفي نتيجة التطور الطبيعي اكتسب اسلاف الانسان المقدرة على العمل . ولكن العمل بدوره اثر ايضا في تطور الانسان ، بما في ذلك تطوره البيولوجي . ونتيجة للنشاط العملي قسمت الوظائف بصورة نهائية بين الاطراف الامامية والخلفية . فتخصصت الاطراف الامامية بوظائف العمل واكتسبت ما هو ضروري لذلك مثل البراعة وخفة الحركة وتنسيق الحركات . وثبّت العمل كذلك المشية المنتصبة عند الانسان وساعد على تطوير اعضائه الاخرى .

٣ ـ تطور التفكير والنطق

دور العمل في تطور التفكير

ان استخدام الادوات الطبيعية قد اتاح الفرصة للقرود القديمة الشبيهة بالانسان لكي تستعمل الاطعمة النباتية وبيوض الطيور ولحوم الحيوانات الصغيرة ، السحالي والسرطانات ولكي تستعمل كذلك لحوم الوحوش الكبرى التي كانت تصطادها احيانا . وكان الطعام اللحمي الدائم يزود عضوية اسلاف الانسان ، وبالدرجة الاولى الدماغ ، بكمية كبيرة من الزلال وغيره من المواد الضرورية لتطوره . وقد ساعد هذا على تكامل العضوية بسرعة . وبالتدريج اخذ النشاط العملي يتحول اكثر فاكثر من شيء غريزي الى عملية واعية .

ونتيجة لتراكم الانطباعات عن الطبيعة المحيطة بالانسان وتجمع العادات خلال عصور وعصور اخذ دماغ الانسان يعمّم الظواهر ويربطها بسلسلة منطقية من التفكير . وبدأ الانسان يتنبأ بنتائج اعماله ، ويدرك الطبيعة المحيطة به ويعرفها . وفي مجرى العمل والتاثير النشيط في الطبيعة كانت تتطور كل عضوية الانسان ويغتني عقله .

ان التطور اللاحق للنشاط العمل لم يكن يساعد فقط على اتقان عمل الايدى الدقيق ، بل انمى كذلك تفكير الانسان ، ومقدرته على العمل الهادف الواعي .

وساعد العمل على تطور النشاط النفسانى عند الانسان ، هذا النشاط الذى يقوم ، كما اثبت عالما الفيزيولوجيا الروسيان العظيمان سيتشيتوف وبافلوف ، على عمليات فيزيولوجية معينة تجرى فى الدماغ البشرى . فبدون الدماغ المادى والعمليات الفيزيولوجية الجارية فيه ، تستحيل حتى أبسط اشكال النشاط النفسانى عند الانسان .

نشوء النطق عند الانسان

فى سياق النشاط العملى نشأ وتطور النطق المفصل الواضح عند الناس . ان التفكير البشرى ، الوعى البشرى يتسم بخاصية التفكير المجرد ، اى تعميم انعكاسات الواقع فى مفاهيم معبر عنها بكلمات .

ومقدرة الانسان على التفكير المجرد أتاحت الفرصة للتعبير عن مفهوم كامل ، عن مركب احساسات ، بكلمة يصبح فى وسع الانسان بواسطتها اعلام انسان آخر عن احساساته . ولكن هذه الفرصة التى تمكن المرء من نقل افكاره الى شخص آخر بمعونة الكلمات لم تكن كافية بعد لنشوء الكلام . فمن اجل هذا ، كان ينبغى ان تظهر عند الانسان ضرورة نقل افكاره . وهذه الضرورة ، ضرورة اعلام انسان لآخر عما يدور فى خلده من أفكار ، ظهرت وتطورت فى مجرى نشاط الناس العمل .

لقد كان العمل دائما عملا اجتماعيا . وعمل الانسان المنفرد هو جزء لا يتجزأ من حياة الجماعة . ومن جراء وحدة الجماعة

فى النشاط الانتاجى ، لم يفصل الانسان الواحد نفسه فى وعيه وافكاره وتصرفاته عن الجماعة ، بل بقى خاضعا لها ، وفهم نفسه بانه عضو فيها . ولذا برزت لدى الناس فى مجرى العمل الجماعى الحاجة الى التعارف وتبادل الانباء ، إلى قول شىء ما بعضهم لبعض .

فى البداية كانت تستعمل فى سياق العمل الصيحات المرتبطة بافعال الناس وعملهم . وبالتدريج كانت هذه الصيحات ترسخ فى ذاكرة الناس وفى وعيهم . وقد ادى تطور النشاط العملى الى تمييز الصيحات . واستتبع هذا بدوره تحولا فى اعضاء الانسان المعنية . وتحت تاثير الضرورة الملحة الى التعارف وتبادل الانباء ، التى ظهرت فى مجرى العمل ، تحولت الحنجرة غير المتطورة تحولا تدريجيا الى عضو قادر على التلفظ باصوات مفصلة . وهكذا ، نتيجة للنشاط العملى الجماعى فى غضون عهد مديد ، نشأ بصورة تدريجية الكلام المفصل ، اللغة ـ واسطة تبادل الافكار ، واسطة التعارف والمعاشرة بين الناس . وقد اتسم النطق باهمية هائلة بالنسبة لتطور المجتمع لاحقا ، اذ انه ساعد على توحيد جهود الناس اثناء العمل ، وكذلك على تنظيم العمل الجماعى ؛ فبمساعدة الكلام كان الناس يحفظون وينشرون الخبرة الانتاجية المكدسة ، وينقلونها الى الاجيال الجديدة .

وبما ان الناس كانوا يعيشون فى الحقبة الاولى من التاريخ جماعات صغيرة مغلقة ، فان لغة كل من هذه الجماعات كانت تتطور من حيث الاساس بصورة مستقلة وتتميز عن لغات الجماعات الاخرى .

الفصل الثانى

الانتاج المادى

١ ـ دور انتاج الخيرات المادية فى تطور المجتمع

ان بداية النشاط العملى واعداد ادوات العمل الاولى قد دشنا بدء تكوين المجتمع البشرى . فقد اخذ الناس يعيشون نمط حياة جديد كل الجدة ، يتميز عن حياة الحيوانات . فلكى تعيش الحيوانات ، لا تستطيع ان تستفيد الا من تلك الخيرات التى تقدمها الطبيعة بشكلها الجاهز . ولقد حرر العملُ الانسانَ من هذه التبعية التامة للطبيعة . واصبح بوسع الانسان ، بمساعدة ادوات العمل ، ان ينتزع من الطبيعة تلك الخيرات التى لم تكن فى متناوله سابقا ، وكذلك ان يغير الخيرات الطبيعية ، جاعلا اياها اكثر فائدة لحياته . وقد مكّنت الادوات الحجرية والخشبية الانسان القديم من توسيع استهلاك الخيرات المادية توسيعا ملحوظا . وغدا الانسان يتغلب على الحيوانات الكبيرة القوية وبهذا اضاف الى تغذيته كمية كبرى من الاطعمة اللحمية المفيدة . وكان يستخدم جلود الوحوش الكبيرة ، بعد تكييفها اللازم ، لوقاية جسده من البرد والطقس السيئ . وبمعونة أدوات العمل بنى الانسان مسكنه . ان انتاج الخيرات المادية اصبح اساسا لحياة المجتمع البشرى .

وبمقدار تطور الانتاج وتشديد التاثير النشيط فى الطبيعة ،

كان الانسان يسد حاجاته الحيوية بدرجة متزايدة ابدا من الخيرات المادية التي يصنعها بنفسه . وكان الانتاج المادى يتحقق فى ظروف طبيعية معينة - فى ظروف وسط جغرافى معين يتوفر فيه السكان .

دور الوسط الجغرافى فى تطور المجتمع

ان الوسط الجغرافى المحيط بالناس يتسم باهمية كبرى بالنسبة لتطور المجتمع . فالطبيعة تقدم للانسان الخامات الاولية اللازمة لحياته ونشاطه ، وهى المسرح الذى تدور عليه حياة المجتمع باسرهـا . ونعنى بالوسط الجغرافى الطبيعة المحيطة بالانسان ، اى المناخ والتربة والانهار والبحار وعالم النبات والحيوان وسطح المنطقة والمطمورات النافعة ، الخ ..

ان الوسط الجغرافى شرط ضرورى لنشاط الانسان الانتاجى . وبدون التاثير المتبادل مع الطبيعة التى يفوز الانسان فى النضال ضدها بالوسائل اللازمة لحياته ، لا يعقل اى نشاط انتاجى للانسان . وبوسع الوسط الجغرافى ان يؤثر على تطور المجتمع تأثيرا مزدوجـا : فالظروف الطبيعية الملائمة (توفر الاحراش والانهار والمناخ الطيب الخ .) تساعد على تطور المجتمع ؛ اما الظروف غير الملائمة فتؤثر تأثيرا سلبيا على التطور الاجتماعى . ولكن من الخطأ ان نعتبر ان تطور المجتمع يحدده اما الوسط الجغرافى ككل او عنصر ما من عناصره - المناخ ، توفر الانهار ، الخ .. فان تغير الوسط الجغرافى يجرى بصورة بطيئة للغاية . ففى غضون تاريخ حياة المجتمع البشرى باكمله لم يتغير الوسط الجغرافى الا تغيرا طفيفـا ، فى حين ان البشرية فى هذه الاثنـاء اجتازت طريقا هائلا للتطور من النظام المشاعى البدائى الى بناء المجتمع الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى والمجتمع الاشتراكى فى البلدان الاشتراكية الاخرى .

ان البلدان المتجاورة ذات الظروف الجغرافية المتماثلة تكون احيانا على درجات من التطور تختلف كل الاختلاف . وفى فجر المجتمع البشرى ، حينما كان الانسان عاجزا او يكاد امام الطبيعة ، كان تاثير الوسط الجغرافى على تطور المجتمع أكبر مما هو الآن . وبمقدار تطور القوى المنتجة اخذ الانسان يجبر الطبيعة اكثر فاكثر على خدمته ، وراح يقل تاثير الوسط الجغرافى على تطور المجتمع .

ان الانتاج يغير نفس مفهوم الوسط الجغرافى ، اذ يدخل فيه بعض عناصر الطبيعة وينبذ بعضها الآخر . ففى زمن النظام المشاعى البدائى كانت تؤثر تاثيرا ملحوظا فى حياة المجتمع عناصر للوسط الجغرافى مثل الحيوانات والنباتات التى كان الانسان يستخدمها كمصدر طبيعى للخيرات المادية . وبتطوير تربية المواشى والزراعة اوجد الانسان عالما للحيوانات والنباتات مستقلا لدرجة كبيرة عن الوسط الجغرافى ، ويعتمد كليا على عمل الانسان . ان تطور الانتاج قلل من اهمية المناخ وسطح الارض والانهر والوسط الجغرافى ككل ، ذلك أن الانسان تعلم كيف يتغلب على تاثير الوسط الجغرافى فى تطور المجتمع . وفى الوقت الراهن يتحقق نشاط الانسان فى جميع الظروف المناخية . ففى وقتنا هذا يتخطى الانسان بمعونة منجزاته التكنيكية العقبات التى توجدها الطبيعة .

وتستخدم البشرية بصورة واسعة لخدمة اغراضها عناصر للوسط الجغرافى مثل المطمورات النافعة ومصادر الطاقة ، غير ان هذا لم يصبح ممكنا الاّ بفضل تطور الانتاج .

دور نمو عدد السكان فى تطور المجتمع

أن وجود المجتمع وانتاج الخيرات المادية يستحيلان دون تجديد انتاج الجنس البشرى باستمرار . ومن وجهة النظر هذه يؤلف السكان وتجديد انتاجهم ونمو عددهم وكثافتهم شرطا طبيعيا

لحياة المجتمع المادية ، يؤثر تأثيرا معيّنا على تطوره . ففى المناطق القليلة السكان يمكن لتطور المجتمع ان يكون بطيئا نظرا لصعوبات اقامة الصلات الاقتصادية بين الناس ، ويمكن لتطور الانتاج ان يتعثر بسبب التعميم البطىء للتجربة والعادات الانتاجية . واخيرا ، من جراء كثافة السكان المنخفضة يمكن لتطور المجتمع ان يسير ببطء نظرا لانه لا يكفيه الناس للنضال ضد الطبيعة . مثلا، كان من المستحيل فى المناطق القليلة السكان بناء منظومات الرى واستخدام قوة الانهار من اجل انتاج الخيرات المادية فى المجتمع وذلك بسبب النقص فى اليد العاملة . ولكن من كل ما تقدم لا ينجم ان كثافة السكان هى التى تحدد تطور المجتمع . فهناك بلدان كثيرة تتماثل تقريبا من حيث عدد السكان وكثافتهم ، الاّ انها توجد على مستويات مختلفة من التطور . وثمة بلدان ذات كثافة اقل فى السكان ، ولكنها تجاوزت فى تطورها الاقتصادى والاجتماعى بلدانا تفوقها من حيث كثافة السكان. مثلا ان كثافة السكان فى الاتحاد السوفييتى اقل منها فى بعض بلدان اوروبا الغربية ، غير ان الاتحاد السوفييتى تجاوزها بعيدا فى تطوره .

ان تأثير كثافة السكان ونمو عددهم يختلف فى المراحل التاريخية المختلفة لتطور المجتمع . ففى عهد نشوء المجتمع البشرى ، اى فى زمن النظام المشاعى البدائى ، عندما كان الناس عاجزين امام الطبيعة وكان الانتاج يعتمد لدرجة كبيرة على التعاون البسيط بين المنتجين ؛ وعندما كانت العادات الانتاجية وتجربة الناس لا تزال قليلة للغاية وكان تبادل العادات والخبرة يلعب دورا هائلا فى تطور الانتاج ، فى تلك الازمنة كان لكثافة السكان ونمو عددهم اهمية كبيرة نسبيا من اجل تطور المجتمع تدريجيا . وفى العهود اللاحقة من تاريخ البشرية اخذت كثافة السكان ونمو عددهم يفقدان شيئا فشيئا تأثيرهما على تطور

المجتمع ، وأخذا يقتصران على ايجاد الظروف لهذه او تلك من وتائر نمو انتاج الخيرات المادية . اما تطور المجتمع وانتاج الخيرات المادية فيؤثران بدورهما تاثيرا فعالا على كثافة السكان ونمو عددهم .

انتاج الخيرات المادية هو اساس حياة المجتمع البشرى

ان انتاج الخيرات المادية هو الذى يحدد حياة المجتمع البشرى وتطوره . وانتاج الخيرات المادية لا يراوح فى مكانه ، بل ينمو على الدوام ويتطور ويزداد كمالا . فمن اجل ان يعيش الناس يجب عليهم الاستمرار فى انتاج الخيرات المادية ، مع العلم انه يجب عليهم انتاجها لا بالمقادير السابقة بل بمقادير متزايدة ابدا . ان تطور الانتاج هو ضرورة موضوعية مستقلة عن ارادة الناس ورغباتهم ، انه قانون الحياة الاجتماعية . وهو يفسّر قبل كل شيء بحاجات الناس النامية على الدوام وبتزايد سكان كوكبنا باستمرار . ان الانسان ، منذ انفصاله عن عالم الحيوان ، يواصل تطوره سواء من الناحية الكمية او الكيفية ، وهذا التطور يتطلب خيرات مادية متزايدة على الدوام .

٢ ــ تطور انتاج الخيرات المادية

القوى المنتجة فى المجتمع

بغية انتاج الخيرات المادية ، من الضرورى توفر مواضيع العمل ، أى المواد التى يؤثر فيها الانسان ووسائل العمل ، وقبل كل شيء ، ادوات العمل .

ان وسائل العمل ومواضيع العمل تؤلف وسائل الانتاج . بيد ان مواضيع العمل ووسائل العمل بحد ذاتها لا تعطى البشرية الخيرات المادية .

ان العنصر النشيط فى الانتاج هو قوة العمل (القوة العاملة) ، اى مقدرة الانسان على العمل وقواه الجسدية والروحية ومعرفته وعاداته التى بفضلها يستطيع انتاج الخيرات المادية . أن قوة العمل (القوة العاملة) تصنع وسائل الانتاج وتشغلها .

وهكذا تمثل القوى المنتجة فى المجتمع وحدة ما صنعه المجتمع من وسائل انتاج وقبل كل شيء ادوات العمل والناس الذين يشغلونها ويقومون بانتاج الخيرات المادية ، اى الجماهير الكادحة . ان الجماهير الكادحة هى القوة المنتجة الرئيسية الحاسمة . فوسائل الانتاج بدونها ميتة .

ان ادوات العمل تزداد اتقانا على الدوام فى سياق العمل ، وهذا يجعل الانسان اقل اعتمادا على قوى الطبيعة ، ويثبّت سيطرته وسلطانه عليها . ان التطور الدائم المتصاعد لادوات العمل هو الاساس والعامل الاهم لتطور المجتمع البشرى . ان مستوى تطور ادوات العمل هو الذى يحدد درجة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة .

ان تطور انتاج الخيرات المادية يبدأ من التغيرات فى القوى المنتجة وقبل كل شيء من تطور ادوات العمل . ان مختلف المراحل الاقتصادية فى حياة البشرية تتحدد بالطريقة التى تنتج بها الخيرات المادية وباية من ادوات العمل المستعملة فى الانتاج .

ولذا لاجل فهم التطور الاقتصادى التاريخى للمجتمع البشرى من الضرورى قبل كل شيء اعتبار العامل الحاسم الا وهو تطور انتاج الخيرات المادية ، تطور ادوات العمل .

علاقات الانتاج

ان الانسان لا يستطيع بمفرده ان يقوم بالانتاج بمجموعته المتنوعة الوجوه . فالانسان الواحد يعجز عن انتاج كل ما هو ضرورى لحياته بدون مساعدة ومساهمة الناس الآخرين . ولو كان الانسان منفردا لما استطاع النضال ضد قوى الطبيعة ولهلك فى هذا الصراع غير المتكافئ . وليس فى وسع الناس انتاج الخيرات المادية الا سوية ، متحدين فى جماعة ، فى مجتمع ، ومستفيدين من تجربة ومهارة الاجيال السابقة . ولذا لا يكون العمل الا اجتماعيا .

ولفهم التطور الاقتصادى التاريخى للبشرية ، لا تكفى دراسة تطور القوى المنتجة ؛ فمن الضرورى ايضا دراسة تلك الصلات والعلاقات الاجتماعية التى يدخل فيها الناس من اجل انتاج الخيرات المادية ومن اجل تبادل نشاطهم . وعلاقات الناس الاجتماعية فى عملية الانتاج تؤلف علاقات الانتاج التى هى جانب لا ينفصم عن الانتاج المادى .

ان علاقات الانتاج تحدد ايضا نظام توزيع المنتوجات فى المجتمع . ان توزيع منتوجات العمل يربط الانتاج بالاستهلاك ويتوقف على ملكية وسائل الانتاج . ان علاقات الانتاج لا تتوقف على ارادة الناس ، اذ ان الناس غير احرار فى اختيار قواهم المنتجة . فكل جيل من الناس يجد امامه مستوى معينا من تطور القوى المنتجة ويخضع لقوانين تطور اسلوب الانتاج الذى يطابقها ، الى ان يستنفد هذا الاسلوب قواه فى مجرى التطور التدريجى اللاحق للقوى المنتجة .

ان القوى المنتجة وعلاقات الانتاج التى تطابقها ، تؤلف مجتمعة اسلوبا للانتاج محددا تاريخيا ، وهذا الاسلوب هو

الاساس المادى لحياة المجتمع . ان اسلوب انتاج الخيرات المادية يلعب دورا محدّدا فى تطور المجتمع ، وكل درجة فى تطور المجتمع تتميز باسلوب انتاجها . وبما ان اسلوب انتاج الخيرات المادية هو الاساس المادى للحياة الاجتماعية ، فانه من الضرورى اعتبار تاريخ المجتمع ايضا تاريخا لتطور اساليب الانتاج وتعاقبها الحتمى . وعند دراسة مراحل معيّنة فى تطور المجتمع ، من الضرورى دراسة قوانين وسنن اسلوب الانتاج المطابق لها .

الفصل الثالث

ظهور الانسان وتطور المجتمع المشاعى الهدائى

١ ـ القوى المنتجة فى عهد قيام المجتمع البشرى

ان تطور البشرية الصاعد قد حدده التطور المطرد للقوى المنتجة. وبالدرجة الاولى تطور ادوات الانتاج .

لقد عُثر على بقايا الانسان القديم وعلى ادوات عمله فى الصين والهند وسيلان وبورما والجزائر وكينيا واوغندا وتانغانيكا وفى غيرها من مناطق افريقيا الجنوبية ، وكذلك فى اوروبا .

وقد عثر على بقايا اقدم انسان عاش فى اراضى الاتحاد السوفييتى الحالية وعلى ادوات عمله فى ارمينيا والقرم وعلى سواحل القفقاس وعند نهر الدنيستر وفى آسيا الوسطى .

الناس الاقدمون

كان الانسان القديم يتميز بنواح كثيرة عن الانسان المعاصر . فكانت جبهته منخفضة ومائلة ، وحاجباه قويين ناتئين متدليين ، وفكاه بارزين الى الامام . وكان يسير محدودبا على ساقين منحنيتين . ولكن ممثلى الجنس البشرى القدامى كانوا يتميزون عن اسلافهم الحيوانات . فقد كانت مشيتهم منتصبة ، وكان حجم الدماغ يزداد

دوما مقتربا من حجم دماغ الانسان المعاصر . وكان الناس الاولون عاجزين تقريبا امام قوى الطبيعة ، وكانت حياتهم قلما تختلف عن حياة الحيوانات . ولكن بمقدار اتقان ادوات العمل وتطور القوى المنتجة ، بدأ الانسان يحرز انتصاراته الاولى على قوى الطبيعة ، ولو انها كانت انتصارات طفيفة .

تطور ادوات العمل

منذ قرابة ٧٠٠ الف سنة قبل الميلاد بدأ الانسان بتكييف الحجارة صانعا منها اول ادوات العمل . وفيما بعد اخذ الانسان القديم يحطم الحجارة ويكسرها حاصلا بذلك على ادوات حجرية ذات اطراف قاطعة . وعلاوة على هذه الادوات البدائية ، كان الانسان يصنع ايضا ادوات خشبية : عصياً حادة الاطراف ، رماحا خشبية ، الخ .. وفيما بعد صار الانسان ، اكثر فاكثر ، يكيّف الادوات لاغراضه . فشرع يشحذ طرف الحجر محولا اياه الى قطاعة حادة – الى اداة كبيرة شاملة ، يقوم بواسطتها بعمليات القطع والقص وانزال الضربات وحتى بحفر الارض . والادوات من هذا الطراز كان يصنعها ويستخدمها اناس قريبون من حيث تطورهم من انسان جاوا (الانسان الشبيه بالقرد) . ان اختراع القطاعة كان من اعظم منجزات الانسان .

اما المرحلة التالية فى تطور انتاج الخيرات المادية وحياة الانسان باكملها ، فقد بدأت منذ ٥٠٠–٣٠٠ الف سنة ، عندما ظهرت القطاعات الحادة المستطيلة المصقولة ، وكذلك الادوات الجديدة كليا المكيفة خصيصا لانزال الضربات والقطع وحفر الارض وما الى ذلك . لقد اخذ الانسان يخصص الادوات طبقا لمقتضيات هذا المجال او ذاك فى نشاطه العملى . وكان صنع مختلف المحكات ،

والادوات ذات الاطراف الحادة وغيرها من الادوات يتطلب من الانسان ان يقوم بانزال ضربات محكمة لتكييف الحجارة . وهذا يثبت ان جسم الانسان كان فى سياق الانتاج ينمي ويتقن مقدرته على الحركات المنسقة .

لقد ادى ظهور ادوات انتاج جديدة الى تغير حياة الانسان برمتها . فبواسطة الادوات الجديدة اصبح فى وسع الانسان ان يصطاد بمزيد من النجاح الحيوانات الكبيرة - الفيلة ، وحيدة القرن ، الثيران ، الايول ، الخيول . واصبح بوسعه الفوز من قطعة الارض نفسها بقدر اكبر من الاطعمة ، وقد مكنه هذا من المكوث مدة اطول فى مكان واحد . وفى الاماكن المريحة للصيد - عند برك المياه ، وممرات الوحوش وتخوم الغابات - بدأ الانسان بتنظيم مقرات موقتة ، مستخدما الكهوف للسكن .

استخدام النار

فى هذا الوقت كان الانسان قد تعلم استخدام النار كمصدر للتدفئة ، وكاداة لمكافحة الضوارى ، وكوسيلة لطهى الاطعمة اللحمية والنباتية ، وكذلك من اجل اعداد بعض الادوات . وقد استخدم النار فى تكييف الحجارة واعداد العصي ذات الاطراف المحروقة ، الامر الذى كان يزيدها متانة .

وفى النضال ضد الظروف الطبيعية الاكثر قساوة ، ومن اجل اطّراد تطور البشرية ، اتسم باهمية خاصة اختراع مختلف اساليب الحصول على النار بصورة اصطناعية . فقد لاحظ الانسان ، اثناء اعداده ادوات العمل ، انه عندما يضرب حجرا بآخر تنقدح شرارات ، ولدى حك قطعة خشب باخرى تتولد حرارة . واذ استخدم الانسان هذه الظواهر الفيزيائية من اجل الحصول على

النار ، احرز لاول مرة النصر على قوى الطبيعة واجبرها على مساعدته في نضاله من اجل البقاء .

ان طهى الطعام على النار جعله اكثر تغذية واسهل هضما ، وكذلك وسع موارد الطعام عند الانسان البدائي . وقد ساعد هذا ، سوية مع عملية العمل نفسها ، على تطور الناس البيولوجي اللاحق .

تطور ادوات العمل في العصر الجليدي

منذ مئة ألف سنة ، حلت مرحلة جديدة في حياة البشرية . ففي هذه الحقبة تغير مناخ النصف الشمالي من الكرة الارضية تغيرا حادا . فزحف الجليد من الشمال ، وغطى جزءا كبيرا من اوروبا . واخذت تنهمر الامطار في البلدان الدافئة . وكانت الصحراء الكبرى الحالية مغطاة بالبحيرات والانهار والمروج المعشوشبة ، المتناوبة مع الغابات الاستوائية الكثيفة . فهلكت النباتات والحيوانات المحبة للدفء او اندفعت الى المناطق الاستوائية . وظهرت حيوانات جديدة بدل المنقرضة ، مثل الماموث وايل الشمال وثعلب القطب وغيرهما . ولكن الناس بفضل نشاطهم العملي لم ينقرضوا وواصلوا التطور . ان بقايا انسان هذه الحقبة – الانسان النياندرتالي – وجدت في اوروبا (المانيا ، اسبانيا ، بلجيكا ، يوغسلافيا ، فرنسا ، ايطاليا) وفي آسيا (الباكستان ، العراق ، جزيرة جاوا وغيرها من المناطق) وفي افريقيا الجنوبية وفي اراضي الاتحاد السوفييتي (القرم وآسيا الوسطى) .

ان ما حدد تقدم المجتمع هو اطّراد تطور القوى المنتجة . فاصبحت ادوات العمل اكثر تنوعا وتخصصا . وبرغم ان الادوات الاساسية ظلت كالسابق حجرية ، الا ان انتاجها اخذ يزداد اتقانا . فقد غدت الاطراف القاطعة تعد اعدادا خاصا ، تشحذ . وصارت تظهر الخناجر الحجرية ، والنشابات ، والمحكات لتكييف

الجلود ، الخ .. وقد ادى اتقان ادوات العمل الى تطوير عادات الناس فى العمل والى نمو خبرتهم الانتاجية .

ان ظهور ادوات للعمل اكثر اتقانا قد ساعد على تطوير الصيد الذى غدا الشغل الرئيسي الاهم عند الانسان . وبدأ الناس يصطادون جماعات وينظمون مطاردة الوحوش ودفعها الى المستنقعات وهلمجرا . وراح الانسان بصورة متزايدة ابدا ولمدة اطول يمكث فى الاماكن المريحة للصيد ، حيث لم يكن يكتفى باستصلاح الكهوف الطبيعية والسكن فيها ، وانما كان يبنى الملاجئ البسيطة لتقيه من رداءة الطقس ، مثل المخابئ والسقائف .

٢ ـ تكوّن انسان الطراز المعاصر

انسان كرومانيون

لقد ادى اطّراد تطور القوى المنتجة فى المجتمع وتطور الانسان الى تكوّن انسان الطراز المعاصر فى الفترة الواقعة ما بين ١٤ الف سنة و ١١ الف سنة قبل الميلاد ، وهذا الانسان يسمونه غالبا انسان كرومانيون . ولم يكن يختلف تقريبا من حيث تركيب جسده ومظهره الخارجى عن الانسان المعاصر .

لقد تكوّن انسان كرومانيون نتيجة لتطور البشرية التدريجى المطرد ، المرتبط بتطور النشاط العملى الجماعى لاجيال عديدة . وشيئا فشيئا تكوّنت عضوية اكثر تكيفا للانتاج الجماعى ، والتفكير ، والكلام المفصل الواضح . واخذ تطور الانسان يجرى حسب قوانين اجتماعية لا تلازم الاّ المجتمع البشرى .

كان الكرومانيونيون يقطنون اوروبا الغربية والشرقية ، وكذلك سهل روسيا ، وجنوب اوروبا ، وشمال افريقيا ، وآسيا

الدنيا والوسطى ، والقفقاس ، والهند ، واراضي خط الاستواء بافريقيا ، وجنوب افريقيا ، وشرقي آسيا ، وشمال شرقيها وجنوب شرقيها ، وسيبيريا ، وشمال الصين . وبالمقارنة مع الانسان ذى الطراز النياندرتالي كان انسان كرومانيون يستخدم ادوات اكثر كمالا . وقد تعلم اعداد كثرة من الادوات الحجرية والعظمية المختصة ، ومختلف المحكات ، والادوات القاطعة التي بواسطتها استطاع ، بصورة اسهل نسبيا ، قطع الخشب وتكييف العظم والقرن وصنع الاشياء الضرورية من هذه المواد . وفي هذه الآونة نفسها ظهرت الرماح ذات الرؤوس العظمية والصنّارات الكبيرة التي كانت تستعمل لصيد الاسماك الكبيرة والوحوش ، واولى معدات القذف — قاذفة الرمح التي وسعت مدى الرمية وزادت من قوتها ومن ابعاد طيران الرمح او النشابة .

ان تطور القوى المنتجة مكن الانسان من المكوث اطول فاطول في مكان واحد . وفي هذه الاثناء كانت تبنى مراكز السكن الواسعة ذات البيوت المشاعية الكبيرة .

نشوء الاجناس البشرية

في زمن تكوّن انسان الطراز المعاصر اخذت تنشا الاجناس البشرية اى اطرزة الناس الذين يتميزون بعضهم عن بعض بعلائم خارجية : بلون البشرة وشكل الانف والشفاه ، وطابع الكساء الشعرى . وهذه الفروق العرقية ، التي ظهرت بتأثير اختلاف الظروف الطبيعية للحياة وفي ظروف تشتت الجماعات البشرية ، تكونت في الوقت الذى كان فيه الانسان المعاصر قد تكوّن من حيث الاساس . ولم يكن لهذه الفروق اى تاثير على التركيب البيولوجي الداخلي للانسان ، وبالاحرى على مقدرته ، وتطوره الاجتماعي والثقافي .

ان النظريات العنصرية البرجوازية القائلة بان الاجناس قد ظهرت نتيجة منشأ الناس من مختلف الاسلاف وبانها بالتالى غير متعادلة فى النوعية وغير متساوية فى الحقوق ، ان هذه النظريات القائلة بوجود الاجناس الدنيا والعليا ، يدحضها دحضا تاما العلم ومجمل تاريخ المجتمع البشرى . ان هذه النظريات المنافية العلم ما اختلقت ونشرت الآ من اجل تبرير الظلم والاستعباد الاستعمارى ، ومن اجل عرقلة النضال الوطنى التحررى المعادى للاستعمار والامبريالية الذى تخوضه شعوب بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

نزوح الانسان الى مناطق جديدة

لقد ساعد تطور القوى المنتجة على زيادة الجنس البشرى . وادى هذا الى تمركز بالغ فى الاماكن المريحة للصيد وجمع الاعشاب والاثمار وصيد السمك . ولكن الانسان ، بمكوثه زمنا طويلا فى مكان واحد ، لم يكن يستطيع اعالة نفسه واسرته . ولذا توجب على الناس البحث عن اراض مناسبة جديدة والنزوح اليها . وقد جرت هذه العملية عن طريق انفصال اعداد من الناس عن الجماعات الكبيرة باستمرار ، وتنظيم جماعاتهم الخاصة . ان عملية انفصال الجماعات الجديدة ساعدت الانسان على استصلاح اراض جديدة . وظهرت عند النازحين مصالح خاصة تختلف عن مصالح الجماعة الاولية ، وقد نتج عن هذا اختلاف فى المعيشة واللغة وما الى ذلك . وساعدت تنقلات الناس على تبادل الخبرة الانتاجية وعادات العمل بين مختلف جماعات الناس ، واتسمت باهمية كبرى فيما يتعلق بتطور القوى المنتجة .

وكان اناس الطراز الكرومانيونى يقطنون تقريبا كل اراضى اوروبا وافريقيا وآسيا . وفيما بعد ، منذ قرابة ١٥–١٢ الف

سنة ، بدأوا يقطنون ايضا القارة الاميركية . وقد نفذ الناس الى اميركا من آسيا عبر مضيق بيرينغ الذى كان فى ذلك الوقت أضيق بكثير مما هو عليه الآن وكان مغطى بالجليد خلال القسم الاكبر من السنة . وفى تلك آلازمنة البعيدة ، بدأ ايضا استيطان اوستراليا التى وصل اليها الانسان من جنوب شرقى آسيا وهو يتنقل فى جزر الملايو والسوند .

ان انفصال الاوستراليين والهنود الاميركيين عن الكتل البشرية الاساسية قد وضعهم فى ظروف خاصة لم يعد بامكانهم فيها الاستفادة من التجربة الجماعية للبشرية قاطبة واستيعابها . ولكن مع هذا ، وفى ظروف طبيعية صعبة للغاية ، سلك المستوطنون الاولون فى اميركا واوستراليا ، المنفصلون عن بقية جماعات الناس ، نفس طريق تطور المجتمع الذى سلكته البشرية باسرها .

٣ ـ علاقات الانتاج فى عهد قيام النظام المشاعى البدائى

القطيع البشرى الاول

لقد عاش الناس قبل عصر الانسان النياندرتالى جماعات قطيعية . اما ما كان يحتم محافظة الناس الاقدمين على نمط الحياة القطيعى فهو مستوى القوى المنتجة المنخفض الى اقصى حد . كان الانسان المسلح بادوات عمل بدائية يضمن بقاءه باتحاده مع جماعة كبيرة من الناس . ومثل هذا الاتحاد كان ضروريا حتى عند جمع الاعشاب والاثمار وذلك للدفاع المشترك ضد الوحوش البرية . وعندما انتقل الانسان الى الصيد النشيط ، كان التوحيد الجماعى لجهود الناس ـ الرجال والنساء ـ يجلب لهم النجاح ويؤمن

لهم وسائل العيش . وكان العمل يؤثر تأثيرا متزايدا ابدا فى تطور نمط الحياة الجماعى . وكان النشاط الانتاجى باكمله يتطلب توحيد الناس فى جماعات .

فقط فى الجماعة كان من الممكن المحافظة على التجربة والبراعة الانتاجية المكدسة ، اساس تطور الانتاج ، ونقلها الى اجيال جديدة .

التقسيم الطبيعى للعمل

ان تطور القوى المنتجة وبالدرجة الاولى اختراع الادوات الجديدة ــ الرمح ، النشابة وغيرهما ــ اتاح الفرصة لتقسيم جماعة الناس من اجل القيام بمختلف الاعمال . واصبح بوسع قسم واحد من الجماعة تامين حاجات افرادها كافة الى منتوج معين وتحرير القسم الآخر للقيام باعمال اخرى . هكذا جرى التقسيم الطبيعى للعمل بين الرجل والمرأة . فان الرجال ، وهم اقوى جسديا ولا تثقل كاهلهمْ الولادة وتربية الاطفال ، قد اخذوا ينصرفون الى الصيد ويضمنون جميع افراد الجماعة باللحم والجلود ، اما النساء والشيوخ والاطفال فقد انصرفوا الى عمليات الجمع ، اى الى جمع مختلف اشكال الاطعمة التى تقدمها الطبيعة : الجذور الصالحة للاكل ، الاثمار البرية ، ثمار الحقل ، الرخويات الصالحة للاكل وما اليها ، وكذلك الى صيد السمك والقيام بالاعمال البيتية ــ الابقاء على النار والنظافة فى المنزل . وكان الشيوخ الحكماء الذين عركتهم الحياة والتجربة يقومون كذلك بانتاج ادوات العمل . وكانهم كانوا حاملين تجربة الاجيال وعادات العمل الجماعية . وبوصفهم اوفر تجربة فى الانتاج كانوا يتمتعون بالنفوذ بين اعضاء الجماعة الآخرين ويقومون بدور الزعماء عند الصيد وفى الاجراءات الجماعية الاخرى . وقد اخذوا يصبحون شيئا فشيئا القادة فى جميع شئون

الجماعة . وهكذا جرى اول تقسيم طبيعى للعمل – حسب مبدأ الجنس والسن .

وقد شهد هذا التقسيم على القفزة الكبرى التى جرت فى تطور القوى المنتجة فى المجتمع .

ان تخصص الرجال فى ميدان الصيد والنساء فى ميدان عمليات الجمع والاقتصاد المنزلى قد ادى الى ارتفاع انتاجية العمل باطراد ، اذ انه ساعد على تكديس التجربة والمهارات الانتاجية ، والى تخصص ادوات الانتاج . ان التعاضد البسيط بين الناس فى الانتاج ، ان هذا التعاون البسيط قد اتاح للناس البدائيين فرصة القيام باعمال لم يكن الفرد بقادر على القيام بها . ثم اخذ التعاون البسيط يخلى المكان شيئا فشيئا الى شكل للتعاضد اكثر تقدما ، التعاضد على اساس تخصص بعض اعضاء الجماعة بشكل معين من الانتاج ، وهذا التعاضد هو التعاون فى العمل .

نشوء المشاعة العشيرية

استتبع تطور القوى المنتجة تغيرا فى تنظيم المجتمع البشرى . فحلت محل القطيع البشرى البدائى جماعة انتاجية اكثر متانة هى المشاعة العشيرية او العشيرة . وكان يربط اعضاء المشاعة العشيرية فيما بينهم العمل المشترك والتقسيم الطبيعى للعمل بين الرجال والنساء ، والواجبات المشتركة داخل الجماعة .

وكان للتغيرات فى علاقات الزواج والقرابة اهمية كبرى بالنسبة لتنظيم المشاعات العشيرية . فقد كانت المشاعة البدائية اقل عددا من القطيع لانه مع تطور القوى المنتجة زالت ضرورة الاتحاد الدائم بين عدد كبير من الناس فى الانتاج . ولكن بعض اشكال العمل (مثلا ، مطاردة الوحوش) اقتضى موقتا اتحاد المشاعات العشائرية فى جماعات كبيرة ، فى قبائل .

ان الوحدة القبلية التى نشأت على هذا النحو قد حددت وحدة اللغة وجزئيا وحدة المعيشة . واستعاضت عن العلاقات الجنسية المختلطة ، الموروثة عن قطيع الحيوانات والتى تميز القطيع البشرى البدائى بالزواج الخارجى اى بتحريم علاقات الزواج داخل العشيرة . وقد ادى الزواج الخارجى الى تمزيز الصلات بين العشائر المترابطة بقواعد الزواج الداخلى التى لا تسمح بالزواج الا ضمن حدود جماعة كبيرة معينة هى جماعة القبيلة .

وبصورة موضوعية مستقلة عن وعى الناس ، ظهرت الضرورة الحياتية لتحريم صلات الزواج بين الاقارب . لقد بقى الزواج جماعيا ، ولكنهم اخذوا يستثنون تدريجيا من شيوع الرجال والنساء كافة فى القبيلة لا الآباء والابناء وحسب بل الاشقاء والشقيقات ايضا .

وهكذا كان المجتمع فى سياق النشاط العملى وبمقدار تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يبتعد اكثر فاكثر عن تنظيمه القطيعى الاولى ويتخذ شكل منظمة انتاجية هى المشاعة العشيرية .

علاقات الانتاج فى المشاعة العشيرية

ان علاقات الانتاج ، سواء أفى القطيع البدائى ام فى المشاعة العشيرية كانت تتطابق من حيث الاساس مع طابع القوى المنتجة فى المجتمع آنذاك . فقد تطلبت أدوات العمل البدائية والمستوى المنخفض لتطور القوى المنتجة مساهمة كل افراد الجماعة فى انتاج الخيرات المادية .

واتسمت علاقات الانتاج بسمة علاقات اناس يعملون معا من اجل بعضهم البعض . وكان جميع افراد المجتمع يعملون فى انتاج الخيرات المادية ويقدمون للمجتمع حسب كفاءاتهم .

ان كل جماعة من الناس كانت تعيش فى اراض معينة . وكانت الارض ، بما فيها من ثروات ، الوسيلة الاساسية للعمل وكانت تستخدم بصورة مشتركة ، اى انها كانت ملكا للجماعة كلها .

ان اساليب الحصول على وسائل العيش عند الناس الاقدمين — جمع الاطعمة والصيد — لم تكن لتسمح باية ملكية اخرى للارض عدا الملكية الجماعية . والذى حدّد الملكية الاجتماعية ، العامة لوسائل الانتاج هو ان المستوى البدائى لتطور القوى المنتجة اقتضى بان تكون جميع القوى المنتجة فى المجتمع موجهة على الدوام الى انتاج الخيرات المادية الضرورية للمجتمع ضرورة حيوية .

ان قوة الناس البدائيين كانت تكمن فى جماعيتهم ، فى نشاطهم العملى الاجتماعى . وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج اساس علاقات الانتاج فى النظام المشاعى البدائى .

ان المستوى المنخفض لتطور القوى المنتجة ، والطابع الاجتماعى للعمل والملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، كل هذا حتّم النظام المتساوى لتوزيع الخيرات المادية فى المجتمع البدائى . فكانت كل الخيرات التى يخلقها العمل الجماعى لافراد المجتمع توزع بين جميع افراده . واى اخلال بهذا التوزيع كان من شانه ان يؤدى الى هلاك الكثيرين من افراد المجتمع ، لان منتوجات العمل كانت بالكاد تكفى لسد حاجات المجتمع الحيوية . وكان جميع اعضاء المشاعة يساهمون على قدم المساواة فى الانتاج ويمتلكون بصورة جماعية جميع وسائل الانتاج ومنتوجاته . كل هذا حتّم خلو المشاعة البدائية من اى عدم مساواة فى الميدان الاجتماعى او فى مجال الملكية ، كما حتّم عدم انقسام المجتمع الى فئات اجتماعية .

ان المجتمع البدائى هو مجتمع خال من الطبقات ، مجتمع خال من الاستثمار .

الفروق الجذرية بين
«الشيوعية البدائية» والمجتمع الشيوعي

على سبيل الاصطلاح ، يطلقون احيانا على المجتمع البدائي تسمية المجتمع الشيوعي البدائي ، ويسمون علاقات الانتاج المشاعية البدائية علاقات الانتاج الشيوعية البدائية ، والنظام برمته يسمونه الشيوعية البدائية . من الممكن تسمية المجتمع البدائي بالمجتمع الشيوعي وذلك فقط لانه لم يكن يوجد في هذا المجتمع اي مظهر من مظاهر استثمار الانسان للانسان ، ولم تكن هناك الملكية الخاصة ، انما كانت فقط الملكية الاجتماعية ، ولم يكن هناك انقسام الى طبقات ، وكان جميع الناس متساوين . ولكن الشيوعية البدائية كانت تتميز بالمستوى البدائي الى اقصى حد لتطور القوى المنتجة والناس انفسهم ، وبانتاجية عملهم المنخفضة للغاية . فقد كان الناس عاجزين امام قوى الطبيعة وكانوا تابعين لها كليا تقريبا ولم تكن الخيرات المادية التي ينتجها المجتمع بكافية الا للمحافظة - وليس بصورة دائمة - على حياة المجتمع وتجديد انتاج المجتمع نفسه .

اما المجتمع الشيوعي المقبل فانه يتعارض كليا في هذا المجال مع الشيوعية البدائية . «والشيوعية هي نظام اجتماعي لاطبقي تقوم فيه الملكية الواحدة للشعب باسره على وسائل الانتاج ، والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع اعضاء المجتمع ، حيث ، الى جانب تطور الناس من جميع النواحي ، ستنمو ايضا القوى المنتجة على اساس العلم والتكنيك المتطورين على الدوام ، وتتدفق جميع مصادر الثروة الاجتماعية سيلا كاملا ويتحقق المبدأ العظيم «من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته» . ان الشيوعية انما هي مجتمع عالي التنظيم لكادحين احرار وواعين ، سترسخ فيه

الادارة الذاتية الاجتماعية ، ويغدو فيه العمل لخير المجتمع الحاجة الحيوية الاولى فى نظر الجميع وامرا يدركون ضرورته ، وتطبق فيه كفاءات كل فرد بافيد وجه فى صالح الشعب» *.

نظام الامومة

لقد آدى تطور القوى المنتجة الى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة . ومع ظهور ادوات جديدة للانتاج زالت ضرورة مساهمة جميع اعضاء المشاعة فى كل عملية بغية الحصول على وسائل للعيش – فى الصيد وجمع النباتات واعداد الادوات الضرورية . فقد اصبح بمستطاع قسم من اعضاء المشاعة ضمان الجماعة كلها بمنتوج معيّن ، محررا القسم الآخر للقيام بنشاط اجتماعى مفيد آخر . وعلى هذا النحو ، رفع تطور القوى المنتجة انتاجية العمل لدرجة اصبح بامكان المجتمع فيها تقسيم جهوده فى انتاج الخيرات المادية الضرورية لمعيشته . واخذ الرجال يقومون بالصيد وحده تقريبا ، اما النساء فاخذن يصنعن الملابس ومختلف اللوازم ، ويقمن بجمع وغرس النباتات الصالحة للاكل ، وبطهى الاطعمة .

لقد كان نشاط النساء الاقتصادى مصدرا مضمونا ومنتظما لمقومات الحياة ؛ اما الصيد ، الذى كان يقوم به الرجال ، فغالبا ما كان رهنا بالصدف ولم يكن بوسعه ان يزوّد الناس على الدوام بالمأكولات الضرورية . وهذا ما أبرز دور المرأة النشيط فى الحياة الاقتصادية وضمن لها القيادة فى المشاعة العشيرية .

ومما كان له اهمية كبرى بالنسبة لترسيخ نظام العشيرة

---

* «برنامج الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى» ، ص ٧٧–٧٨ . الطبعة العربية ، موسكو .

هذا ، ان المرأة كانت تكدح اما فى مركز السكن نفسه او قربه . وعلى هذا نحو أصبحت المرأة السيدة الدائمة فى المسكن الاجتماعى .

ان سيطرة الزواج الجماعى الذى لم يكن يعرف فى ظله غير ام الطفل قد ساعدت على تعزيز دور المرأة الام فى المشاعة . فكانت المرأة الام تعتبر الرئيسة الوحيدة للعشيرة ، وكانت السيدة فى مسكن المشاعة ، والمركز الذى يتجمّع حوله اعضاء المشاعة ، الاقارب عن طريق الام . كل هذا ادى الى رفع الدور الاجتماعى للمرأة الام ، الى نمو نفوذها . واخذت المرأة الام تلعب دورا قياديا فى المشاعة . وقد سميت هذه مشاعة الامومة ، وسمى النظام الاجتماعى نظام الامومة .

الفصل الرابع

ازدهار النظام المشاعى البدائى

١ ـ القوى المنتجة فى زمن ازدهار النظام المشاعى البدائى

اختراع ادوات جديدة للعمل

ان الالف الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد قد تميزا باستمرار تطور القوى المنتجة . فازدادت الادوات الحجرية اتقانا . وتعلم الناس كيف يسنون الحجارة ويحفرونها ويصنعون منها سكاكين وبلطات ورؤوسا للرماح والنشابات مريحة وخفيفة نسبيا . واثناء صنع ادوات العمل بدأ الانسان يجمع بين مختلف المواد ـ فاخذ يضع الشفرات الصوانية الصلبة الحادة فى اسس خشبية وعظمية . وهكذا جرى اختراع الكثير من مختلف انواع الاسلحة ـ البلطات والسكاكين والخناجر الحجرية ، الرماح والنشابات الخشبية الخفيفة ذات الرؤوس الحجرية الحادة . واعظم اختراع قام به الناس القدامى فى ذلك الوقت هو القوس والنشاب . فقد كان القوس والنشاب اقوى سلاح فى ايدى الناس الاقدمين وابعده مدى . اذ اصبح بمستطاع الانسان ان يصرع عدوه او صيدته على مسافة بعيدة ، وان يطلق سهما آخر اذا ما اخطأ الهدف . ان ظهور القوس والنشاب سهل بصورة ملحوظة نضال الانسان ضد قوى الطبيعة . وازدادت اهمية الصيد فى حياة المجتمع زيادة كبرى . فكان الصيد يقدم للانسان كل ما هو ضرورى من اجل حياته : الطعام اللحمى ، اللباس من الجلود ، الخامات (القرون والعظام) لصنع الاسلحة وادوات العمل .

وتعاظمت الاهمية الاقتصادية لصيد الاسماك إلذى بدأت تستخدم فيه الصنّارات والخطافات العظمية ، وكذلك اول الشباك البدائية لصيد الاسماك .

ان استخدام الادوات الجديدة ادى الى نمو انتاجية العمل . فقد بدأ الانسان ينتج اكثر بقليل مما يلزم لاستهلاكه الفورى . واصبح بامكان الانسان اذا ما توفق فى القنص وصيد الاسماك ان يخزن قسما من الماكولات كاحتياط لحالة عدم توفقه . وقد مكّن اختراع الاوعية الطينية والخشبية من حفظ الماكولات لمدة اطول ، واتاح كذلك طهى الطعام هذا الطهى الذى سهل على جسم الانسان هضم المواد المغذية ووسع بصورة ملحوظة موارد طعامه .

كل هذا سمح للناس المكوث مدة اطول فى مكان واحد . واخذ الناس يبنون مساكن دائمة من الخشب او البيوت . وبالتدريج بدأ الانسان يكف عن حياة الترحل وانتقل الى الحياة الحضرية .

الزراعة

ان نمو انتاجية العمل فتح امام الانسان مجال الانتقال الى اشكال من الانتاج تتطلب وقتا اطول – الى الزراعة وتربية المواشى . وهذه المرحلة لم تصبح ممكنة الاّ عندما ارتفعت انتاجية عمل الانسان لدرجة تمكّن فيها من العيش مدة طويلة على حساب اشكال الانتاج الاخرى والاحتياطات التى اوجدها ، بانتظار ان تنضج النباتات التى زرعها او الى ان تكبر الماشية .

ولكن التطور اللاحق للانتاج فى مختلف المناطق بدأ يسلك سبلا مختلفة .

فحتى فى اقدم الازمنة كانت بعض القبائل تقوم فى الاساس بجمع النباتات فى المناطق الملائمة لنموها . وقد انتقلت هذه القبائل من جمع النباتات الى غرسها . وكان الناس ينتقون افضل

النباتات وينشئون ظروف التربة الملائمة ، ويقومون فى بعض الحالات حتى بالتطعيم ، فتمكنوا بالتالى من تحسين انواع النباتات . ان الانتقال من جمع النباتات الى الزراعة البدائية لم يكن ممكنا الا باختراع ادوات مختصة بفلاحة الارض مثل العصا الحفارة (وهى عصا مقشرة بالسكين الحجرية ، وطرفها مشحوذ ومحروق) والمعزقة وكذلك بفضل التجربة والمهارات المكدسة فى غضون السنين الطويلة من عمليات جمع النباتات .

لقد ظهرت الزراعة عندما بدأت نساء القبائل البدائية يبذرن حبوب الذرة البيضاء التى لا تخنقها النباتات الاخرى . وفى عداد اولى النباتات التى زرعها الانسان كان الجودار والشعير والقمح ، الخ .. واذ لاحظ الناس ان النباتات تنمو فى الارض المعزوقة نموا افضل ، اخذوا يجدّون فى فلاحة التربة فى البداية بالعصى الحادة ومن ثم باداة خاصة هى المعزقة ، التى هى عبارة عن مقبض طويل مثبتة فيه شظية حادة من الحجر . واستخدموا بجمع المحصول المنجل الخشبى ذا الاسنان الصوانية الحادة . وفيما بعد (لا سيما فى ما بين النهرين ، وفى وادى النيل ومصر ، وفلسطين ، وايران وجنوب آسيا الوسطى ، وفى المنطقة الجنوبية المحاذية لبحر قزوين ، وشمال العراق وفى اراضى الاتحاد السوفييتى – على ضفاف انهر الدنيستر ، والبوغ الجنوبى والدنيبر) اصبحت الزراعة الوسيلة الرئيسية للحياة عند اكثرية القبائل .

لقد استوعب الانسان فى زمن المجتمع البدائى جميع المحاصيل الزراعية تقريبا المعروفة فى وقتنا الحاضر . فكانت القبائل الهندية فى اميركا قد تخصصت فى الازمنة القديمة بجمع النباتات ، وفيما بعد ، اذ طورت الاقتصاد الزراعى ، استنبتت من انواع النباتات الاميركية البرية مزروعات هامة للغاية مثل الذرة الصفراء والبطاطا .

ان الانتقال الى الزراعة جعل الانسان يعتمد على الطبيعة بدرجة اقل من قبل ، لان انتاجية العمل الاعلى فى الزراعة مكنته من انشاء احتياطات من الماكولات للمستقبل . وبظهور الزراعة اتسع مجال النشاط العملى عند الانسان اتساعا محلوظا . فقد اكتسب الانسان عادات فى العمل وتجارب جديدة ، واخذ يعرف بمزيد من العمق سنن تطور الطبيعة ، ويصنع ادوات جديدة للانتاج .

تربية المواشى

مع تطور الزراعة البدائية تطورت ايضا ، فى آن واحد تقريبا ، تربية المواشي البدائية . وكان انتشار الصيد بالمطاردة الخطوة الاولى نحو تدجين الحيوانات .

ان الحيوانات البرية التى كانت تساق الى مكان مسوّر لم تكن تذبح ، وانما كان يحافظ عليها كاحتياط حى من الطعام اللحمى . فى بادئ الامر كانت الحيوانات تحفظ لمدة وجيزة جدا ، اما فيما بعد فكانوا يبقونها طويلا لدرجة انها اخذت تتكاثر فى الاسر .

لقد اتسمت تربية الماشية باهمية كبرى بالنسبة لتطور الانسان ، لانها كانت تضمنه بالطعام اللحمى فى اوقات الصيد الصعبة . ان مربى المواشي الاولين فى آسيا وافريقيا واوروبا لم يستخدموا الماشية الاّ كمصدر للحم والحليب والجلود والصوف . واول حيوان دجنه الانسان هو الكلب . وفى الالف السادس والالف الخامس ق . م . ، دجن الانسان البقر والغنم والماعز والخنازير . وجرى تدجين الحيوانات فى هذا الزمن فى مصر وآسيا الدنيا والوسطى ، وفى الهند والصين واوروبا . وفيما بعد دجّن الايل واللاما (حيوان من فصيلة الجمل يعيش فى جبال اميركا) وهو الحيوان الوحيد الصالح للتدجين فى اميركا فى ذلك الوقت .

والى جانب القبائل التي انتقلت تدريجيا الى الزراعة وتربية المواشي بقيت قبائل لا تقوم الاّ بالصيد وجمع النباتات الصالحة للاكل . وكانت هذه القبائل تعيش فى اصعب الظروف الجغرافية بالنسبة لبقاء الانسان - فى اقصى الشمال ، وفى اميركا ، وفى المناطق الجنوبية من الهند وافريقيا والهند الصينية وغيرها من المناطق . وبالرغم من الظروف الطبيعية الشاقة ، تطورت هنا ايضا القوى المنتجة . فقد اتقن الانسان القوس والنشاب والبومرانغ (سلاح اوسترالى خشبى قديم يرمى به فيعود الى قاذفه) . وتعلم بناء مختلف المصايد الآلية لصيد الوحوش واستنبط اساليب جديدة اكثر اتقانا لتكييف الجلود والعظام والقرون .

وعرف الناس الكثير من النباتات الجديدة المفيدة وبدأوا يستخدمونها لا فى الطعام وحسب بل للاغراض الطبية كذلك . وكانوا يعملون من ألياف بعض النباتات الخيطان والحبال وكانوا من هذه يحيكون الشباك والانسجة والاكياس .

لقد بقيت حياة الصيادين وجامعى النباتات تعتمد لدرجة ملحوظة على قوى الطبيعة . ولكن هؤلاء انتقلوا هم ايضا بالتدريج الى طرائق اكثر تقدما لادارة الاقتصاد ، مستخدمين ادوات انتاج جديدة ، وتجربتهم وعاداتهم فى العمل وكذلك منجزات القبائل المجاورة وتجربتها وعاداتها فى العمل .

٢ - علاقات الانتاج فى زمن ازدهار النظام المشاعى البدائى

اشتداد الصلات الاقتصادية والانتاجية فى المجتمع

ان التغيرات التى طرأت على الانتاج استتبعت تغيرات لاحقة فى تنظيم جماعات الناس . والانتقال التدريجى الى الحياة الحضرية لم يعزز وحسب الصلات القديمة بين العشائر ، القائمة على قرابة

الدم ، بل انشأ ايضا صلات جديدة . واشتدت الصلات الاقتصادية والانتاجية . وللدفاع عن النفس دون الوحوش البرية ، ولحماية احتياطات المؤن والمساكن من غارات الغرباء اخذت العشائر المتجاورة تتوحد . واخذت الصلات بين العشائر تتوطد اكثر فاكثر ، مما ادى الى قيام القبائل اى الجماعات التى توحد عدة عشائر .

ومع تعزيز الصلات القبلية ظهرت ايضا الملكية القبلية . وكانت الاراضى التى تقطنها القبيلة وتقوم عليها بالصيد البرى وصيد الاسماك وهلمجرا تعتبر ملكية للقبيلة ، بكل ما فيها من ثروات طبيعية . وكانت تفصل اراضى القبيلة الواحدة عن اراضى قبيلة اخرى حدود طبيعية – نهر ، غابة ، سلسلة تلال او جبال .

ان توحيد العشائر والقبائل اتسم باهمية كبرى فيما يتعلق نشر بعض الاختراعات والمهارات الانتاجية . فان تكوّن القبائل وتوحدها فى اتحادات قبلية قد اديا فيما بعد الى تقارب لغات العشائر وتكوّن لغة للقبيلة باسرها ، وكذلك الى انشاء ثقافة عامة فى القبيلة .

وبما ان القبيلة كانت شكلا اوسع لتنظيم الحياة الاجتماعية فانها ابقت على تقسيم جماعة الناس الى عشائر تربطها قرابة الدم . وقد احتفظت كل عشيرة لنفسها باستقلال ملحوظ فى حل مسائل الحياة الداخلية . وكانت تفرز من ملكية القبيلة ملكية لكل عشيرة (مثلا ، كانت للعشيرة اراضيها الخاصة بالصيد) . وهكذا ادى تكوّن شكل اوسع للاتحاد – القبيلة – الى توسيع الملكية الجماعية .

ان الشكل الجماعى لملكية ادوات ووسائل الانتاج كان يتطابق ومستوى تطور القوى المنتجة فى المجتمع . فالزراعة وتربية المواشى البدائيتان لم تنشآ الاساس لاى شكل كان من اشكال

الملكية عدا الملكية الاجتماعية ، لان العمل المبذول فى الزراعة القائمة على وسائل الانتـاج البدائية (الفاس الحجرية لقطع الاحراش ، المعزقة الخشبية والعصا الحفارة) ، وكذلك تربية المواشى فى الوراثب كانا مستحيلين بدون توحيد جهود الجماعة كلها . وقد تطلب العمل الجماعى شكلا اجتماعيا لملكية وسائل الانتاج الاساسية : الارض ، اراضى الصيد ، المساكن ، القوارب ، الخ .. وكان الاقتصاد المنزلى يحمل طابعا اجتماعيا كذلك – فكان الناس يعيشون كالسابق فى المساكن العامة – فى البيوت ، عدة مئات من الناس معا فى بعض الاحيان .

فى ذلك الوقت ظهرت ضرورة التملك الفردى لبعض ادوات العمل المرتبطة بالفروق الفردية عند الناس (بالقامة والقوة ، الخ .) . ولكن وسائل الانتاج الاساسية كانت ملكية اجتماعية .

ادارة نشاط العشيرة والقبيلة

ان جميع شئون العشيرة والقبيلة كان يقودها الزعماء ومجالس الزعماء المنتخبة من جانب اعضاء المجتمع . وكان نفوذ الزعماء مشروطا بصفاتهم الشخصية : بالتجربة ، وعادات العمل ، والمهارة فى الصيد والبسالة الحربية ، والحكمة . ولم تكن سلطة الزعماء وراثية بل كانت تقوم فقط على الرأى الاجتماعى . وكان من الممكن دائما ازاحة الزعيم . وفى مجال الملكية لم يكن الزعيم ليتميز بشىء عن جمهور اعضاء العشيرة او القبيلة .

وهكذا ، فى عهد النظام المشاعى البدائى لم تكن توجد اية مؤسسات على شاكلة الدولة ، وكانت ادارة العشيرة والقبيلة تبنى حسب مبدأ الديمقراطية العشيرية ، اى مبدأ اشتراك جميع اعضاء

المجتمع – العشيرة او القبيلة – على قدم المساواة فى تصريف شئون الجماعة . وهذا التنظيم للمجتمع كان يتطابق من حيث الاساس وعلاقات الانتاج القائمة فى ذلك العهد .

نشوء الفن

مع تطور التفكير تطورت مقدرة الدماغ البشرى على تكوين التصورات عن هذه أو تلك من اشياء وظاهرات الواقع المحيط بالانسان ، حتى فى الوقت الذى لا يكون الانسان فيه يشاهدها بصورة مباشرة . وبمقدرة دماغ الانسان هذه ترتبط المحاولات الاولى لنسخ هذه التصورات فى صور حقيقية تتحسسها المشاعر .

فحتى فى عصر الانسان النياندرتالى حاول الانسان تصوير الاشياء بواسطة الخطوط والتجاويف المترابطة فيما بينها . غير ان الانسان آنذاك لم يكن قد تملك بعد التفكير المتطور ، ولم تكن يداه ماهرتين بصورة كافية ؛ اما الادوات التى حاول بواسطتها تحقيق نواياه فكانت بدائية بسيطة . ولم يصبح بامكان الانسان تصوير الاشياء المحيطة به فى ابداعاته الا عندما بلغت اعضاؤه وخصوصا يده درجة عالية من الاتقان ، وعندما تطورت ادوات العمل تطورا كافيا .

كانت الحجارة والصخور بقسماتها الغريبة تذكر الانسان بهذه الحيوانات أو تلك ، وكان الانسان يحاول جاهدا لكى يضفى عليها شبها اكثر . وكان الانسان ، طبقا لفكرته عن الحيوان ، يغير شكل الحجارة ويصبغها . وفيما بعد استطاع الانسان تصوير الناس ، وكذلك رسم لوحـــات من حياته على جدران الكهوف ومنحدرات الصخور بواسطة ابسط الرسمات التخطيطية ، المغطاة احيانا بصبغة معدنية . وكانت هذه الرسمات تصور بطريقة

واقعية جدا الحيوانات ومشاهد الصيد ، وكل ما كان الانسان يصادفه في حياته ويبقى مدة طويلة في ذاكرته . ان مواضيع ابداعات الفن القديمة واساليب تصويرها كانت مشروطة بحياة المجتمع البشري نفسها . وابداعات الفن هذه تعكس درجة فهم الانسان للطبيعة المحيطة به .

لم يكن الفن منذ البداية سوى نسخ بشكل خاص وبالصور الفنية للواقع الحقيقي المحيط بالانسان .

على ابواب ازدهار المجتمع البدائي كان الانسان قد تمكّن من تكوين فكرة صحيحة صحة كافية عن الشكل الخارجي لمختلف الاشياء والظاهرات في الطبيعة ، الخ .. ولكن معرفة الانسان لم تكن قد مسّت بعد الا الجانب الخارجي للاشياء والظواهر ولم يكن بوسعها ايضاح جوهرها وصلاتها المتبادلة وتأثيرها المتبادل .

ظهور التصورات الدينية

ان تطور العمل اجبر الانسان على ان يراقب ما يدور في الطبيعة . ومراقبات الانسان هذه قادته الى اولى المحاولات لادراك العالم المحيط به ادراكا اعمق . ولكن قوى الانسان ، وتجربته ، ومعرفته للطبيعة كانت بعيدة عن ان تكون كافية لتكوين تصور صحيح عن الواقع المحيط . ولم يكن بوسع الانسان البدائي ان يوضح توضيحا صحيحا صلة وتتالي ظاهرات الطبيعة وتأثيرها في حياة الناس . وكان ضعيف التسلح الى اقصى حد ، وكان على الدوام يشعر بعجزه في النضال ضد الطبيعة . وفي اوقات الكوارث الطبيعية – الفيضانات ، انفجارات البراكين ، حرائق الغابات ، الجفاف ، الجوع ، الخ . – ارغم عجز الانسان هذا ، ومعرفته الضعيفة لقوانين الطبيعة على افتراض وجود قوى خيالية

لا يفهمها تقوم بادارة الظواهر الطبيعية . ان التصورات الدينية التى ظهرت كانت انعكاسا خياليا مشوها فى رؤوس الناس لقوى حقيقية تماما كانت تسيطر فى حياة الانسان اليومية .

ان لقايا الآثار القديمة تشهد على ان التصورات الدينية لم تستطع الظهور قبل ٥٠ او ٤٠ الف سنة ق . م .. وبما ان الانسان غالبا ما كان عاجزا عن الصمود فى وجه الوحش البرى الهائج ، وكانت حياته متوقفة على صدف الصيد ، فانه بدأ ينسب خواصا خيالية الى الوحوش البرية . وقد فكر الانسان بان للوحوش والناس اسلافا مشتركين وان الوحش يعيل الانسان مقدما له لحمه . وبما ان الانسان القديم لم يجد تفسيرات لظواهر الحياة والموت ، فقد اعتبر انه اذا ما حافظ على عظام الحيوانات ، أمكن اعادة الحياة اليها بقوة سحرية خيالية .

وهذا التصور الخيالى عن الحيوان كسلف وحام لجنس معين من الناس المرتبطين ارتباطا وثيقا بهذا الحيوان والتابعين له اطلق عليه العلم اسم مذهب الطوطم (حيوان او كائن آخر تنتحل القبيلة صورته شعارا لها) . وفيما بعد لم يعد الحيوان وحده يعتبره الناس طوطما وسلفا وحاميا وانما اصبحت كذلك الاشجار والاعشاب . وبغية ضمان الحماية من الوحوش الضارية ومعيشة افضل ، والتوفيق فى الصيد ، اعتبر الانسان انه من الضرورى نيل المساعدة من الطوطم الذى اختلقه خياله . وكان الانسان يغمر الطوطم بلطفه وعطاياه ويتوجه اليه بكلمات الاستعطاف ، الخ .. وشيئا فشيئا اتخذت هذه التوجهات الى الطوطم شكل عادات معينة تسمى سحر وشعوذة الصيد .

ومن اشكال الدين الاكثر انتشارا كان الايمان بـ«كائنات روحية» غير مرئية وغير مادية منسوبة اليها خواص ما فوق الطبيعة (بمختلف الارواح الخيرة والشريرة ، بالعفاريت ، بالآلهة ،

الخ .) . ان هذا الايمان ينبع من عدم فهم الانسان لطابع ظاهرات الطبيعة التى كان وكأنه يشبهها بنفسه ويجعل لها روحا ويصورها بشكل كائن غير مادى تلازمه خواص بشرية ويمتلك قوة خيالية . فان الرعد والصاعقة والغابة والنهر ، مثلا ، حصلت على تجسيد خيالى بشكل كائنات فوق الطبيعة (جنّى الغابة ، جنّية الماء ، الخ .) . ومن هذا القبيل ايضا الايمان بالمبدأ الروحى للحياة والموت .

وعن الايمان بالقوة السحرية الخارقة التى تستطيع التأثير فى حياة الناس نشأت مختلف الرقى والحجب . فان الرقصات الحربية لم تكن فى بادئ الامر الا اثارة غريزية للمقاتلين قبل خوض المعركة ، اما فيما بعد فقد اخذوا ينسبون اليها مغزى سحريا ، معقدينها بطقوس معينة تمتلك حسب ظنهم قوة سحرية . وسحر الحب لم يكن فى البدء الا وسيلة لجذب انتباه الانسان المعجب به ، ولكنه تحول بعد ذلك الى وسيلة سحرية خيالية . وظهر السحر الطبى من الامكانية الفعلية لاسعاف المريض ببعض الاساليب (الفصد ، الخ .) ، وكذلك باستخدام الاعشاب بصفة عقاقير طبية .

كان السحر يعنى الايمان بمقدرة الانسان على اثارة قوى خيالية . ولكنه كان هناك شكل آخر للدين هو عبادة الاصنام ، وهى تعنى نسبة قوى فوق الطبيعة الى الاشياء المادية قادرة على التأثير فى الانسان ، وتعنى عبادة هذه الاشياء . فان الاوستراليين وبعض الشعوب الاخرى لعدم فهمهم سبب ولادة الانسان وموته ، اعتبروا ان حياة الانسان تحفظ فى حصى او فى خشبات صغيرة تسبب ابادتها موته .

وبما ان الناس كانوا عاجزين عن تفسير موت الانسان ، فقد اخذوا يخافون من الاموات خوفا خرافيا ، ولا سيما من

اولئك الذين كانوا يرعبونهم عندما كانوا احياء – من المحاربين البارزين والزعماء ، الخ .. واخذوا ينسبون الى اجساد الموتى وحتى الى صورهم صفات فوق الطبيعة ، وفيما بعد تكوّن تصور خيالى عن عالم آخر ما تسكنه ارواح الموتى . وقد تجلّى السعى الى ارضاء قوة ما فوق الطبيعة بشكل تقديم القرابين المادية الصرف .

وعلى هذا النحو كان ظهور العقائد الدينية القديمة نتيجة لعجز الانسان امام الطبيعة . وقد ساعدت هذه العقائد فى الابقاء على هذا العجز ، لانها حالت دون معرفة العالم ، والهت الانسان عن دراسة ظواهر الطبيعة وعرقلت بذلك تطوره الصاعد .

الفصل الخامس

تفسخ النظام المشاعى البدائى

١ ـ تطور القوى المنتجة فى عصر المعادن

اختراع أدوات العمل المعدنية

على الرغم من اتقان الادوات الحجرية ، بقيت انتاجية العمل منخفضة جدا . وقد طرأت تغيرات جذرية على تطور قوى المجتمع المنتجة فى الالف السادس والخامس والرابع ق . م .، عندما اخذ الانسان يستخدم المعادن لصنع ادوات العمل . ان استخدام الادوات المعدنية ادى الى نمو جميع القوى المنتجة فى المجتمع ، ورفع انتاجية العمل بصورة حادة ، واثار اخيرا تغيرات فى علاقات الانتاج وفى كل حياة البشرية .

وفى البحث عن المواد لصنع الادوات ، عثر النّاس على النحاس البكر الذى يتغير شكله تحت ضربات القطاعة الحجرية . فاستفاد الناس من هذه الخواص واخذوا يصنعون من النحاس الفؤوس والسكاكين والنصال للنشابات والرماح .

وفى الالف السادس تقريبا ق . م . بدأ الانسان فى مختلف الاماكن من آسيا وافريقيا واوروبا يستخدم مواد ومعادن جديدة لصنع ادوات العمل .

ومنذ الالف الرابع قبل الميلاد ، اخذ الناس يستخدمون المعادن بصورة اوسع عندما استوعبوا صهر المعادن فى افريقيا وآسيا الدنيا والهند . وتعلم الانسان اعداد سبائك من المعدن

المخلوط (مثلا ، النحاس مع القصدير) . فى بادئ الامر كان المعدن قليلا ، وكانت نوعيته رديئة ، وهذا هو السبب الذى جعل الانسان لمدة طويلة غير قادر على التخلى كليا عن استخدام الادوات الحجرية .

وباستخدام ادوات العمل النحاسية والبرونزية ، وفيما بعد الحديدية ، اخذ الانسان يكيّف الحجر والخشب والعظم والقرن بمهارة كبرى ، ويصنع المناجل والمعازق المعدنية ، وغيرها من الادوات وآنية الاستعمال المنزلى . وفى ذلك الوقت ايضا بدأ الناس يبنون البيوت الخشبية الكبيرة .

وحاول الانسان تقليدا لحركات يديه ان يستعيض عنهما بابسط الآلات . وهكذا اخترع الناس قالب الفخار وابسط نول للحياكة . ان هاتين الآلتين الاوليين لم تحسنا نوعية المصنوعات وحسب بل زادتا بصورة ملحوظة انتاجية عمل الانسان .

تطور الزراعة

كان لاستخدام الادوات المعدنية على نطاق واسع اهمية هائلة بالنسبة لتطور الزراعة . فقد انتشرت الزراعة فى مصر وفلسطين ومرتفعات ايران وسفوح العراق وفى القسم الجنوبى من آسيا الوسطى ، وفيما بعد فى مناطق آسيا الغربية والهند والصين ، وكذلك فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان ، وفى مناطق السهوب والسهوب الحرشية فى اوروبا ، وفى القفقاس وفى افريقيا .

ولم تكن الزراعة ممكنة فى المناطق الحارة والجافة الا فى سفوح الجبال ، حيث غالبا ما كانت تهطل الامطار وتنساب الانهر والجداول الجبلية . وفى هذه المناطق بدأ الانسان يحفر الاقنية ــ الجداول الاصطناعية لكى يسقى حقوله . وفيما بعد تعلم الناس

رفع المياه بواسطة الحواجز والسدود ، وكذلك حفظها فى خزانات وفى صهاريج محفورة فى الصخر . ان تطور الرى قد ساعد ، من جهة ، على امتداد الزراعة الى مناطق جديدة وزيادة المساحات المزروعة ، وساعد من جهة اخرى ، على زيـادة المحاصيل . واخذت الزراعة تصبح اقل اعتمادا على الظروف الطبيعية وتعطى الناس مزيدا من المنتوجات الغذائية .

وقد تطورت الزراعة فى الاودية الخصبة على ضفاف الانهر الكبيرة أسرع من تطورها فى المناطق الاخرى . فكانت الفيضانات السنوية للانهر تجلب الى الحقول الطمى والغرين الغنيين بالمواد الخصبة . وكان الناس يستخدمون نفس الحقل لمدة طويلة . ولم يكن يتوجب عليهم الاهتمام الا ببناء اقنية تحويل المياه التى كانت تستخدم لرى الحقول فى ايام الجفاف ، من المياه التى جمعت اثناء الفيضان . وفى المناطق الاقل خصوبة غالبا ما كان الانسان مضطرا الى استخدام ارض اخرى . وفى قطعة الارض المنتقاة من جديد كان الانسان يقطع الاشجار ويحرق الجذور والهشيم وبعد هذا يفلح الارض ويزرعها . وفى هذه الاماكن لم يكن بوسع الناس استخدام الارض الا فى غضون عدة اعوام ، طالما الارض خصبة . وكان اجداب الارض يجبر على الانتقال الى قطع اخرى . وكان الانسان يترك حقله سنين عديدة الى ان يصبح غابة . وقد سمى نظام الزراعة هذا نظام قطع الغابات . وكان منتشرا بصورة واسعة فى كثير من مناطق العالم القديم .

وقد اقتضت ممارسة زراعة الرى وقطع الغابـات وجود ادوات معدنية . فالاداة الاساسية لفلاحة الارض كانت المعزقة الحجرية وثم المعدنية . ولذا غالبا ما يسمون زراعة هذا العصر بزراعة المعزقة . وفى المناطق المناسبة لفلاحة الارض اخذت الزراعة شيئا فشيئا تبلغ مستوى عاليا من التطور واصبحت الشكل الاساسى لنشاط الناس الاقتصادى .

لقد تطورت تربية المواشي فى المناطق التى لم تكن الظروف الطبيعية فيها تساعد على تطور الزراعة . فنحو الالف الخامس والرابع ق . م .، كان لدى قبائل كثيرة تعيش فى المناطق شبه الاستوائية ، بين الحيوانات التى دجنتها ، علاوة على الكلاب ، الاغنام والماعز والخنازير والحمير والبقر ومختلف انواع بقر الوحش . ان تربية الماشية كانت اكثر انتاجية من الصيد ، ولذا اخذت القبائل التى تمارس الصيد ، ولا سيما فى المناطق السهبية ، تنتقل بالتدريج الى تربية المواشي . وفى بعض المناطق كانت تربية المواشى اكثر فعالية حتى من الزراعة ، مما حمل بعض القبائل الى ترك الزراعة والانصراف فقط الى تربية الماشية . وكانت قبائل الرعاة او مربى الماشية تحصل فى الاساس على اللحم والحليب والالبان والجلود والصوف الخ .. اما القبائل الزراعية فكانت تنتج كميات كبيرة نسبيا من مختلف انواع الحبوب والخضار والفواكه ومشتقاتها .

ان قبائل تربية الماشية لم تكن تتنقل ، بل كانت تمكث مدة طويلة فى مكان واحد الى ان تنضب المراعى كليا . وحوادث الجفاف المتكررة المرتبطة بزوال الجليد ادت الى اجداب المراعى ، لا سيما فى مناطق آسيا المركزية . وقد اثار هذا نزوح قبائل مربى الماشية من سهوب افريقيا الشمالية وآسيا الوسطى والمركزية . وفى بعض الاحيان كانت قبائل مربى الماشية تحط الرحال فى اودية المناطق السهبية وتندمج مع السكان المحليين المزارعين ، منتقلة الى الزراعة او جامعة بين تربية المواشي والزراعة . وفى أماكن اخرى جرت عملية عكسية : فقد انتقلت القبائل الزراعية الى تربية الماشية . وكان لهذه الحوادث بعض

الاهمية بالنسبة لاقامة الصلات بين قبائل وعشائر مربى الماشية والقبائل والعشائر الزراعية ، ولكن العملية العامة لانفصال قبائل مربى الماشية عن جمهرة مشاعيات العشائر البدائية لم تتوقف .

ان تطور الزراعة وتربية المواشي كان خطوة كبيرة الى الامام فى تطور البشرية . وعن طريق العمل الدؤوب اصطفى الانسان انواعا جديدة من النباتات ودجّن حيوانات جديدة . وكان الناس يحصلون على مزيد متواصل من الخيرات المادية الضرورية للحياة . واخذت انتاجية العمل فى المشاعيات البدائية ترتفع بصورة متزايدة السرعة ، مدشنة بذلك تطور المجتمع بسرعة .

٢ ـ التغيرات فى علاقات الانتاج

اول تقسيم اجتماعى للعمل

ان تخصص بعض القبائل بهذا المجال او ذاك من الانتاج عنى اول تقسيم اجتماعى للعمل فى تاريخ البشرية . واذ انشغلت قبائل الرعاة بتربية المواشي زادت من معارفها . واتقنت عادات العمل الضرورية لتطوير تربية الحيوانات . وقد مكّنها هذا من رفع انتاجية العمل والحصول على المزيد من المنتوجات الحيوانية . كذلك حسنت القبائل الزراعية اساليب فلاحة الارض وزادت محاصيل الحبوب . ان تخصص النشـــاط الانتاجى كان يخلق الشروط الملائمة لتطوير ادوات العمل ووسائل الانتاج ، مما سبب اطّراد رفع انتاجية العمل .

وقد اتسمت باهمية كبرى لتطوير القوى المنتجة عند قبائل مربى الماشية والقبائل الزراعية على حد سواء الصلات المتبادلة فيما بينها . وبسبب من نزوح قبائل مربى الماشية كانت القبائل

الزراعية وقبائل مربى الماشية فى جميع مناطق المدنية القديمة تعيش فى جوار مباشر ، الامر الذى ساعد على نشر مختلف الاختراعات والتجارب وعادات العمل عند الناس . وقد افضت الصلات بين قبائل مربى المواشى والقبائل الزراعية ، على الاخص ، الى استخدام الحيوانات (الحمير ، البقر ، الخيول) كقوة للجر فى الاعمال الزراعية . ان استعمال قوة اقوى للجر هى قوة الحيوانات اوجد الشروط لاختراع ادوات جديدة للعمل وانتشارها بصورة واسعة . واحدى ادوات العمل هذه كانت المحراث الخشبى الذى ظهر فى الالف الثالث ق . م . فى منطقة ما بين النهرين وفى مرتفعات ايران . ان استخدام قوة الجر الحيوانية وادوات العمل الجديدة قد ادى الى نمو انتاجية العمل عند القبائل الزراعية بمزيد من السرعة .

وهكذا فان التقسيم الاجتماعى الاول للعمل الذى استتبعه تخصص القوى المنتجة فى المجتمع قد ساعد على تطورها اللاحق وعلى اطراد نمو انتاجية العمل .

ثانى تقسيم اجتماعى للعمل

ان العملية اللاحقة لتطور القوى المنتجة كانت مرتبطة بصورة رئيسية بتوسيع استخدام مختلف المعادن لصنع ادوات العمل . فاستخدام ادوات العمل الحديدية الذى بدأ فى القرن الرابع عشر ق . م . استتبع نهوضا كبيرا فى الاقتصـــاد الزراعى . وكان الانسان يوسع قطع اراضيه باقتلاع الغابات وتنظيف الارض وتحويلها الى مزارع ومراع بواسطة الفأس الحديدية والرفش الحديدى . اما المعزقة التى كانت منتشرة انتشارا واسعا حتى ذلك الوقت فى الزراعة ، فقد اخذوا يستعيضون عنها تدريجيا بالمحراث الخشبى ذى السكة الحديدية .

ان الادوات الزراعية الجديدة التي مكنت من فلاحة الارض بصورة افضل ، وكذلك استخدام الماشية على نطاق واسع كقوة للجر قد رفعت انتاجية العمل لدرجة كبيرة .

وقد آتاح انتاج الادوات المعدنية والحديدية للانسان الفرصة لتحسين تكييف الخشب والحجارة والعظام وغيرها من المواد التي كان يصنع منها ادوات كثيرة . ان استعمال ادوات العمل المعدنية الجديدة قد زاد من اتقان الادوات القديمة ، وهذا ما ضمن بدوره الاستمرار في اتقان عادات العمل وتكديس التجارب .

ولقد تطلب الحصول على المعدن وتكييفه ، وانتاج الفخار وغيره من انواع الانتاج ، معدات خاصة . وكان من الضروري بناء افران الحدادة وقالب الفخار الخ ..

ومن اجل اختراع معدات معقدة ذات انتاجية عمل عالية نسبيا ، وانتاج المعادن ، لا سيما الحديد ، اقتضى الامر ان تتميز في المشاعيات مجموعات من الناس الممتلكين لكفاءات معينة في صنع ادوات العمل والمصنوعات من المعدن . وقد تطلب تطور القوى المنتجة بصورة ملحة تخصص بعض الناس في هذا النوع او ذاك من الانتاج .

لقد اخذ يظهر داخل المشاعية حرفيون محترفون . وكان الجزء الاساسي من عمل الحرفيين موجها لا للحصول مباشرة على المنتوجات اللازمة لاستهلاكهم ، بل لتامين منتوجات العمل الضرورية للآخرين . والفروع الاولى للحرف ، التي اصبحت محترفة ، كانت صناعة المعادن ومصنوعاتها ، وانتاج الفخار ، والحياكة .

وهكذا ادى اطراد تطور القوى المنتجة الى ثاني تقسيم اجتماعي للعمل — فقد انفصلت الحرفة عن الزراعة وتربية المواشي .

ان التقسيم الثاني للعمل لم يصبح ممكنا الا على ذلك المستوى من تطور القوى المنتجة ، عندما اصبح بامكان المشاعية تلبية

حاجات جميع افرادها ، بمن فيهم اولئك الذين لا يشتركون مباشرة في انتاج منتوجات الاستهلاك ، ولكن يقومون سوية مع الجميع بالعمل الاجتماعي المفيد .

نشوء التبادل

ان اول تقسيم اجتماعي للعمل ادخل التخصص في اقتصاد مختلف القبائل باتجاهين كبيرين : تربية المواشي والزراعة . وقد افضى التخصص الى ضرورة تعزيز الصلات بين مختلف المشاعيات . فالمشاعيات التي تمارس تربية الحيوانات ظهرت عندها فوائض من الماشية والجلود والصوف واللحم وغيرها من المنتوجات الحيوانية ، ولكنها شعرت بنقص حاد في الحبوب والخضار وغيرها من المنتوجات الزراعية . اما في المشاعيات الزراعية فعلى العكس ؛ فقد ظهر فائض في منتوجات العمل الزراعي ولم تكن تكفي المنتوجات الحيوانية . ولذا ظهرت ضرورة التبادل الاقتصادي لمنتجات العمل بين مختلف المشاعيات .

قبل التقسيم الاجتماعي الاول للعمل كان التبادل يحمل طابعا عرضيا . فكانت المنتجات تنتج بصورة رئيسية للاستهلاك داخل المشاعية . وفي هذا الوقت لم يكن قادرا على الدخول في التبادل غير المنتوجات التي كانت في اللحظة المعنية فائضة . وبما ان المنتوجات كانت تنتج سوية وتعود لمجموع المشاعية ، فان التبادل ايضا لم يكن يجري بين اشخاص منفردين ، وانما بين المشاعيات . وكان المنتوج المحصول عليه عن طريق التبادل يصبح ملكا للمشاعية باسرها ويوزع بين اعضاء المشاعية بالتساوي كمنتوج جرى انتاجه في المشاعية .

وقد استتبع التقسيم الثاني للعمل تطور التبادل لاحقا ،

اذ ان الحرفيين المحترفين كانوا ينتجون القسم الاكبر من منتوج عملهم لا للاستهلاك داخل المشاعية ، وانما للتبادل .

ومع تطور الانتاج تطور التبادل . وكانت الماشية مادته الرئيسية ، وكذلك فيما بعد المعادن وادوات العمل المعدنية والحلى الخ .. وكانت المنتوجات تنتقل من مشاعية الى اخرى وبهذه الطريقة انتشر التبادل فى اقاليم كبيرة . فى بادئ الامر كان التبادل يجرى بشكل مقايضة مباشرة لشئ بآخر . وثم غدا التبادل اكثر انتظاما واخذ شكل التبادل البضاعى ، اى التبادل بواسطة البيع والشراء . وبرز معادل عام ــ فكانت جميع المنتجات التى اخذت شكل البضاعة تبادل بمنتوج واحد ما . وفى المناطق المختلفة كانت مختلف المنتوجات تقوم بوظيفة المعادل العام : الماشية ، الفراء ، الملح ، وفيما بعد ارتبط دور المعادل العام ببضاعة واحدة ــ فقد ظهرت النقود . وبصفة نقود كانت تستعمل مختلف المعـادن والاصداف النادرة الخ ..

وبمقدار تطور القوى المنتجة اخذ التبادل يصبح اكثر انتظاما وصار يرتبط بالانتاج اوثق فاوثق ، لاعبا دورا هاما فى تطوره .

نظام الابوة

ان التقسيم الاجتماعى الاول للعمل لم يسجل مرحلة جديدة فى تطور القوى المنتجة وحسب ، بل ادى ايضا الى تغيرات ملحوظة فى الحيـاة الاجتماعية فى المشاعية البدائية . وقد جرت هذه التغيرات قبل كل شئ فى حياة قبائل مربى الماشية .

كان الرجال هم الذين يقومون فى الاساس بتربية المواشى ، كما بالصيد ايضا . ولذا تعاظم فى قبائل مربى الماشية الدور الاقتصادى لعمل الرجل فى الاقتصاد العام ، ثم اخذ عمل الرجل

يتحول الى المصدر الاساسى لانتاج الخيرات المادية فى المشاعية ، معززا بذلك دور الرجل فى القبيلة . وقد ادت هذه العملية الى الاستعاضة عن نظام الامومة بنظام الابوة (البطريركية) . وجرى هذا التبدل فى القبائل الزراعية متأخرا وبصورة ابطأ . ولكن هناك ايضا اخذ يرتفع شيئا فشيئا دور عمل الرجل ، واخذت تتزايد اهمية الرجال فى المجتمع . وعندما اصبحت الزراعة تلعب الدور الرئيسى فى الاقتصاد ، بدأت المشاعية ترسل الى العمل اقوى افرادها – الرجال . وبالتدريج تحول هؤلاء الى قوة العمل الاساسية فى الزراعة ، وغدا عملهم يلعب الدور الحاسم فى اليسر المادى للمشاعية . كذلك رفع استخدام قوة الجر الحيوانية دور الرجال فى الزراعة بصورة ملحوظة . ومع تطور استخدام المحراث الذى يتطلب قوة جسدية كبيرة ، انتقل العمل الزراعى نهائيا الى ايدى الرجال .

وقد تحول عمل النساء الذى ظل مرتبطا لدرجة كبيرة بممارسة الاقتصاد المنزلى ، من مصدر رئيسى للخيرات المادية فى المشاعية الى مصدر ثانوى .

ومع تعاظم دور الرجل فى انتاج الخيرات المادية تغير ايضا وضعه فى الاسرة والعشيرة . فقد اصبح يسر الاسرة والعشيرة يعتمد فى الاساس على عمل الرجل .

وشيئا فشيئا اخذ الرجل يصبح رب الاسرة وبدأ يلعب الدور الاولى فى الحياة الاجتماعية فى العشيرة .

فى المرحلة الاولى من المجتمع الابوى (البطريركى) ، كما فى ظل نظام الامومة ، كانت كل عشيرة تملك بصورة جماعية الاراضى التى كانت تحط عليها وتستخدمها كمكان للصيد ، وللزراعة وتربية المواشى . وكان جميع اعضاء العشيرة متساوين ، وكانت القضايا المتعلقة باعضاء العشيرة تحل فى اجتماعهم العام . وكان

رئيس العشيرة ينتخب فى الاجتماع العام لجميع البالغين من الرجال والنساء ، الذين كانوا يتمتعون بحقوق متساوية . ولم يكن رئيس العشيرة المنتخب يملك اية وسائل خاصة للاكراه وكانت سلطته تتسم بطابع معنوى . وكان اعضاء العشيرة يحترمونه ولا يخضعون لقراراته ألاّ بحكم الاعتراف بكفاءاته ومكانته وخبرته .

وكانت العشيرة تنتخب لايام الحرب زعيما او قائدا حربيا . وكانت سلطة هذا القائد تقوم كذلك على مكانته وخبرته . وكان ينتخب من قبل اعضاء المشاعية لتنظيم جهود العشيرة فى مكافحة العدو . وبانتهاء الحرب كانت تنتهى سلطة القائد الحربى . وهذا التنظيم للحياة الاجتماعية فى العشيرة يسمى الديمقراطية العشيرية ، اى سلطة جميع اعضاء العشيرة الموجهة للدفاع عن مصالح العشيرة باسرها .

٣ ـ ازمة علاقات الانتاج المشاعية البدائية

ظهور المنتوج الزائد

ان نمو انتاجية العمل فى المجتمع ، فى زمن التقسيمين الاجتماعيين للعمل الاول والثانى ، قد بلغ مستوى تمكّن معه اعضاء المجتمع ليس فقط من ضمان انفسهم بمقومات الحياة ، وانما ايضا من انتاج كمية معينة من المنتوجات فوق ما هو ضرورى . والمنتوج الفائض عمّا يلزم للابقاء على حياة الشغيل واسرته يسمى المنتوج الزائد (الاضافى) ، اما العمل الضرورى لانتاجه فيسمى العمل الزائد (الاضافى) .

لقد كان الانتاج فى تلك الازمنة يحمل طابعا بدائيا . وكانت حاجات الانسان تحددها ضرورة الابقاء على حياته وحياة اسرته . وغالبا ما كان الانسان البدائى يحيا حياة شبه جائعة ، ولم يكن لديه مسكن مكيف ، وكان يستخدم ملابس بدائية .

التغيرات في مجال توزيع المنتوجات

ان بلوغ الانتاج مستوى اضحى من الممكن فيه تامين الحاجات الحيوية للانسان بل واعطاء منتوج زائد (اضافي) ، قد فتح الطريق لاطراد تطور المجتمع .

وفي هذه المرحلة بلغ تطور القوى المنتجة ونمو انتاجية العمل ليس فقط عند المجموع ، وانما ايضا عند كل عضو في المشاعية على انفراد ، مستوى اصبح الناس معه غير ملزمين ، من اجل الحصول على الخيرات المادية الضرورية للحياة ، بان يتعاونوا في اتحادات انتاجية كبيرة .

وقد ساعد على تفسخ الجماعات الانتاجية الكبيرة واقع ان التطور اللاحق للقوى المنتجة سلك طريق تخصص ادوات ووسائل الانتاج وامتلاكها الفردي . وفي كثير من الاحيان لم تبق حاجة لكي تذهب جماعة كبيرة للقيام بالعمل المشترك . وكان اعضاء العشيرة يشتغلون بكثرة من الاعمال ، وفي هذه الحالة ، لم تكن انتاجية العمل في مختلف الاعمال متشابهة ، وكان عمل البعض اكثر نتاجا من عمل الآخرين . ولذا كانت اهمية عمل اعضاء المشاعية المنفردين بالنسبة للجماعة باسرها تقدر تقديرا متفاوتا ، واصبح دور كل من الاعضاء في التعاون الانتاجي متفاوتا كذلك .

في هذه الظروف لم يعد التوزيع المتساوي لمنتوجات العمل الذي كان موجودا حتى ذلك الوقت في المشاعية والقائم على العمل المتساوي لاعضائها ، لم يعد بامكانه الاستجابة لمقتضيات تطور القوى المنتجة لاحقا . ولذا طرأت تغيرات في مجال توزيع المنتوجات : ان من يقدم أكثر للمشاعية يحصل على اكثر .

لقد انتهك التوزيع المتساوي للخيرات في المشاعية ، ولكن في المرحلة الاولى ظل نظام التساوي قائما في اساس التوزيع ، اذ

ان الخيرات الاساسية كانت توزع بالتساوى ، والمنتوج الزائد (الاضافى) فقط هو الذى اصبح يوزع طبقا لمعدل ونتائج العمل .

لقد كان للتغيرات فى مجال توزيع منتوجات العمل اهمية تقدمية كبيرة ، لانها شجعت اهم فروع العمل وكذلك الفروع الجديدة ، واجبرت على اتقان ادوات العمل وطرائق الانتاج وبذلك سرعت تطور المجتمع البشرى لاحقا .

التناقضات بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة

فيما بعد تطورت القوى المنتجة لدرجة ان كل عضو فى المجتمع ، يملك انتاجية وسطية للعمل ، استطاع بدون تعاون ان يضمن نفسه بالخيرات الضرورية لحياته . والاساليب الجديدة فى الانتاج ، لا سيما الزراعة القائمة على استخدام المحراث والمعزقة ، لم تعد تتطلب بان يقوم عدد كبير من الناس ببذل جهودهم فى آن واحد فى موضوع واحد للعمل . ولذا اخذ يزول شيئا فشيئا الاساس الاقتصادى للتعاون فى العمل عند جماعة كبيرة من المنتجين ولم يعد العمل المشترك للعشيرة باسرها حاجة ضرورية فى ظروف التكنيك الجديد . ناهيك بانه لم يعد يتطابق والمستوى الجديد لتطور القوى المنتجة ، لانه كان يحد من استخدام اعضاء المشاعية لادوات العمل الجديدة الاكثر اتقانا ويوجههم صوب العمل الجماعى العام القائم على التكنيك القديم .

وهكذا ، ادى تطور القوى المنتجة فى المجتمع الى نشوء عدم تطابق بين علاقات الانتاج والمستوى الجديد لتطور القوى المنتجة . فعلاقات الانتاج القديمة ، التى كانت تميزها الجماعية والملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، اخذت تتحول تدريجيا الى عقبة امام تطور القوى المنتجة ولذا كان لا بد من ان تحل محلها علاقات انتاج جديدة .

الاسرة الابوية

على اساس هذه التغيرات فى الانتاج اخذ يتغير ايضا البناء الاجتماعى للمجتمع . فبدل المشاعية العشائرية الكبيرة ، جاءت جماعة اقل هى الاسرى الابوية (البطريركية) التى بدأت تنعزل تدريجيا فى وحدة اقتصادية منفردة . وكفت العشيرة عن كونها وحدة كاملة . وانتهكت روابط القرابة وحلت محلها روابط جديدة بين عائلات منفردة . ولم تكن علاقات القرابة تربط الاسر بقدر ما تربطها العلاقات الاقتصادية . واخذت تشغل مكان مشاعية العشيرة القائمة على روابط الدم المشاعية الاقليمية المتجاورة التى تربطها مصالح اقتصادية مشتركة .

ظهور الملكية الخاصة

لقد بقيت العلاقات القديمة فى المشاعية الاقليمية بصورة جزئية . مثلا ، كانت الارض ــ القوة المنتجة الرئيسية عند المشاعيات الزراعية ــ ما تزال تعتبر ملكية عامة ، ولكن كل اسرة تفلح قطعة معينة من الارض وتدير اقتصادا منعزلا . وفى قبائل مربى الماشية اخذت تنتقل القطعان الى ملكية عائلات منفردة . وقد نشأت فى هذه العائلات كمية مختلفة من المنتوجات لم تعد تذهب الى الاستخدام المشاعى لتوزع على اعضاء المشاعية . وكانت المنتوجات تبقى داخل كل اسرة ، متحولة الى ملكيتها الخاصة . وظهرت الملكية الخاصة فى بادئ الامر للماشية والآنية المنزلية وبعض وسائل العمل الفردى ومنتوجاته .

ان المشاعية الاقليمية المتجاورة كانت تحمل فى ثناياها عناصر تقوضها . فبيت الاسرة كان ملكية خاصة تتعارض مع

الملكية المشاعية للارض . ولم يكن من الممكن توسيع هذه الملكية الخاصة الا على حساب الاراضى المشاعية .

وبالارتباط مع ظهور الملكية الخاصة اخذت الممتلكات تنتقل بالوراثة من الآباء الى الابناء ، وشرع ينشأ مزيد من عدم المساواة فى التملك بين اعضاء المشاعية المتساوين فيما مضى .

ان ظهور الملكية الخاصة قد اسفر عن طراز جديد للتبادل هو التبادل داخل المشاعية ، بين مختلف العائلات .

وهكذا ، طالما كان جميع اعضاء المشاعية البدائية ينتجون سوية كل المنتوجات الضرورية لهم ، كانت الملكية الخاصة مستحيلة . ومع نمو القوى المنتجة ، عندما دخل الى المشاعية تقسيم العمل واخذ اعضاؤها يقومون على انفراد بانتاج منتوج ما ويبادلونه فى السوق ، عندئذ ظهرت الملكية الخاصة بوصفها تعبيرا عن هذا الانعزال المادى لمنتجى البضائع .

ان المشاعية المتجاورة كانت بمثابة مرحلة انتقال من المجتمع القائم على الملكية الجماعية الى المجتمع القائم على الملكية الخاصة .

ظهور الرق

ان نمو انتاجية العمل الذى افضى اليه تطور القوى المنتجة قد اشترط ظهور الملكية على المنتج نفسه ـ الانسان . وقد كان استثمار الانسان للانسان مستحيلا عندما لم يكن بوسع الانسان ان ينتج غير المنتوجات الضرورية للابقاء على حياته . ولذا غالبا ما كانوا يقتلون العبيد الاسرى . وفى بعض الاحيان كانت المشاعية المعنية بتعزيز قواها تقبل اسير الحرب كعضو من اعضائها يتمتع بكامل الحقوق . وقد ادى نمو انتاجية العمل الى ان الاسير اخذ ينتج اكثر مما يلزم لاعالته .

وقد ارغم جزء من المجتمع الاسير على العمل لخدمته وحرمه من حقه بالحصول على حصته من المنتوج الاجتماعى الزائد ، فتمكّن بالتالى من تملك الخيرات التى ينتجها الاسير - اى استثماره.. ولهذا الغرض لم يعودوا يقتلون الاسرى ، بل اخذوا يحولونهم الى عبيد ، ارقاء - الى كادحين محرومين من الحقوق ، كانت المشاعية تبقيهم فقط ما داموا ينتجون المنتوج الزائد ويعودون عليها بالفائدة . وهذا الرقيق العبد ، الذى لم يكن يتمتع باية حقوق ، كان من الممكن قتله فى اية لحظة عندما لا يبقى عمله مفيدا للمشاعية .

لقد كان ظهور الرق (العبودية) ظاهرة حتمية تماما بالنسبة لذلك الزمن ، عندما اصبح العمل قادرا على ايجاد المنتوج الزائد ، مع العلم ان انشاء المنتوج الزائد كان يجرى لدرجة ملحوظة على حساب الحد الاقصى من استنزاف القوى الجسدية والمعنوية عند منتجى الخيرات المادية .

هكذا تقوضت خاصة اخرى من الخصائص الاساسية للنظام المشاعى البدائى الا وهى العمل الجماعى الرفاقى للمنتجين . والى جانب المنتجين الاحرار بدأ يكدح عبيد محرومون من الحقوق ، كان القسم الاكبر من عملهم يبذل لا لسد حاجاتهم الخاصة ، وانما لايجاد المنتوج الزائد لاجل الآخرين . لقد اصبح عمل العبيد مصدرا للثروات .

فى الفترة الاولى كان العبيد يتبعون للمشاعية ككل او للاسرة الابوية بكليتها . ولكن فيما بعد ، وسوية مع ملكية المشاعية الاخرى ، اخذ يتملك العبيد الاشخاص المتنفذون فى المشاعية اكثر من غيرهم ، وغدا العبيد ملكية خاصة للزعماء وغيرهم من ممثلى ارستقراطية العشيرة . وكان استثمار عمل العبيد يجلب الثروات لهؤلاء الناس ويقوى سلطتهم .

ان ظهور عمل العبيد سجل بدء مرحلة جديدة فى تطور المجتمع هى مرحلة استثمار الانسان للانسان ، وكان ظاهرة حتمية منبثقة من اطراد تطور القوى المنتجة .

والى جانب استثمار عمل العبيد ، القائم على ملكية مالكى العبيد التامة للعبد - المنتج ولجميع ادوات ووسائل الانتاج ، كان يوجد فى المجتمع مصدر آخر للخيرات المادية . وهذا المصدر هو عمل المشاعيين - المزارعين ومربى الماشية والحرفيين المنفصلين ، العمل القائم على ما لديهم من اقتصاد خاص ، وملكية صغيرة خاصة لادوات ووسائل الانتاج .

ظهور الطبقات

لقد برزت فى المجتمع الذى كانت تسود فيه فيما مضى علاقات الانتاج الرفاقية القائمة على الملكية الجماعية لادوات ووسائل الانتاج ، ثلاث مجموعات اساسية من الناس تبعا لعلاقتهم بادوات ووسائل الانتاج .

اولا، الارقاء ، العبيد ، المحرومون من اية ملكية ، الواقعون انفسهم فى الملكية التامة لاسيادهم مالكى العبيد . ثانيا ، مالكو العبيد الحائزون على ملكية ادوات ووسائل الانتاج ، وعلى العبيد كذلك ، والذين يستثمرون عمل العبيد . ثالثا ، المشاعيون الاحرار الذين يملكون اقتصادهم الصغير الخاص القائم على العمل الشخصى والملكية الصغيرة لادوات ووسائل الانتاج . وتدريجيا افلس قسم كبير من المالكين الصغار وتحول الى عبيد ، وقد اغتنى قسم ضئيل منهم وتحول الى مالكى عبيد - مستثمرين . وعلى الرغم من هذا فان المالكين الصغار - المشاعيين الاحرار - قد استمروا فى البقاء .

وقد مَس تطور القوى المنتجة طابع علاقات الانتاج فى اهم مسألة ، هى مسألة ملكية ادوات ووسائل الانتاج . وتبعا للموقف

من هذه المسألة انقسم المجتمع الى طبقات . ولاول مرة فى تاريخ البشرية ظهر المجتمع الطبقى .

وادى ظهور الملكية الخاصة وعدم المساواة فى التملك الى تغيرات فى حقوق وواجبات اعضاء المجتمع . فقد اصبحت الفئة العليا الغنية تدير عمليا جميع شؤون المشاعية الاقليمية . وظهر اعضاء المشاعية من الارستقراطيين والاغنياء واخذوا تدريجيا فى ايديهم دفة قيادة القوة الحربية فى المشاعية ولم يستخدموها فى مصلحة المشاعية عامة بقدر ما استخدموها فى مصالحهم الخاصة — للاستيلاء على ثروات جديدة ، وبالدرجة الاولى ، للاستيلاء على عبيد جدد ينتجون الثروات . وفى اثر عدم المساواة فى التملك ظهر عدم التساوى فى الحقوق .

لقد ولى زمان النظام المشاعى البدائى نهائيا . ولم يعد عمل المشاعيين الاحرار المصدر الرئيسى لثروات المجتمع الذى دخل مرحلة جديدة من تطوره . واخذت تتكون علاقات اقتصادية اجتماعية جديدة .

٢

مجتمع الرق

الفصل الاول

مجتمعات الرق فى آسيا وافريقيا

ان اسلوب الانتاج المشاعى البدائى ، النظام المشاعى البدائى قد سار الى الهلاك بصورة لا مفر منها . ولكن حتمية ، سنّة حلول نظام جديد هو نظام الرق (النظام العبودى) محل هذا النظام الصائر الى الزوال لم تعن قط ان النظام الجديد سيظهر فجأة ويزيح دفعة واحدة علاقات الانتاج القديمة . فان مجتمع الرق (المجتمع العبودى) نشأ تدريجيا ، بمقدار توطد طبقة مالكى العبيد الاستثمارية التى ظهرت فى احشاء النظام المشاعى البدائى ، بمقدار انتشار العبودية .

لقد كان اسلوب الانتاج العبودى اكثر تقدمية من النظام المشاعى البدائى ، لان التقدم اللاحق لم يكن ممكنا الا شريطة تحرر جزء من المجتمع من العمل الجسدى .

ظهرت مجتمعات الرق (المجتمعات العبودية) لاول مرة فى تاريخ البشرية فى آسيا وافريقيا . وبدراسة تطور الرق (العبودية) فى هاتين القارتين ، نستطيع ، من جهة ، تعريف السنن العامة لتكوّن علاقات الرق (العلاقات العبودية) ، ومن جهة اخرى ، تبيان الخصائص الملازمة لبلدان آسيا وافريقيا .

١ ـ الرق المشاعي والابوى

لقد اجتاز امتلاك العبيد الارقاء فى غضون زمن طويل من وجوده عدة مراحل . الاولى منها هى الرق المشاعى (العبودية المشاعية) ، وقد ظهر فى احشاء النظام المشاعى البدائى ، عندما لم تكن الملكية المشاعية قد تفسخت بعد . فالعبيد فى هذه المرحلة كانوا ملكية مشاعية كذلك . وبجوار الرق المشاعى (العبودية المشاعية) قام الرق الابوى (البطريركى) . وقد نشأ فى احشاء النظام المشاعى البدائى وتعايش لزمن طويل مع العلاقات المشاعية البدائية ومخلفاتها . ولم يكن عدد العبيد كثيرا فى هذه الحقبة ، ولم يكن عمل العبيد يتسم باهمية كبيرة . وكانت العبودية وكانها تحمل طابعا مستورا ، وغالبا ما ظهرت بشكل معونة للاقارب وابناء القبيلة الواحدة .

واذ كان اسير الحرب ، او عضو المشاعية الواقع فى براثن الفقر ، يحصل من صاحب الثروة فى المشاعية (فى الغالب من الزعيم او الكاهن) على تغذية ضئيلة ، كان ملزما بان يقدم له كل عمله . ومع التطور العام للملكية الخاصة ، قام تدريجيا «حق» الملكية لا للخيرات المادية وحسب ، وانما للمنتج ايضا . فالقريب المعدم او اسير الحرب «المتبنّى» اخذ يصبح عبدا ليس فقط عمليا ، بل وحقوقيا كذلك ، اى ملكية تامة لسيده .

ويقوم العبد باكثر الاعمال مشقة او باكثرها خطرا . ان مخلفات النظام المشاعى البدائى كانت ما تزال تخفف من وضع العبد ، غير ان وضعه كان يزداد وطاة اكثر فاكثر . وكانت الملكية الخاصة تمزق بلا رحمة روابط قرابة الدم . وكان التنكيل بالعبد الذى كان عضوا فى القبيلة او بيعه للغير يثيران السخط الهائل

عند اعضاء المشاعية البسطاء ، ويثيران كذلك الاعمال النشيطة ضد القريب المغتنى .

والمصادر الاساسية لزيادة عدد العبيد فى هذه الحقبة كانت الحرب وتجارة الرقيق واستعباد اعضاء المشاعية المعدمين لقاء ما عليهم من ديون .

وهذه المصادر من الممكن مشاهدتها فى تاريخ المجتمعات العبودية فى جميع القارات مع بعض التنوعات والاشكال .

٢ ـ نشوء الدولة

سار تطور العلاقات الملازمة للرق (للعبودية) بجانب تطور القوى المنتجة وتبعا لها . وقد افضى نمو الانتاج الزراعى واشتداد تقسيم العمل بين الزراعة وتربية المواشى ، وتطور التعدين وما الى ذلك ، الى ازدياد الحاجة الى القوة العاملة ، اى الى العبيد

لقد كان عدد العبيد ينمو ، ويزداد العداء تفاقما بين الطبقتين الاساسيتين فى المجتمع ـ العبيد ومالكى العبيد . ان استثمار العبيد لم يكن الاول فى تاريخ البشرية وحسب ، وانما كان اقسى اشكال الاستثمار ايضا .

وكان شديد الوطأة كذلك وضع جماهير المشاعيين الاحرار الذين كانوا يعيشون فى الفقر والعوز وتحت الخطر الدائم لاستعبادهم لقاء ما عليهم من ديون .

ولم يكن بوسع مالكى العبيد اخضـاع العبيد والمشاعيين البسطاء واكراههم على العمل من اجلهم ، وزيادة ثرواتهم ، واشباع جشعهم النامى الذى لا يمكن اشباعه ابدا ، الاّ بوجود جهاز دائم للعنف والقسر . وقد تكوّن هذا الجهاز تدريجيا بشكل الدولة .

ان الوظيفة الرئيسية لدولة الرق (كما فى المجتمعين الاستثماريين الآخرين – الاقطاعى والرأسمالى) هى قمع المستثمرين . وكانت دول الرق (الدول العبودية) تشن الحروب الدائمة للاستيلاء على العبيد ، ناهبة السكان فى الاراضى المفتوحة ، ومحولة المهزومين الى دافعى جزية او الى عبيد . ومن هنا تنبثق الوظيفة الثانية للدولة وهى وظيفة توسيع اراضيها . وهذه الوظيفة لا تميز دولة الرق وحدها ، انما تميز كذلك كل دولة ، ايا كان طرازها تقوم على استثمار الانسان للانسان .

والدولة تحقق وظائفها بواسطة جهازها اللازم لذلك . ولهذا الغرض اخذت الدولة تكيف قبل كل شىء بعض المؤسسات العشائرية – القبلية التى امست تعبر لا عن مصالح العشيرة او القبيلة بكاملها ، وانما فقط عن مصالح حفنة من شيوخ العشائر وزعماء القبائل اخذت تتحول شيئا فشيئا الى سلاطين بالوراثة . ولئن كانت القوة الحربية فى عصر النظام المشاعى البدائى قوة تطوعية عامة للمشاعيين القادرين على حمل السلاح ، فانها قد ظهرت فى دولة الرق قوة منفصلة عن الشعب ومجابهة له – جيشا محترفا مدعوا للدفاع عن المصالح المغرضة الانانية الضيقة لمالكى العبيد . وهكذا على وجه الدقة ظهرت المحكمة التى تسترشد فى نشاطها لا خدمة مصالح المجتمع ككل ، وانما فقط مصالح قسمه الضئيل – مالكى العبيد . وفى ذلك الوقت كان رجال الدين لا ينفصلون عن الدولة ككل ؛ واخذ ممثلوهم يصبحون جزءا من جهاز الدولة ويقومون باعمالهم جنبا الى جنب مع مختلف انواع المشرفين ، والحراس ، والكتبة ، والمراقبين ، و«المهذّبين» ، وجباة الفرائض والضرائب الخ ..

ان تقسيم السكان حسب السمة العشائرية اخذ يحل محله التقسيم حسب المبدأ الادارى – الاقليمى .

الطبقات والدولة

فى ظل النظام العبودى انقسم المجتمع البشرى لاول مرة الى طبقات .

عندما درسنا عملية انحلال العلاقات المشاعية البدائية ، اثبتنا ان الانقسام الى طبقات تشترطه الاسباب الاقتصادية ، العلاقات الاقتصادية .

ان العلاقة المختلفة بوسائل الانتاج هى السمة الحاسمة للطبقة ، وهى ايضا تحدد كل سماتها الاخرى ، كدورها فى التنظيم الاجتماعى للعمل ، ومقادير مداخيلها ومصادرها . وهكذا ، يمكننا ان نقول ان الطبقات هى جماعات كبيرة من الناس تختلف من حيث مكانها فى نظام تاريخى معين للانتاج الاجتماعى ، من حيث علاقتها (وهى فى اغلب الاحوال مثبتة ومصاغة فى قوانين) بوسائل الانتاج ، من حيث دورها فى التنظيم الاجتماعى للعمل ، وبالتالى ، من حيث اساليب الحصول على ذلك الجزء من الثروة الاجتماعية التى تمتلكها ومقادير هذا الجزء .

ولا تظهر الطبقات الاّ بظهور المنتوج الزائد ، اى فى الوقت الذى يسمح فيه تطور القوى المنتجة للانسان ان ينتج اكثر مما هو ضرورى لسد اكثر حاجاته الحاحا .

والدولة هى جهاز الطبقة السائدة ؛ اما فى المجتمعات الاستثمارية فهى جهاز الظلم والاستعباد الطبقى .

ان الاطرزة التاريخية المختلفة للدول الاستثمارية تتميز بعضها عن بعض . غير ان جوهرها واحد : الاقلية المستثمرة تسيطر على الاكثرية المستثمرة .

اتحادات القبائل

ان اتحادات القبائل هى ابكر اشكال الدولة . وهذه المرحلة اجتازتها دول الرق المعروفة جميعها تقريبا .

كانت اقوى القبائل واكثرها عددا تؤلف نواة هذا الاتحاد . ومن عشيرة زعيم هذه القبيلة (فى الغالب كان زعيمها نفسه القائد الحربى) كان يبرز الملك . وكانت سلطة الملك وراثية . ومن عشيرة الملك كان يعين رؤساء الكهنة فى المعابد الرئيسية . وكان اتحاد القبائل يتكوّن سواء على اساس اتفاق الزعماء فيما بينهم ، او عن طريق اخضاع القبائل الاضعف . وكان توسيع اراضى الدول يجرى نتيجة لحروب الفتح .

والى جانب القبائل المتحدة فى تشكيلات الدول ، بقيت قبائل الرحل التى لم تدخل فى نطاق الدول .

اولى دول الرق فى آسيا وافريقيا

ان ظهور دول الرق (الدول العبودية) كان دليلا على انتصار اسلوب الانتاج العبودى . وقد ظهرت اولى الدول فى مصر ، وفى وادى دجلة والفرات (ما بين النهرين) — مملكة سومار ومملكة اكاد ومملكة بابل ؛ وفى الهند والصين فى الالف الرابع والثالث والثانى ق . م . ، وفى النصف الاول من الالف الثانى ق . م . — فى آشور . وفى ذلك الوقت تكوّنت الدولة الحثية القوية فى الهضبة المركزية من آسيا الصغرى . وفى القرن الخامس عشر ق . م . ، ظهرت على اراضى اليمن المعاصرة دولة عربية قديمة هى المملكة المعينية . وفى الالف الاول ق . م . تكونت فى ما وراء القفقاس دولة اورارتو . وفى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . وجدت فى آسيا الوسطى دولة خوارزم القوية ،

وفيما بعد الدولة الكوشانية . وفى القرن الثامن ق . م . ظهرت فى القسم الغربى من ايران دولة الميديين التى حلت محلها فى القرن السادس ق . م . دولة الفرس . وفى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م .، بدأ يتكون النظام العبودى فى اليونان ، وفى القرن السادس ق . م . — فى روما القديمة . وفى اراضى اميركا (الوسطى والجنوبية) تكونت دول الرق قبل مجىء المستعمرين الاسبانيين بقرن ونصف او قرنين تقريبا ، عدا المدن — الدول عند شعب مايا التى ظهرت ، على ما يبدو قبل ذلك بكثير .

الاستبداد العبودى

ان اتحاد القبائل ليس بالدولة بعد ، وانما هو مقدمتها فقط . وقد ادى تعزز سلطة الزعماء تدريجيا ، ونمو وتوطد جهاز الدولة الى تحول اتحاد القبائل الى ما يسمى بحكم الاستبداد العبودى ، وهو الشكل الذى اكثر ما يميز دول الرق (الدول العبودية) القديمة فى آسيا وافريقيا واميركا . ان اشكال الدول العبودية لم تكن متشابهة ، فقد كانت تتوقف على مختلف الظروف التاريخية والاقتصادية ، وعلى الوسط الجغرافى .

اننا نعرف ما يمثله الاستبداد العبودى ونعرف اهم جوانب وجوده من سلسلة كاملة من الوثائق (مخطوطات البردى المصرية وغيرها من المخطوطات ، والكتابات المحفورة على الحجر ، او شهادات الكتاب الاقدمين وغيرهم من شاهدى العيان ، والملاحم الخ .) . ولقوانين ملك بابل حمورابى اهمية كبرى لفهم الحياة الاجتماعية فى المجتمع العبودى . فقد حفر نص القوانين على عمود ضخم من الحجر الاسود يرجع تشييده فى عاصمة الدولة الى القرن الثامن عشر ق . م . وهذه هى اولى قوانين تصل الينا

وكانت قد قدّست نظام الرق والملكية الخاصة واستثمار الانسان للانسان .

ان مملكة بابل فى عهد حمورابى كانت شكلا نموذجيا لدولة الاستبداد العبودى . فقد كان حكم البلاد ممركزا . ففى يدى الملك كانت تتركز كل السلطة العليا - التشريعية والتنفيذية ، القضائية والدينية . واحدى النواحى الجوهرية لايديولوجية الاستبداد العبودى السائدة ، كانت المغالاة فى تعظيم السلطة الملكية وشخصية الحاكم الاعلى بما فى ذلك تاليهه . وكان الملك يعتمد فى حكم البلاد على جهاز معقد من الموظفين البيروقراطيين . فكان بعض الموظفين يدير بعض فروع الحكم المركزى وكان البعض الآخر يحكم مختلف المقاطعات والمدن بصفة ممثلين للملك .

٣ - علاقات الانتاج فى مجتمع الرق

تشتمل علاقات الانتاج على مفاهيم مثل أشكال ملكية وسائل الانتاج ، ووضع الطبقات فى عملية الانتاج ، وكذلك اشكال توزيع المنتوجات .

العبيد ومالكو العبيد

ان شريعة حمورابى تمكّن من توضيح خصائص علاقات الانتاج لا فى منطقة ما بين النهرين وحسب ، بل وفى المجتمع العبودى بوجه عام .

كان مالكو العبيد الصغار والمتوسطون القوة السائدة فى مملكة حمورابى . ولقد دافعت قوانين حمورابى عن مصالح هؤلاء قبل كل شيء . ففى هذه القوانين تتجلى بسطوع الطبيعة الطبقية للدولة وتشريعها . ففيها سلسلة كاملة من المواد موجهة بصورة

مباشرة وغير مباشرة للدفاع عن مصالح مالكى العبيد . وبموجب هذه القوانين لم تكن تؤخذ لقاء الاذى الجسدى الذى يلحق بعبد الغير الاّ غرامة قليلة كتعويض عن خسارة المالك شانها شان الغرامة لقاء الضرر الذى يلحق بالماشية . وفى حالة قتل عبد الغير كان المذنب يقدم لمالكه عبدا من عنده . وكانوا يبيعون العبيد دون اية تحديدات ودون اى اعتبـــار لوضع العبيد العائلى ، ويقدمونهم هدايا ، ويتوارثونهم . اما بالنسبة للذين يناهضون حقوق الملكية التى اقامها مالكو العبيد ، فكانت تطبّق اقسى العقوبات . وكان الحكم بالموت يهدد كل من يسرق عبدا او يحميه . وكان لكل عبد وسم خاص يدل على مالكه . ولقاء محو هذا الوسم كانت تهدد الانسان الحر كذلك عقوبة قاسية . ولم تكن لدى العبيد اية وسائل للانتاج وليس هذا وحسب ، بل انهم انفسهم ايضا كانوا محرومين من ابسط الحقوق الانسانية .

وهكذا ، كان جوهر علاقات الانتاج العبودية هو ملكية مالكى العبيد التامة لجميع وسائل الانتاج ولشغيلة الانتاج انفسهم ـ اى العبيد .

والى جانب حروب الفتح المستمرة كان المجتمع البابلى نفسه من اهم المصادر لزيادة عدد العبيد . وفى كثير من المجتمعات العبودية لم تكن ملكية مالكى العبيد السائدة تستثنى وجود الملكية الصغيرة لاصحابها الفلاحين الاحرار والحرفيين . فقد كان هؤلاء فى بابل كذلك . غير انهم كانوا يفقدون حريتهم اكثر فاكثر وينخرطون فى صفوف العبيد . وكان السكان الاحرار فى بابل ينقسمون الى كاملى الحقوق وغير كاملى الحقوق الذين كان يطلق عليهم اسم « موشكينو » . ولقاء التشويه الذى يسبب لشخص كامل الحقوق ، كان المذنب يعاقب بتشويه مماثل (العين بالعين والسن بالسن) . اما لقاء التشويه المسبب

«لموشكينو» فكانت العقوبة تقتصر على دفع غرامة . واذا قام شخص ينتسب الى فصيلة «موشكينو» بسرقة فانه يدفع غرامة تزيد عدة اضعاف على مقدار الغرامة التي يدفعها الانسان كامل الحقوق في حالة مماثلة . وفقط في حالة سرقة العبد ، الامر الذى كان يعتبر تطاولا على اسس المجتمع ذاتها ، كان الحكم بالموت يهدد المذنب بدرجة متساوية .

ان اعضاء المجتمع الكاملى الحقوق كانوا ينقسمون بدورهم انقساما حادا الى اغنياء وفقراء . كان الفقراء من اجل الحفاظ على حياتهم الحقيرة ، مضطرين الى استدانة ادوات الانتاج والنقود وما الى ذلك من الاغنياء . وكان عدم الدفع يستتبع فقدان الممتلكات بما في ذلك قطعة الارض ، اذا كان المدين يملكها . وكان المواطن المفلس المعدم يقع في عبودية الدين . فمن الناحية الشكلية كان يعتبر انه يجب على المدين (عادة اعضاء اسرة المدين) ان يسلم نفسه للاستعباد لفترة معينة . ولكن من الناحية العملية كان المدين يصبح عبدا الى الابد . وقد ظهر طراز جديد هو تاجر الرقيق الذى كان يشترى مواطنيه ويؤجرهم لمالكى العبيد الذين هم بحاجة الى اليد العاملة .

المشاعية في دولة الرق

لماذا نجد اذن الى جانب العبيد في المجتمع البابلى القديم عددا كبيرا من الاحرار ؟ لقد كان هؤلاء في الاساس مشاعيون بقوا من المجتمع المشاعى البدائى .

والقضية هى انه حتى قبل تكوّن الدولة ، كان توفر الاراضي الخصبة التي ترويها فيضانات الانهر قد ساعد على نشوء زراعة مزودة بمنظومات للرى معقدة وحسنة التنظيم . وكان

من شأن تقسيم الاراضى ومنشآت الرى نفسها بين اللاتيفونديات (الممتلكات الكبيرة من الارض) القائمة على استثمار العبيد ان يؤدي الى انحطاط منظومات الرى وتدهور الزراعة نظرا لعدم مصلحة العبيد فى نتائج عملهم . ولذا اعتبرت الدولة ان من المفيد المحافظة على المشاعية . بيد ان هذه لم تكن المشاعية السابقة التى لم يكن اعضاؤها يعرفون الاستثمار ، وحيث كان الفرد يعمل لخير الجميع والجميع لخير الفرد . فقد تحولت المشاعية فى الظروف الجديدة الى موضوع للاستثمار من جانب الدولة العبودية . وكما فى السابق كان المشاعيون يصونون السدود والحواجز والاقنية التى كانت تتطلب بذل العمل من جانب عدد كبير من الناس . وكما فى السابق كانوا يبذرون ويحصدون ، ولكن حصة الاسد من المحصول اصبحت تذهب الآن لتكون تحت تصرف الملك والكهنة ، تذهب لاعالة الجيش . وكان مفتشو الملك يبذلون قصارى الجهد لمراقبة حالة منظومات الرى باستمرار ، او لالزام المشاعى بدفع المكوس والضرائب بكل دقة ، منتزعين بذلك من المنتج قسما كبيرا من المنتوج الذى قام بانتاجه .

وهذا الوضع لم يكن قائما فى بابل وحسب ، بل كان ايضا فى الدول المستبدة العبودية القديمة : فى مصر والصين والهند وايران ، وفى دولة تاواتتينسويو (اميركا) الخ ..

ومع ان دولة الرق كانت معنية بالمحافظة على مشاعية الارض ، الا انها اخذت تدمرها شيئا فشيئا . فقد كان تحت تصرف الملك قطع كبيرة من الاراضى كان يوسعها بانتظام على حساب اراضى المشاعية . ان رقعة الاراضى الممركزة الموجودة فى يدى الملك بوصفه اعلى ممثل للدولة ، كانت تتسع كذلك نتيجة للحروب . وكان الملك ، تعزيزا لسنده الاجتماعى ،

يهب بعض مالكى العبيد من المقربين اليه ، وكذلك الموظفين والعسكريين والمعابد مساحات كبيرة من الارض التابعة له او من اراضى المشاعية . علاوة على ذلك كانت المشاعية تتفسخ باستمرار نتيجة لاغتناء بعض اعضائها واملاق البعض الآخر .

وكان السكان الاحرار يدفعون للدولة كثرة من مختلف الضرائب سواء منها العينية (المنتوجات الزراعية والماشية) او الفضة . وكانت هناك ممتلكات خاصـــة للقصر تتزايد على حساب الفرائض وتقع تحت حماية خاصة من القانون . وسواء عند الملك او المعابد كانت توجد كثرة من العبيد كانوا يحتجزون فى بيوت خاصة تحمل اسم « بيوت السجين » .

٤ ـ تطور القوى المنتجة فى الدول القديمة فى آسيا وافريقيا

لقد تطورت القوى المنتجة باطراد فى عصر وجود الدول القديمة فى آسيا وافريقيا . ففى بابل مثلا ، كانت تستخدم على نطاق واسع فى الزراعة الادوات المعدنية ، البرونزية فى بادئ الامـــر ، ثـــم الحديدية . كذلك ازدادت اتقانـــــا ادوات الحرفيين . وقد ورد فى قوانين حمورابى تعداد لمختلف انواع التخصصات الحرفية : صانعى الطوب ، الحياكين ، الحدادين ، النجارين ، بناة السفن ، بناة البيوت وغيرهم .

وكانت الحرفة متطورة جدا كذلك فى مصر . وانتشرت الحياكة بصورة واسعة . ومحل نول الحياكة الافقى حل نول عامودى اكثر اتقانا . واستخدم الحدادون ــ النحاسون الكور الجلدى لتأجيج الموقد . وازدادت المحاريث كمالا . واصبحت صناعة الزجاج فرعا متميزا فى الانتاج الحرفى . وتطور حرق الطوب .

وكقاعدة ، كان المواطنون الاحرار هم الذين يزاولون الحرفة ، ولكن فى الاعمال الاكثر مشقة والاقل كفاءة ، وعلى الاخص فى البناء ، كان يستخدم العبيد . وظهرت ابسط الآلات ، وقبل كل شيء فى مجال تكنيك البناء . ففى مصر القديمة استخدمت فى بناء الاهرام وسائل خاصة لرفع الكتل الحجرية . وقد شهدت منظومات الرى ، المرفقة بخزانات المياه والسدود واقنية التحويل التى شيدت فى دول آسيا وافريقيا ، على تطور المعارف التكنيكية فى عصر الرق . مثلا ، كانت منظومة اسوان المائية المبنية على نهر النيل منشأة جليلة . وكانت خزانات المياه والسدود واقنية التحويل التى بنيت باستخدام الحجارة على نطاق واسع نموذجا لفن البناء فى عصر الرق .

وبسبب تطور التجارة البحرية ظهرت ضرورة بناء المزيد من السفن المتعددة المجاذيف والسفن الشراعية .

وتطور التكنيك الحربى . ففى اثناء العمليات الحربية كانت تستخدم بصورة واسعة مركبات المعارك وآلات هدم الاسوار . وكانت السفن الحربية تزود بادوات الحصار .

تطور العلاقات البضاعية النقدية

لقد ادى نمو التبادل حتى فى ظل النظام المشاعى البدائى الى ظهور المعادل العام للبضائع . وكانت تقوم بوظيفته المنتوجات الاكثر اهمية ــ الماشية ، الفراء ، الجلود ، العاج الخ . . وفى مجتمع الرق ، انتقل دور المعادل العام تدريجيا الى المعادن ــ فى بادئ الامر الى الحديد والنحاس ، ومن ثم الى الذهب والفضة ، وبصورة رئيسية الى الاخيرة . وظهرت النقود كمعادل عام ووسيلة للتداول ، كبضاعة من نوع خاص ، كبضاعة البضائع .

فى البداية كان للنقود شكل سبائك معدنية ، وفيما بعد اخذت شكل عملة مسكوكة خصيصا .

وقد ادى تطور التجارة الى ظهور التجار اى الاشخاص غير المشتركين فى الانتاج ، والذين يقومون خصوصا بالتبادل والتجارة ويمتلكون قسما من المنتوجات . وكان التجار يتنقلون من مكان الى آخر ، وفى بعض الاحيان كانت هذه الاماكن تبعد بعضها عن بعض مسافات كبيرة .

هكذا جرى ثالث تقسيم اجتماعى للعمل .

لقد ظهرت النقود المعدنية فى الدول العبودية فى آسيا الغربية واليونان والصين بشكل عملة فى القرن السابع والسادس ق . م . ففى الصين كان للعملة شكل مربع ، وشكل سكاكين وسيوف ورفوش ، وكانت هناك ايضا عملة مدورة لها ثقب مربع فى الوسط .

واخذ الانتاج يكتسب طابعا بضاعيا ، اى انه لم يكن يجرى لسد الحاجة الخاصة ، وانما للتبادل .

نشوء المدن

مع تطور الحرفة والتجارة نشأت مراكز سكن خاصة اى مدن ، كان يتركز الحرفيون فيها وتتم فيها الصفقات التجارية . وقد تحولت هذه المدن الى مراكز للانتاج الحرفى والصلات التجارية . وفى الغالب كانت تنشا المدن فى مواقع النقاط المحصنة ، وفى الاماكن التى تحط فيها القبائل على الدوام ، وفى مراكز العبادة ، وفى جوار التحصينات ، وقرب الينابيع (بما فيها العلاجية) ، وفى ملتقى الطرق التجارية . مثلا ، نشأت مدينة مكة المكرمة فى نهاية الالف الثانى ق . م . فى مكان وجد فيه ينبوع علاجى ،

وكان يؤمه الناس للسجود امام الحجر الاسود المقدس . وفى نهاية الالف الاول ق . م . ، ادى الوضع الجغرافى الملائم وتوفر الينابيع الغزيرة الى ظهور مدينة – دولة كبرى فى واحة صحراء سوريا ، هى تدمر .

تطور الصلات التجارية

نشأت الصلات التجارية قبل كل شىء بين البلدان التى كانت تقع على شواطئ البحور وضفاف الانهر . وفى نهاية الالف الثالث ق . م . كانت مدن – دول الفينيقيين العبودية الواقعة فى القسم الشمالى من الشاطئ الشرقى للبحر الابيض المتوسط لا تقوم الا بتجارة الوساطة وحدهـا . فقد كانت للفينيقيين صلات تجارية مع آسيا الصغرى وقبرص وكريت واليونان ، وكذلك مع غربى البحر الابيض المتوسط . وكان هؤلاء يستوردون من آسيـا الصغرى الفضة والرصاص ، ثم الحديد ، ومن قبرص النحاس الخ . .

وقد نشأت فى العهد القديم فى بلدان آسيا وافريقيا طرق تجارية مطروقة كانت تربط اقصى البلدان فيما بينها .

فعلى امتداد البحر الاحمر كانت تمر الى الشمال الطريق المسماة بـ«طريق العطور» ، وهى طريق القوافل المنطلقة من جنوب شبه جزيرة العرب والمدن الواقعة على الشاطئ الشرقى للبحر الابيض المتوسط . وكان يجرى الاتجار بالبخور والمر والتوابل الهندية والافريقية والذهب ، وفيما بعد بالعبيد .

وكان طريق تجارى آخر للقوافل يتجه من جنوب شبه جزيرة العرب الى ما بين النهرين . وعن طريق مضيق باب المندب الضيق الذى يفصل شبه جزيرة العرب عن افريقيا ،

كان التجار يحصلون على البضائع من افريقيا الشرقية ويرسلونها الى الشمال .

وكان طريق القوافل القديم الذى يمر عبر آسيا الوسطى يربط الصين مع ايران وبلدان البحر الابيض المتوسط . وخلاله كانت تصل من الصين مختلف البضائع ـ المعادن ، المصنوعات الجلدية ، وبصورة رئيسية الحريرية . وقد سميت هذه الطريق التجارية «طريق الحرير الكبرى» .

كذلك كانت آسيا الوسطى مركزا للتجارة بين مختلف البلدان فى عهد المملكة الكوشانية . وكان تجار كوشان يحملون الى الصين فى الغالب الزجاج والحلى . وكانت لآسيا الوسطى صلات تجارية كذلك مع الهند ، وفى الغرب مع بلدان القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وشرقى اوروبا ، ومع امبراطورية روما .

ان تطور العلاقات البضاعية النقدية زاد من تفاقم عدم المساواة فى التملك . فقد كان الفقراء مضطرين من اجل دعم حياتهم الزرية الى ان يستاجروا من الاغنياء ادوات الانتاج ، وان يستدينوا منهم النقود وما الى ذلك . وكان عدم الدفع يستتبع عبودية الدين . وهكذا كان يزداد جيش العبيد . اما الدائنون فكانوا يزدادون ثراء ويتحولون الى مرابين ، الى اشخاص يقومون خصيصا بتكديس النقود من اجل اقراضها بفائدة كبرى .

٥ ـ الصراع الطبقى واهميته

مع ظهور المجتمع الطبقى اصبح تاريخ البشرية تاريخ ظهور طبقات وزوال اخرى ، تاريخ الصراع الطبقى الذى لا هوادة فيه .

ان تاريخ المجتمع العبودى باكمله حافل بالصراع بين الطبقات ، وقبل كل شىء بين العبيد ومالكى العبيد . والصراع

الطبقى هو نتيجة للتضاد فى الوضع الاقتصادى والتناقض بين مصالح مختلف الطبقات . اما المصالح الطبقية فيحددها وضع الطبقة المعنية فى نظام الانتاج الاجتماعى . فقد كان العبيد محرومين من اية ملكية ، وكانوا انفسهم ملكية لسيدهم ويتعرضون لاشنع استثمار فى التاريخ ، ولهذا كانوا معنيين موضوعيا فى تصفية اسلوب الانتاج الذى زج بهم فى هذا الوضع ، وفى القضاء على النظام السياسى الذى كان يصونه مالكو العبيد . وعليه ، كان العبيد طبقة ثورية ، برغم ان ثوريتهم كانت تحمل طابعا محدودا .

وكانت الثورات المسلحة التى قام بها العبيد فى الدول القديمة فى افريقيا وآسيا الشكل الاكثر سطوعا لتجلى النضال الطبقى . مثلا ، فى نهاية عهد* المملكة الوسطى فى مصر ، اندلعت ثورة جبارة من القاعدة اشتركت فيها الى جانب العبيد جماهير الفلاحين والحرفيين المعدمين .

وطيلة قرون وقرون ، كانت تندلع انتفاضات العبيد فى الصين القديمة ، ولا سيما منها الانتفاضة العارمة التى بدأت فى القرن الثامن عشر ق . م .. وقد صبغ المشتركون فيها حواجبهم بلون احمر كعلامة مميزة ، ولذا سميت الحركة كلها انتفاضة «حمر الحواجب» . وكان بين الثوار العبيد والمشاعيون والحرفيون وصيادو الاسماك والتجار الصغار . واحرز الثوار النصر على القوات النظامية وزحفوا على العاصمة واحتلوها . ولم يتسن للطبقة السائدة قمع الانتفاضة الا بعد ان بذلت كل ما فى وسعها من قوى .

لقد كان تحطيم الانتفاضات ممكنا لان المشتركين فيها كانوا يفتقرون للتنظيم والضبط الضروريين ، ولان قواهم كانت مبعثرة ولم يكن بوسعهم الصمود فى وجه الكتائب المسلحة تسليحا جيدا للطبقة السائدة . وفى ذلك الوقت لم تكن توجد ولا كان بوسعها ان توجد ظروف واقعية من اجل تصفية استثمار الانسان للانسان .

ولكن رغم الهزيمة ، اتسمت انتفاضات المشاعيين البسطاء والحرفيين والعبيد باهمية تقدمية كبرى ، اذ انها خففت من وطأة الاستثمار .

كانت هذه الانتفاضات اول تجربة لنضال الشعب في سبيل تحرره ؛ وقد وضعت وعززت تقاليد هذا النضال . وحتى النجاحات الموقتة للانتفاضات كانت تؤدي الى بعض التحسن في وضع المنتجين المباشرين ، الامر الذي ساعد على تطور القوى المنتجة .

٦ ـ الايديولوجية والثقافة في المجتمعات العبودية القديمة

دور الدين

ان السمة الرئيسية المميزة لايديولوجية دول الرق القديمة هي صبغتها الدينية . وهذا ما يصح بالدرجة ذاتها على بابل ومصر والهند واورارتو وايران ودول اميركا . وعلى الرغم من انه لوحظ تنوع كبير في اشكال الدين وطقوسه ومحتوى الاساطير الدينية ، كان جوهر المذاهب الدينية واحدا : السعي لاخضاع الشغيلة ، بتخويفهم بعقاب الآلهة في حياتهم او مماتهم . وقد كان في كثير من المذاهب الدينية مفاهيم عن الجحيم كعقوبة الهية لقاء عدم الاذعان لاصحاب السلطة والجنة كثواب لقاء احزان وآلام الارض . وكان الكهنة يحاولون بمختلف الاساليب اقناع الجماهير الشعبية بان سلطة المالكين هي سلطة منزلة من عند الله . وقد وجد هذا تعبيره الساطع على الاخص في تأليه سلطة الملك وشخصية الملك في الدول الاستبدادية . وكان لا بدّ لتثبيت السيد الواحد على الارض من ان يستتبع ظهور فكرة ملك الآلهة (ملك الملوك ورب الارباب) في التصورات الدينية . وهذا الانتقال

التدريجى من الشرك (القول بتعدد الآلهة) الى التوحيد (الاعتقاد باله واحد) يلاحظ بوضوح ، بدرجات مختلفة واشكال مختلفة فى اكثرية دول الرق القديمة .

ان عجز الشغيلة عن الصمود سواء امام الطبيعة او فى وجه المستثمرين قد مهد التربـــة لترسيخ ايديولوجية الطبقة السائدة فى وعى الجماهير الشعبية الواسعة . غير ان هذه النظرة المثالية الى العالم لم تكن حتى فى ذلك الوقت كلية الجبروت .

تطور عناصر المادية والديالكتيك

فان عاملين اساسيين قد قوضا وجهات النظر المثالية الدينية . الاول هو تكديس المعارف الايجابية . فقد مكّن تطور القوى المنتجة من اكتشاف قوانين الطبيعة واحدا بعد آخر . من قبل ، لم تكن الفيضانات بالنسبة لسكان دجلة والفرات ، على ما يبدو ، غير مظهر لغضب مفاجئ تملك قوى خارقة غير مفهومة ؛ ولكن سكان ما بين النهرين القدامى اخذوا شيئا فشيئا يفهمون اسباب الفيضانات ويحسبون دوريتها .

لقد بدأت وجهات النظر المادية الساذجة تشق طريقها الى وعى الناس بصورة متزايدة ابدا ، بل انها وضعت فى بعض الاماكن بداية المذاهب المادية الاولية . ففى النصف الثانى من الالف الثانى ق . م . ، اخذت تتكون وجهات نظر مادية عن تركيب الكون تناقض وجهات النظر الدينية . فقد اكد الفلاسفة الماديون الاقدمون ان الكون يتالف من «عناصر اولية» ، وان جميع الاشياء فى العالم تتحرك وتتغير على الدوام نتيجـــة لتاثير متبادل بين قوتين كونيتين هما قوة النور وقوة الظلام . وعلى هذا النحو لم تظهر نبتات المادية وحسب ، بل ظهرت كذلك نبتات الديالكتيك .

اما العامل الثانى الهام الذى اضعف تاثير الايديولوجية السائدة (وكانت هذه ايديولوجية الطبقة السائدة) على الجماهير الشعبية الواسعة ، فهو حياة الشغيلة التعيسة . فبدافع عوزهم القائم وحرمانهم من الحقوق ، كانوا يناضلون لا ضد الدولة العبودية وحسب ، بل ضد ممثلى رجال الدين كذلك .

العلم والفن

من الحاجات الاقتصادية الصرف فى الدول القديمة فى آسيا وافريقيا ، اخذت تظهر أجنّة المعارف العلمية على اساس الاشكال البدائية للتفكير المجرد . وقد اقتضت ضرورة اجراء مختلف انواع الحسابات ،وكذلك قياس مساحة الارض ، ظهور الرياضيات (الحساب والهندسة) وعلم الفلك (انظمة التقويم) . وفيما بعد تطورت كذلك بصورة ملحوظة عناصر الكيمياء والفيزياء . مثلا ، احرزت رياضيات بابل نجاحات لدرجة انها كانت فى بعض الاوجه اكثر تطورا من الرياضيات اليونانية والرومانية التى تلتها . والمقصود هنا هو كتابة للارقام تمكّن من التعبير عن اى عدد كان بالحد الادنى من العلامات .

وبالتدريج نشأت عند شعوب آسيا وافريقيا الكتابة التى اخذت فى البداية شكل «الخط التصويرى» او «الكتابة التصويرية» . لقد مكن تنسيق الرسوم من التعبير عن الاشياء والاعمال دون الاعتماد على اللغة الصوتية . وشيئا فشيئا تطورت الكتابة التصويرية وتحولت الى كتابة رمزية اصبحت الصورة فيها رمزا . ومع تطور الدول العبودية اخذت تبرز ضرورة التدوين الدقيق للقوانين والاوامر ، والحساب المضبوط للثروات وطابعها وكمية ونوعية البضائع المباعة والمشتراة او المخزونة

الخ .. مثلا ، ظهر في مصر القديمة الخط الهيروغليفي الذي يمثل مزيجا من الكتابة الرمزية والكتابة الساكنة (اى تصوير الخط بعلامات تعني الحروف الساكنة) .

ان اول من اخترع حروف الهجاء واستخدمها في الكتابة هم الفينيقيون . وحروف الهجاء الفينيقية هي الاساس الذي قامت عليه حروف الهجاء اليونانية والآرامية التي كانت الصور الاولية لاكثرية حروف الابجديات المعاصرة .

وقد ساعدت الكتابة المسمارية الرمزية عند شعوب ما بين النهرين على تطوير الابداع الادبي .

وتثير كبير اهتمام المؤرخين القصة الاسطورية البابلية عن جيلجاميش . وهو بطل باسل نهض للنضال ضد قوى ما فوق الطبيعة وحتى ضد القوى الآلهية ساعيا بالحاح الى الظفر بحق الانسان في الخلود .

لقد انشأت شعوب بلدان آسيا وافريقيا في العهد القديم مؤلفات مرموقة في الفنون الجميلة : مصنوعات فخارية بنقوش مدهشة ، ومصنوعات منحوتة من العظم والحجر والخشب وغيرها من المواد ، ونماذج رائعة من التصوير المسطح على جدران المعابد والمدافن .

ان المتحف البريطاني في لندن واللوفر في باريس ، وكثيرا من متاحف مدن اوروبا الغربية واميركا الشمالية تحتوي على آثار رائعة لحضارة شعوب آسيا وافريقيا ، سرقها المستعمرون او اشتروها بابخس الاثمان .

ان فن المعمار في الدول القديمة في ما بين النهرين ومصر وخوارزم واورارتو والهند والصين قد ترك تركة غنية بشكل مختلف المباني التي تعتبر نماذج كلاسيكية في مراعاة التناسب .

ان منجزات شعوب بلدان آسيا وافريقيا في العهد القديم في

ميادين الانتاج والعلم والادب والفن قد اثرّت تاثيرا هائلا فى تطور الثقافة البشرية ، ولا سيما فى بلدان البحر الابيض المتوسط ، وعلى الاخص ، فى البلدان التى كانت فى السابق وطن الدول الاوروبية المعاصرة .

لقد كانت شعوب آسيا وافريقيا بمثابة طلائع تطور الثقافة المادية والروحية فى ظروف النظام الاجتماعى الجديد ، ولو ان هذا التطور سار بوتائر بطيئة . وفى الوقت نفسه ، ساعدت تجربة الشعوب الاسيوية والافريقية على سرعة تطور القوى المنتجة فى المجتمعين العبوديين فى اليونان وروما .

التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية

ان طابع علاقات الانتاج يحدد البناء الاقتصادى فى المجتمع . وهذا البناء الاقتصادى هو ذلك الاساس ، البناء التحتى ، الذى تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية والافكار والمؤسسات ، لان اسلوب الانتاج فى آخر الامر يحدد جميع جوانب حياة المجتمع . والبناء التحتى ، الاساس ، يحدد ، قبل كل شىء ، المؤسسات الحقوقية والسياسية التى هى رهن بالتركيب الطبقى للمجتمع ــ اجهزة الدولة ، الهيئات الدينيـة ، الكتل السياسية الخ .. ــ اى كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقى سياسى للمجتمع ، ومن ثم يحدد بصورة غير مباشرة مختلف الافكار التى يتميز بها المجتمع المعنى ــ السياسية والفلسفية والدينية والحقوقية والفنية وما الى ذلك ــ اى كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقى ايديولوجى للمجتمع .

ان تبدل الاساس ، البناء التحتى ، والتغيرات فيه تفترض تبدلا وتغيرات فى طابع البناء الفوقى ، فى طابع المؤسسات السياسية

وفى الايديولوجية . بيد ان البناء الفوقى ، رغم انه رهن بالاساس ، بالبناء التحتى ، يؤثر بدوره على علاقات الانتاج ، وفى وسعه تسريع او عرقلة تبدلها .

وعليه ، يمثل كل مجتمع وحدة معينة ، بنية تاريخية خاصة مع اسلوب الانتاج والبناء الفوقى الملازمين لها ، يمثل تشكيلة اقتصادية اجتماعية .

ان الاساس ، البناء التحتى ، لمجتمع الرق ، شانه شان اساس المجتمع الاقطاعى والرأسمالى ، هو تناحرى ، لانه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، على استثمار الطبقة السائدة لمنتجى الخيرات المادية المباشرين . ولهذا كانت التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية العبودية ككل ، تشكيلة تناحرية ، استثمارية .

٧ ــ خصائص تطور العلاقات العبودية في مختلف دول آسيا وافريقيا

مصر القديمة

من اهم المراحل فى تاريخ البشرية القديم ، تكوّن نظام الرق (النظام العبودى)والدولة الاستبدادية فى مصر القديمة فى نهاية الالف الرابع ق . م . وكان هذا عهد ما يسمى بالمملكة القديمة (٣٠٠٠ــ٢٤٠٠ ق . م .) . ان مالكى العبيد المصريين ، الذين كانوا يملكون قوات هائلة ، كانوا يخوضون القتال المستمر من اجل الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء والنوبة الشمالية .

وقد مكّن الحكم الممركز من اتقان وتوسيع منظومة الرى التى كانت اساس الزراعة . واتسم باهمية اقتصادية كبيرة صيد السمك والصيد البرى . وكانت تربية المواشى تتطور ، وعلى الاخص فى دلتا النيل حيث كان المزيد من المراعى .

كانت المشاعية الريفية الخلية الاقتصادية والاجتماعية الاساسية فى مصر ، وكانت تتعرض للاستثمار الوحشى من جانب مالكى العبيد . وبعد مرور بعض الوقت تطورت بصورة واسعة استثمارات المعابد . وكما كان الامر فى ما بين النهرين ، تفسخت المشاعية نتيجة للتمايز الطبقى الحاد ولسلب آلاراضى المشاعية من قبل مالكى العبيد والكهنة والمرابين . وكان المشاعيون المعدمون قلما يتميزون عن العبيد .

لقد كان العبيد القوة العاملة الاساسية فى استثمارات الملك والمعابد ، وفى ممتلكات كبار مالكى الاراضى والموظفين . وكان عدد العبيد يتزايد على الدوام . وخدمة لمصالح طبقة مالكى العبيد خاض فراعنة مصر الحروب العديدة بغية الاستيلاء على العبيد والماشية وغيرها من الثروات .

وكانت سلطة الملك فى مصر ترى مهمتها الاساسية فى تعزيز حكم مالكى العبيد . فقد انشئ نظام ممركز صارم للادارة . وكانت قيم هائلة تتدفق الى خزينة الملك . فالى جانب الغنائم الحربية كانت المصادر الاساسية لدخل الدولة هى الضرائب من السكان التى كان يقوم بجبايتها جهاز متشعب من الموظفين . كذلك خدم القضاء مصالح مالكى العبيد . وكان قضـــاة الملك فى الولايات يقومون عادة ايضا بوظائف الحكام المحليين . وكان القاضى الاعلى بمثابة المساعد الاول للفرعون فى حكم البلاد . وكان فرعون نفسه يعتبر حامل اعلى سلطة قضائية هى السلطة «الالهية» . وبغية تمجيد الفراعنة ، ومعهم طبقة مالكى العبيد ككل ، شيدت الاهرام الهائلة فى مصر بعمل العبيد والمشاعيين .

وفى عهد المملكتين التاليتين الوسطى والجديدة لم تطرأ على تركيب ادارة الدولة تغيرات كبيرة .

ان حفريات الآثار فى وادى نهر الهند تثبت انه كانت توجد حضارة رفيعة فى اراضى شبه جزيرة الهند منذ الالف الثالث والثانى ق . م .

وعلى تخوم الالف الاول ق . م . بدأت تتكون اولى الدول العبودية من اتحادات القبائل العديدة فى الهند . ومع نمو التمايز الطبقى آخذ زعيم القبيلة الحربى - راجا - يسمو شيئا فشيئا على القبيلة ويخضع لنفسه اجهزة ادارة المشاعية . واخذت تتراص حوله الارستقراطية القبلية . ومع مرور الزمن اصبحت وظيفة راجا وراثية ؛ اما اجهزة ادارة القبيلة فتحولت الى حلقات فى جهاز الدولة .

وفى آن واحد اخذ يتقوى مركز من يسمون بالبرهميين ، وكان هؤلاء فى السابق منفذين بسطاء للطقوس الدينية ثم تحولوا الى كهنة محترفين .

غير أن الدولة الاستبدادية فى الهند نشأت متاخرة وارتبطت باسمى ملكين من سلالة ماوريا هما تشاندراغوبتا واشوكا . وقد تكونت امبراطورية ماوريا فى القرن الرابع ق . م .

وكانت العبودية فى الهند منتشرة بصورة واسعة جدا ، الا انها اتسمت بعدة خصائص . فان المصادر الاساسية للعبودية كانت هنا ايضا الحروب ومختلف اشكال عبودية الدين . وكان الاحرار غير متساوين فيما بينهم ، ولكنهم كانوا لا ينقسمون الى مجموعتين بل الى اربع مجموعات «فارنات» كانت سلف للتى تبعتها فيما بعد وهى «جاتى» (الطوائف) . كان العبيد عادة يصبحون فى عداد الفارنات السفلى ؛ اما مالكو العبيد فينتسبون

الى الفائزات العليا . وكان بالامكان ان يكون العبيد كذلك ملكية للدولة او ملكية للمشاعية . وكان العبد يسمى «دفيباده» اى ملكية ذات قائمتين ، والماشية البيتية «تشاتوشباده» اى ملكية ذات اربع قوائم .

كان عمل العبيد يستخدم فى اقتصاد الملك والارستقراطيين اسياد العبيد ، وكذلك فى بناء المنشآت الاجتماعية . غير ان الاستثمارات الزراعية الكبيرة فى الهند القديمة لم تنتشر انتشارا واسعا . وكان عمل العبيد يستخدم من حيث الاساس فى الاقتصاد المنزلى . وقد اضفى هذا على العبودية صبغة ابوية (بطريركية) وكان مرتبطا بواقع ان كثيرين من العبيد كانوا مواطنين لمالكى العبيد . والنساء كن الاغلبية بين العبيد . وكان اطفالهن يعتبرون كذلك ملكية للسيد .

ان عدم تطور العلاقات العبودية كان يعود الى الاستقرار الخاص للمشاعية الهندية الريفية التى كانت شكلا للتنظيم الاقتصادى والاجتماعى عند السكان الاحرار . فالحاجة الى الابقاء على منظومة الرى والى استصلاح مساحات كبيرة من الارض فى الادغال اقتضت توحيد جهود الناس . ولم يكن اعضاء المشاعية يشتغلون فى الزراعة وحسب ، بل كانوا ينتجون بانفسهم ما يلزمهم من مصنوعات حرفية . وقد ادى هذا كذلك الى انطواء المشاعية على نفسها ، وابطأ تطور الصلات الاقتصادية فى البلاد .

كانت الدولة هى المالك الاعلى للارض . وهذا الشكل من الملكية لم يمكّن الارستقراطيين اسياد العبيد من استثمار العبيد بدون رحمة وحسب بل مكنهم ايضا من نهب السكان الاحرار فى الهند بواسطة الضرائب . وكان جهاز الدولة الواسع والمعقد يسهر على مصالح مالكى العبيد الارستقراطيين .

والخاصة المميزة للحكم الاستبدادى الهندى ، شانه شان الدول الاخرى فى آسيا وافريقيا فى العهد القديم ، هى تاليـــه سلطة الملك . فقد كان الملك يعتبر نائب الله على الارض . وقد انشئت مجموعة كثيرة العدد من الكهنة مهمتهم دعم هذه العبادة . وبدل البرهمية – دين مجتمع الرق المبكر – انتشر آنذاك فى الهند انتشارا واسعا دين جديد هو البوذية .

الصين القديمة

فى القرن الثامن عشر ق . م . تكونت فى الصين اول دولة عبودية ، سميت شان (ان) .

اما ازدهار النظام العبودى فجرى متاخرا – فى القرن الخامس والرابع والثالث ق . م .. وفى نهاية القرن الثالث ق . م . تكونت امبراطورية هائلة فى الصين القديمة .

فى ذلك الزمن اخذ يتعاظم بصورة ملحوظة دور عمل العبيد . وكان العبيد يدخلون فى ملكية الافراد والدولة على السواء . وكانت الحروب المستمـرة مع القبائل المجاورة وكذلك (قبل تكوّن الامبراطورية) الحروب الداخلية مصدرا دائما لزيادة عدد العبيد . ومن اهم مصادر العبودية كان القصاص لقاء ارتكاب الجريمة . فقد رأت الطبقة السائدة فى هذه الظاهرة احدى الوسائل القوية للاضطهاد الطبقى . وكانت اقل مخالفة للقوانين والتقاليد القديمة تعتبر جريمة . وقد رأى كبار اسياد العبيد المنحدرين من الارستقراطية العشائرية القبلية القديمة انه من المفيد لهم الابقاء على مخلفات النظام المشاعى البدائى . وكان المجرمون المستعبدون يصبحون ملكا للدولة .

ثم ان تجارة الرقيق ، وعلى الاخص ، التجارة بالارقاء غير المنحدرين من اصل صينى اكتسبت مقاييس كبيرة . وكان عمل

العبيد يستخدم فى كل مكان . واخذت تظهر استثمارات واسعة خاصة قائمة على استثمار العبيد . واصبح عدد العبيد مقياسا لثروات وممتلكات المالكين الكبار .

اورارتو ، خوارزم ، المملكة الكوشانية

على تخوم الالف الثانى والاول ق . م . تكوّن فيما وراء القفقاس وعلى مرتفعات ارمينيا عدد من الدول العبودية الصغيرة تميزت منها دولة اورارتو التى بلغت ازدهارا كبيرا فى القرنين التاسع والثامن ق . م .

وقد تحولت اورارتو فى مجرى النضـــال ضد الفاتحين الآشوريين الى دولـــة من اكبر الدول فى العـالم القديم . وكانت هذه الدولة تشتمل على جزء من اراضى الجمهوريات السوفييتية الحالية فيما وراء القفقاس .

كانت مملكة اورارتو تتصف بعلاقات عبوديـــة تحتفظ بمخلفات قوية من النظام المشاعى البدائى . فكان العبيد يتبعون سواء الافراد او المشاعيات . وفى اورارتو قامت زراعة مروية متطورة استخدم فيها ، بصورة واسعة ، عمل العبيد لدعمها .

وفى آسيا الوسطى ، ومن حيث الاساس فى اراضى الجمهوريات السوفييتيـة الحاليـة ، تكونت كذلك على تخوم الالف الاول ق . م . دول عبودية – خوارزم وغيرها . وفى بداية القرن الاول الميلادى توحدت هذه الدول فى المملكة الكوشانية القوية التى نشرت سلطانها فيما بعد على الهند الشمالية وسينتسيان . وكانت المملكة الكوشانية تشمل مناطق ذات مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية . ولكن المناطق التى كان امتلاك العبيد فيها متطورا اخذت تلعب تدريجيا الدور الحاسم . وقد ادى هذا الى انتشار نظام الرق (النظام العبودى) فى جميع أراضى المملكة .

المملكة المعينية

كانت المملكة المعينية العربية القديمة تشتمل ، عدا اليمن ، على غربى خضرموت وساحل البحر الاحمر فى شبه جزيرة العرب .
وعلى الرغم من المخلفات القوية للنظام العشائرى – القبلى ، تطورت هنا العلاقات العبودية . وكان العبيد بصورة رئيسية افريقيين – اثيوبيين ونوبيين الخ .. وقد بلغت الدولة ازدهارا كبيرا ؛ ففيها انشئت اقنية الرى والسدود الكبيرة ، والقصور وغيرها من المنشآت .

وفى القرنين السابع والسادس ق . م . جرى ابتلاع المملكة المعينية من قبل الدولة العربية القديمة العبودية المبكرة ، التى ظهرت بعد المملكة المعينية ، والمعروفة باسم مملكة سبأ . وهنا ايضا كانت الزراعة متطورة . وفى ضواحى مدينة مأرب التى اصبحت عاصمة مملكة سبأ وجد سد مأرب المشهور فى العالم القديم . وكان هذا السد المنشأة المركزية لمنظومة الرى فى جنوب شبه جزيرة العرب على مر قرون وقرون .

ان المعلومات المتعلقة بتاريخ بعض الدول القديمة تشهد على عمومية ومناعة قوانين التطور الاجتماعى . ففى كل مكان كان تطور القوى المنتجة يؤدى الى تفسخ العلاقات المشاعية البدائية والى نشوء العبودية ، الى نشوء الدول العبودية التى كانت تأخذ ، كقاعدة ، شكل الحكم الاستبدادى .

تكوّن العلاقات الدولية

ان تصادم المصالح القائمة على النهب عند مختلف الدول العبودية قد افضى الى اتقان اساليب التدخل فى الحياة الداخلية للشعوب الاخرى خدمة لمصالح مالكى العبيد فى البلد المتدخل ،

وادى الى السعي لكى تضمن الدولة نفسها من مثل هذه التدخلات من جانب دولة اخرى . وبدأ البحث عن الحلفاء لتحطيم اخطر دولة عدوة . واخذت تعقد الاتفاقيات التى اما تضمن للدولة مصالحها ، واما تنتقص من هذه المصالح وتوجد ، على هذه الصورة ، علاقات السيطرة والخضوع بين الدول .

غير ان الصلات الديبلوماسية فى ذلك العصر كانت ما تزال ضعيفة جدا . وكانت العلاقات الدولية تنحصر عادة فى المكاتبات بين حكام الدول . أما المفوضيات الديبلوماسية الدائمة فلم تكن توجد كقاعدة . وكان ارسال السفراء الى البلدان الاخرى يحمل طابعا عرضيا .

الفصل الثانى

دول الرق فى اميركا

ان العلماء البرجوازيين ولا سيما الاميركيون منهم، غالبا ما يفصحون عن وجهة نظر تزعم ان شعوب اميركا الشمالية والجنوبية قد اجتازت طريقا تاريخيا خاصا للتطور . وبهذا يحاولون دحض الطابع العام لقوانين تطور المجتمع ، بله انكار وجود هذه القوانين بحد ذاته . اما فى الواقع فان الفرق الاساسى للتطور التاريخى فى القارتين الاميركيتين فيكمن فى تأخر تفسخ النظام المشاعى البدائى ، وفى تأخر ولادة المجتمع الطبقى . وهذا الواقع ، بدوره ، لا يفسّر قط بالنقص الموهوم الجسدى والروحى عند السكان الاصليين . فالقضية ان اميركا كانت قد استوطنت فى زمن متاخر نسبيا ، واقتضى الامر الوفا عديدة من السنين لاستصلاح القارتين الهائلتين قبل ان يتمكن الناس من الانتقال الى نمط الحياة الحضرية وتطوير القوى المنتجة باطراد . وعلاوة على هذا ، وبحكم الخاصة النوعية للحيوانات الاميركية ، كان تقسيم العمل بين الزراعة وتربية الماشية اما ضعيفا للغاية واما لم يحدث على الاطلاق .

ومن جرّاء تطور المجتمع الاميركى ببطء ، وجد الاسبانيون امامهم فى الدنيا الجديدة (هكذا كان الاوروبيون يسمون القارتين الاميركيتين) النظام المشاعى البدائى واتحادات القبائل واشكال

الحكم الاستبدادية العبودية ، بينما كان فجر الراسمالية الدامي قد طلع على اوروبا .

بين الاتحادات الاولى ينبغى ان نذكر اتحاد القبائل الاربع اراوكان (مابوتشى) التى كانت تعيش فى اراضى التشيلى المعاصرة . ان هذا الاتحاد الذى تعزز فى عهد حكم الزعيمين كاوبوليكان ولاوتارو ، قد انزل بالمغتصبين الاسبان هزيمة ماحقة . وهكذا لم يتمكن الاسبان من تحطيم مقاومة قبائل اراوكان .

مجتمع المايا

بعد الميلاد ، انشات قبائل المايا فى شبه جزيرة يوكاتان وفى المناطق المتاخمة لها حضارة عالية . وكانت هذه كتلة من المدن – الدول .

ان كل دولة للمايا كانت تتالف من مدينة ومساحة صغيرة من الاراضى المجاورة لها . وكان يراس هذه الدولة حاكم يحوز على السلطة العليا التشريعية والتنفيذية والقضائية والدينية . وكان المساعدون المقربون للحاكم هم الكهنة والقادة العسكريين . وكان امتلاك العبيد فى مجتمع المايا متطورا بصورة واسعة . وكانت الحروب وتجارة الرقيق وعبودية الدين مصادر زيادة عدد العبيد . كذلك دخل حيز التطبيق الاستعباد مقابل مختلف انواع «الجرائم» كما كان الامر ، مثلا ، فى الصين القديمة .

كان التجار يؤلفون فئة ملحوظة فى مجتمع المايا . ولم تكن الفلزات موجودة فى يوكاتان الامر الذى بعث الى الحياة تجارة المقايضة النشيطة داخل شعب المايا ومع الشعوب المجاورة . وكانت النقود عند المايا هى حبوب الكاكاو .

كانت الزراعة فى الاراضى المستصلحة بعد قطع الغابات اساس الحياة الاقتصادية عند المايا . وكان هؤلاء يزرعون الذرة الصفراء والفواكه والفول والقطن والكاكاو الخ . . كان المايا مزارعين ماهرين ، وقد استطاعوا ، مثلا ، استنبات مختلف الانواع من مزروعة هامة كما هي عليه الذرة الصفراء . وقد سمى احد هذه الانواع بسبب سرعة نضوجه الحارقة «صياح الديك» .

وكان بين الحرفيين اختصاصيون ماهرون : حياكون ، صياغ ، صانعو اسلحة ، نحاتو حجارة ، نقاشون فى العظم والخشب والحجر ، مهرة فى صنع الحلى من الريش الخ . . وبما ان قبائل المايا كانت تعانى من النقص الحاد فى المعادن ، فقد استخدمت الزجاج البركانى لصنع الآنية وادوات العمل وكذلك لصنع الاسلحة ، وهو زجاج طبيعى يتميز بصلابة كبيرة .

وتميز دين المايا بتعقد طقوسه وفخامتها . فقد كان على الآلهة الجبابرة والرهيبة الكثيرة التى تتطلب الضحايا البشرية الجديدة والجديدة ابدا ، قمع وتخويف المزارعين البسطاء والعبيد والابقاء عليهم فى حالة الاذعان الاعمى . بيد ان بعض المعلومات يمكّن من استخلاص استنتاج مفاده ان الصراع الطبقى كان قائما فى دول – مدن المايا ايضا وكان يرتدى فى بعض الاحيان طابعا ضاريا .

وقد ادى تكديس المعارف والحاجات العملية فى حضارة الزراعة الى نشوء اجنة علوم مثل الرياضيات وعلم الفلك والتاريخ . واوجدت قبائل المايا النظام العشرينى للحساب واخترعت هى ايضا علامة تدل على الصفر . وكانت السنة فى تقويم المايا تحسب بمنتهى الدقة حتى الدقائق ، اى بشكل ادق مما فى التقويم المعاصر . واخترع شعب المايا الكتابة

الهيروغليفية وطبقها تطبيقا واسعا . وكان يشيّد فى كل هاتون (اى فترة زمنية معينة فى تقويم المايا تعادل فى اغلب الاحوال ٢٠ سنة) عمود من الحجر تحفر عليه كتابات تدل على اهم الاحداث فى غضون الهاتون المنصرم . وكانت عند المايا كتبه معمولة من ملفات طويلة من ورق خاص مطوية طيات متعاكسة . ولقد هلكت آلاف مثلا هذه الكتب – فى الحريق الذى نظمه الراهب الاسبانى دييغو دى لاندا .

خلّف شعب المايا وراءه آثارا رائعة فى فن المعمار والنحت والتصوير على الجدران .

ان تفكك شعب المايا والعداء الدائم بين الدول قد مكّنا المستعمرين الاسبان من اخضاع يوكاتان والمناطق المتاخمة لها وتدمير حضارة السكان المحليين العالية الاصيلة .

دولة الاستيكيين

خلال قرون وقرون قامت دولة عبودية اخرى للهنود الحمر فى شمال يوكاتان على هضاب المكسيك . وكانت قبيلة التينوشكيين او الاستيكيين هى مؤسسة هذه الدولة . وتحصن التينوشكيون فى الجزر المنيعة فى بحيرة تيكسكوكو الجبلية ، وفرضوا بالقوة على القبائل التى تربطهم بها رابطة القرابة اتحادا اصبح فيما بعد نواة الدولة .

وفى الوقت الذى ظهر فيه الاسبان كانت تتم عملية تحول الاتحاد القبلى الى دولة عبودية استبدادية . لقد واصلت اجهزة الحكم القبلى البقاء شكليا ، ولكنها بشكلها الذى طرأ عليه تغير شديد كانت تقوم بوظائف جديدة . وقد انتقل الاستيكيون الى وادى المكسيك فى وقت متاخر نسبيا ، ولذلك استوعبوا

منجزات الحضارة الغنية عند شعوب اخرى فى المكسيك هى شعوب الاولميك ، والتولتيك ، والميشتيك الخ . . وتمكنوا فى فترة وجيزة من انشاء حضارتهم الرفيعة .

كان على رأس الدولة حاكم يركز فى يديه كل السلطة ويعتمد على جهاز للدولة واسع الفروع ، وعلى الجيش والكهنة . وكان الاستيكيون يخوضون الحروب المستمرة مستولين بذلك على عدد كبير من الاسرى . ان قسما من الاسرى كان يقدم قربانا للآلهة الرهيبة والقسم الآخر يتحول الى عبيد . والمصادر الاخرى للعبودية كانت تجارة الرقيق وعبودية الدين . وكان وضع العبيد فى منتهى الصعوبة . فقد كان من نصيبهم اكثر الاعمال انهاكا ، وغالبا ما كانوا يتعرضون للقصاص الجسدى ويقدمون كذلك قربانا للآلهة .

وكان السكان الاحرار ينقسمون الى عدة مجموعات مما يضطرنا الى تذكر الفارنات فى الهند او التقسيم الى كاملى الحقوق و«الخاضعين» فى بابل . وقد كان المشاعيون الاحرار فى دولة الاستيكيين يؤلفون احدى الجماعات الدنيا . فكان قسم هائل من المنتوج الذى ينتجونه يصبح ملكا للدولة ويذهب لسد حاجات الجيش ، وكان كذلك مصدرا لثروات الحاكم والارستقراطيين والكهنة .

كانت الزراعة الاساس الذى قامت عليه حضارة التينوشكيين ــ الاستيكيين . فقد اعطت المكسيك ، ولا سيما الاستيكيون ، العالم مزروعات قيمة مثل الكاكاو والكاوتشوك والبندورة والذرة الصفراء . وبما انه لم يكن تحت تصرف الاستيكيين مساحات كبيرة من الارض ، فقد انشأوا فى البحيرة جزرا اصطناعية استغلوها فيما بعد من اجل البساتين والمزارع . اما الحيوانات البيتية التى رباها الاستيكيون فكانت قليلة .

وبلغت الحرفة عند التينوشكيين مستوى رفيعا . فقد كان الصياغ وصانعو الاسلحة والبناءون والمعدنون وصانعو الفخار ماهرين للغاية فى عملهم . ان ابداع ايديهم يثير الدهشة لغاية الآن فى نفوس زوار المتاحف .

وكانت عند الاستيكيين تجارة متطورة بما فى ذلك التجارة الخارجية . وكانت تقوم بدور النقد محاور من ريش الطيور محدودة المقاييس ومملوءة بدقيق الذهب .

وانشأ الاستيكيون كتابتهم التصويرية. وكانوا يستخدمون لكتابة الكلمات المنفردة العلامات الهيروغليفية التى ظهرت ، على ما يبدو ، بتأثير الكتابة عند شعوب اخرى .

ان فن الاستيكيين ، لا سيما فن المعمار والنحت والآثار الادبية المكتوبة بالخط التصويرى ، وابداعات الرسم ، قد انقرضت بصورة تامة تقريبا نتيجة للتدمير البربرى الذى انزلته بعاصمة الاستيكيين تينوتشتيتلان (حاليا مدينة مكسيكو) كتائب الفاتح الاسبانى كورتيس . ولكن حتى ذلك الشيء القليل الذى بقي يشهد على المستوى الرفيع الذى بلغته حضارة الاستيكيين .

دول التشيبتشيين

قامت على اراضي كولومبيا المعاصرة دول صغيرة للهنود الحمر التشيبتشيين . ان المعلومات المتوفرة للعلماء فى الوقت الحاضر عن هذه الدول لا تمكّن ، حسب رأينا ، من اعطاء وصف مضبوط خال من الاخطاء لمجتمع التشيبتشيين . يمكن فقط التأكيد الى هذا الحد او ذاك من اليقين ان هذه المجتمعات كانت ايضا مجتمعات طبقية تطور فيها الرق .

ان أوسع دولة عبودية فى اميركا كانت تاوانتينسويو او كما يسمونها بصورة خاطئة «امبراطورية الانكيين» .

يتعرض تاريخ تاوانتينسويو لتزوير هائل . ففى عدة دول فى اميركا اللاتينية وفى غيرها من البلدان ، تدرّس فى المدارس والجامعات نظرية عن النظام «الاشتراكى» او حتى «الشيوعى» فى تاوآنتينسويو . ولكنه من غير الصعب حدس الجوهر الطبقى لمثل هذه المزاعم . فان احد اعمدة النظرية المذكورة اعلاه الفرنسي لوى بودين كتب بالضبط ما يلى : «. . . فى هذا النظام الاشتراكى تقريبا يصعب احيانا تحديد الفرق بين الانسان الحر والعبد» .

فما هو اذن بالفعل الطابع الذى اتسم به النظام الاجتماعى عند الانكيين ؟

كانت دولة تاوانتينسويو تشتمل تقريبا جميع اراضى البيرو والاكوادور المعاصرتين ، وعلى قسم كبير من بوليفيا والارجنتين والتشيلى . ومركز السيادة فى الدولة كانت تحتله قبيلة الانكيين الذين اعتبروا انفسهم من سلالة الشمس والقمر. وكان يرأسهم حاكم مطلق يحمل لقب سابا انكا («انكا الحاكم الوحيد») او انكا فقط . وانكا هو المتحكم بمصائر الملايين من تابعيه ، من قبائل وشعوب . وهو الذى تجسدت فيه مصالح طبقة مالكى العبيد المتكونة من العديد من القادة الحربيين والموظفين والكهنة الانكيين . كان الانكيون يخوضون الحروب باستمرار مخضعين بذلك القبائل والاقوام الهندية المجاورة . وكانوا يرحّلون بعضها الى اراض جديدة ويحولونها الى عبيد اطلقوا عليهم اسم «ياناكونا» («الناس السود») . وتروى اسطورة

قديمة انه جرى لاول مرة تحويل ستة آلاف هندى الى عبيد بسبب اشتراكهم فى انتفاضة ضد الحاكم الاعلى . وكان اطفال العبيد يعتبرون عبيدا كذلك .

كانت المشاعية هى الخلية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، ولكن ، كما هو الامر فى بلدان آسيا وافريقيا ، قلّما كان وضع المشاعيين فى دولة الانكيين العبودية يتميز عن وضع العبيد . فقد كان على المشاعيين تقديم ثلث الغلال الى انكا، والثلث الآخر الى الشمس (اى الى الكهنة) ، وفضلا عن ذلك ، كانوا ملزمين باعالة الزعماء المحليين . وعلى هذا النحو كان يبقى للمزارع اقل من ثلث المنتوج الذى ينتجه . وكان على المشاعيات الاهتمام بحالة شبكة الرى وتصليحها وبناء الاقنية الجديدة ، وتقديم الناس للعمل فى المناجم ، وشق الطرق وتصليحها .

ولم يكن للمشاعيين حق التنقل الحر ، وكانوا يقتاتون فقط بما يصفه لهم الموظفون والزعماء ، ولا يلبسون الا حسب الطراز المقرر لهم . اما سابا انكا ، وارستقراطية الانكيين ، والكهنة والارستقراطيون من القبائل الاصلية التى انتقلت الى جانب الانكيين ، فكانوا يعيشون فى ترف غير عادى . وكان العبيد والمشاعيون يبنون لهم القصور والمعابد الرائعة المزينة تزيينا وافرا بالذهب والاحجار الكريمة .

ان كميات هائلة من الخيرات المادية ، التى كان ينتجها المشاعيون والعبيد وتمتلكها دولة الانكيين العبودية ، كانت تذهب لاعالة الجيش الجرار وجهاز الدولة .

ان تاريخ تاوانتينسويو غنى باحداث الصراع الطبقى العنيف . واحد هذه الاحداث – انتفاضة القبائل الخاضعة ضد الاستبداد – وجد انعكاسه فى الاثر الادبى الرائع بلغة كيتشوا ، الدراما الشعبية «ابو – اولياتتا» .

لقد بلغت حضارة تاوانتينسويو ، سواء المادية منها أو الروحية ، ازدهارا كبيرا . وكانت الزراعة المروية اساس حضارة الانكيين . فقد بنيت الاقنية العديدة ، وبفضل ايدى الكادحين الماهرين تحولت المنحدرات الجبلية الى شرفات واسعة كانت تروى ايضا بطريقة اصطناعية . وثمة معلومات تدل على ان سكان تاوانتينسويو كانوا يسقون المراعى كذلك . وقد استنبت الانكيون عشرات الانواع من النباتات ، منهــا كينوا (نوع من الذرة البيضاء) ، والذرة الصفراء ومختلف انواع البطاطا ، والفلفل ، والنباتات العلاجية الخ .. وكانت الحقول تسمد بسماد من ذرق الطيور المتراكم على الجزر .

وخلافا عن المناطق الاخرى فى اميركا ، كانت تربية المواشى وفى دولة الانكيين متطورة بصورة واسعة نسبيا . فكانت ترّبى اللاما وغيرها من انواع الحيوانات القريبة منها ، ودجنت كذلك بعض انواع الطيور . وكان القسم الاكبر من رؤوس اللاما يعتبر ملكية مصونة لسابًا انكا .

وبما ان الانكيين كانوا يملكون عددا كبيرا من رؤوس اللاما فانهم استخدموها كدواب لنقل الاحمال . ولم يكن الانكيون ، شانهم شان الشعوب الاخرى فى اميركا ، على علم بالعجلة ، رغم انهم كانوا يعرفون التصوير الهندسى للدائرة .

وبلغ الحرفيون الانكيون درجة كبيرة من الاتقان فى مهنتهم ، لا سيما الحياكون والبناؤون وصانعو الفخار والمعدنون .

لقد كانت مبانى الانكيين تتميز بمناعة غير عادية . فقد استطاعوآ صهر الذهب والرصاص والقصدير والنحاس . وتفيد المعطيات غير المباشرة انهم كانوا قد تمكنوا من تكييف حديد النيازك واقتربوا من استخدام الفلزات الحديدية . وكانت تتخلل اراضى الدولة الهائلة باسرها الطرق الواسعة (٥ ـ ٦ امتار) .

وعبر الانهر والهوات العديدة التي تقطعها الطرق كانت تمد الجسور التي غالبا ما كانت معلقة . وكانت النقليات المائية من اهم وسائل النقل . وكان الهنود يمخرون عباب الانهار والبحيرات على ما صنعته ايديهم بصورة فنية من قوارب شراعية وقوارب تجذيف وعوامات . وقام الانكيون برحلات بحرية بعيدة على عوامات خاصة لهذا الغرض . وهناك ما يدعو للتفكير بان الملاحين الانكيين كانوا قد بلغوا اميركا الوسطى والمكسيك . وقد استهدفت هذه الرحلات اهداف التجارة الخارجية . غير ان التجارة ، الخارجية منها والداخلية ، كانت ضعيفة التطور . وكانت تغلب تجارة المقايضة . وظهر في الوقت نفسه المعادل النقدي بشكل اصداف بحرية من نوع خاص .

كان عند الانكيين ، كما كان عند المايا ، الخط الهيروغليفي . ولكن لم يكن يعرفه غير سابا انكا وكذلك حفنة من كبار الموظفين والكهنة ذوي المناصب العالية . والى جانب الخط الهيروغليفي استخدمت من اجل نقل البلاغات واجراء العمليات الحسابية مختلف الوسائل التي كان اكثرها انتشارا ما يسمى بـ«خط العقد» – كيبو .

كذلك تطور الابداع الادبي الشفهي وفن الرقص والموسيقى والنحت وهلمجرا . وانتشر تمثيل المسرحيات انتشارا واسعا .

وكان تقويم الانكيين يعد ٣٦٥ يوما وينقسم الى اثني عشر شهرا ويبدأ من الاستقبال الشمسي في كانون الاول (ديسمبر) وكان كل شهر ينقسم الى اربعة «اسابيع» .

لقد سقطت تاوانتينسويو وحضارتها الرفيعة تحت ضربات الغزاة الاسبان الذين استغلوا انعدام الوحدة عند القبائل الهندية .

ولا يجوز ان يغيب عن البال تفوق الاسبان في الاسلحة . فالحصان والسلاح الناري اللذان لم يكن للهنود معرفة بهما ، غالبا ما كانا يبعثان الرعب في قلوب المقاتلين الهنود ، ولا سيما في الاشتباكات الاولى .

الفصل الثالث

خصائص نظام الرق فى اليونان القديمة

١ ـ الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية. الاشكال السياسية

خلافا للدول الآسيوية والافريقية القديمة ، كانت اليونان وروما بلدين بلغ فيهما تطور الرق اعلى مستوى . فقد احرز اسلوب الانتاج العبودى هنا الانتصار فى زمن اقصر بكثير منه فى الدول العبودية الاستبدادية .

سلك اليونانيون القدماء طريق تطوير العلاقات الطبقية وتاسيس الدولة فى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . ، اى فى زمن كانت فيه مجتمعات الرق فى بلدان آسيا وافريقيا الشمالية قد اجتازت طريقا طويلا من التطور . والشىء الذى كان قد احرزه المزارعون والحرفيون المصريون والصينيون والبابليون والهنود فى غضون آلاف السنين بلغه اليونانيون والرومان أسرع بكثير .

وبتعبير آخر ، لم يكن بالامكان الا ينعكس على وتائر تطور النظام العبودى مستوى القوى المنتجة وعلاقات الانتاج المطابقة له وجميع مؤسسات المجتمع العبودى فى بلدان الشرق .

بوليس (المدينة-الدولة) فى اليونان

كانت المجتمعات العبودية فى بلدان آسيا وافريقيا تتميز ، كقاعدة ، بميزة خاصة هى انتشار الدول الاستبدادية الممركزة .

وكانت ملكية الدولة للارض والمياه مرتبطة ارتباطا وثيقا بمشاعيات الكادحين الاحرار .

اما في اليونان القديمة فكان الوضع مختلفا . فان شكل الملكية العبودية السائدة هنا كان يعتمد على بوليس ، اى المدينة-الدولة القديمة . وكان مفهوم المشاعية ومفهوم بوليس الشيء نفسه . غير ان هذه لم تكن مشاعية الشغيلة ، كما في الشرق ، وانما مشاعية مالكي العبيد . وكان اعضاؤها ، الحائزون على جميع الحقوق المدنية ، يؤلفون اقلية مميزة . وبقي خارجها ليس فقط العبيد ، بل ايضا بعض فئات السكان الاحرار غير الكاملي الحقوق . ومن بين هؤلاء ، تنبغي الاشارة ، قبل كل شيء ، الى النازحين من المناطق والبوليسات الاخرى .

كانت البوليس تمثل عادة مدينة محاطة بالاسوار ، وتضم كذلك السكان في الوادى او الجزيرة المتاخمة . وفي حالة الخطر كان هؤلاء السكان يجدون الملجأ وراء اسوار المدينة . وهنا ايضا كان يجتمع السكان لانتخاب هيئات الحكم ، ولحل اهم القضايا الاجتماعية ، وللاحتفال بالاعياد وما الى ذلك .

كانت اراضي البوليس ذات مساحات غير كبيرة . فاراضي كورنتس ، مثلا ، كانت تبلغ مساحتها ٨٨٠ كيلومترا مربعا ، واراضي اكبر دولة يونانية - اسبرطة - ٨٤٠٠ كيلومتر مربع .

تكون البوليسات هو نتيجة تفسخ النظام المشاعي البدائي في اليونان القديمة

على تخوم الالف الثاني والاول ق . م . بدأ يتفسخ النظام المشاعي البدائي الذي كان سائدا عند اليونانيين القدماء . وتحت تأثير التفاوت المتفاقم في التملك اخذت العشائر تنشطر الى عائلات كبيرة ، تكونت منها فيما بعد المشاعيات الاقليمية . وكانت

الارض تنقسم الى قطع منفردة تنتقل ملكيتها بالوراثة . وكان قسم قليل فقط من الارض يبقى تحت تصرف المشاعية . واعلى هيئة للسلطة فى تلك الحقبة كانت مجلس زعماء القبائل وجمعية الرجال البالغين . واصبحت الحرب التى تستهدف الاستيلاء على الغنائم والعبيد جزءا لا يتجزأ من معيشة القبائل اليونانية فى ذلك الزمن . لقد كانت هذه هى السمات التى تميز النظام المشاعى البدائى فى مرحلة تفسخه .

ان الحروب وتطوير التجارة على اساس تطوير الزراعة والحرف ساعدت اكثر فاكثر على تفاقم عدم المساواة فى التملك .

كان نشوء النقد بشكل قطع عملة دليلا على المستوى الرفيع لتطور التبادل ؛ وقد رافقه ظهور القروض والربا ورهن الممتلكات . وافضت الظروف الاقتصادية الجديدة بالضرورة الى ظهور اشكال اجتماعية جديدة . فالتحادات السكان العشائرية الموروثة عن عصر النظام المشاعى البدائى دمّرها استعباد المشاعيين الاحرار مقابل الديون ، وظهور اعداد كبيرة من العبيد الاجانب او القادمين من مناطق اليونان الاخرى على اراضى المشاعيات .

واخذت المشاعيات العشائرية المشتتة تفقد اكثر فاكثر الاساس الاقتصادى لوجودها . واخذت حاجات تطورها تقتضى اكثر فاكثر توحيدها . وهكذا جرى اندماج المشاعيات ، وقد أسمى باليونانية «سينويكسموس» . وبدل التقسيم العشائرى ظهرت اشكال اخرى للتقسيم تقوم على اسس التملك والاسس الاقليمية . وبالتدريج حلت كذلك محل المؤسسات العشائرية مؤسسات طبقية . واكتسبت الجمعية الشعبية ومجلس الزعماء طابعا ارستقراطيا ، اى طبقيا . وقد تجلّت السمات الاساسية لهذه العملية فى القرن الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد .

تصفية عبودية الدين

تكونت الهيئات الطبقية فى جو من النضال العنيف تخوضه الفئــات الواسعة من السكان – «الديمـوس» (الشعب) ضد الارستقراطيين – اسياد العبيد . وفى مجرى النضـــال توصلت جماهير الشعبية الى الغاء عبودية الديْن . وهذا الواقع هو احد الخصائص الرئيسية لتطور نظام الرق فى اليونان القديمة .

الطغيان اليونانى المبكر

ان احد اشكال نظام الدولة فى اليونان القديمة ، الذى سبق ظهور البوليس ، هو ما يسمى بالطغيان . وقد جاء تكوّن الطغيان ، اى الحكم الفردى ، نتيجة لانتصــــار الديموس (الشعب) على الارستقراطية العشائرية . غير ان السلطة تمركزت فى ايدى اغنى فئات الديموس التى يمثلها الطاغية . وقد قامت مثل هذه الدول الطاغية فى القرن الســابع والسادس والخامس قبل الميلاد فى كورنتس وميقارا وسيكيون وغيرها من المدن .

كانت دولة الطغيان فى جزيرة ساموس فى النصف الثانى من القرن السادس ق . م . التى يرأسها بوليكراتوس دولة شديدة البأس .

لم يكن بمستطاع الطغيان تلبية مصالح طبقة اسياد العبيد الناشئة تلبية تامة ، ولم يعش زمنا طويلا رغم انتشاره الواسع ، ودولة البوليس هى الشكل الاساسى للمجتمع العبودى والدولة العبودية وقد دام هذا الشكل زمنا طويلا جدا .

اشكال البوليسات

اخذت المدن-الدول – البوليسات – شكلا مزدوجــا . ففى بعضها كانت تقوم سلطة فئة مالكى العبيد بكاملها – الحكم المسمى

بديموقراطية مالكي العبيد . وفي بعضها الآخر كانت ادارة الدولة متمركزة في ايدي قلّة – سلطة ما يسمى بحكم القلّة . وفي الحالة الثانية كانت ملكية الارض شرطا الزاميا لامتلاك المواطن الحقوق الكاملة .

كانت اثينا المثال الكلاسيكي لدولة الطراز الاول ، واسبارطة المثال الكلاسيكي لدولة الطراز الثاني .

حكم القلّة في البوليس (اسبارطة)

كان جميع سكان اسبارطة ينقسمون الى ثلاث مجموعات : الاسبارطيون وهم مواطنون كاملو الحقوق ، والبيريكيون وهم احرار ولكنهم لا يتمتعون بالحقوق السياسية ، واخيرا الايلوتيون وكانوا في تبعية العبد تقريبا للاسبارطيين . وكانت الارض تعتبر ملكا لاعضاء مشاعية الاسبارطيين ، وكان هؤلاء يستثمرونها قطعا منفردة . وكان امتلاك الارض في اسبارطة شرطا ضروريا للجنسية . وكان الايلوتيون هم الذين يفلحون الارض ، ولكنهم كانوا يحصلون على حصة صغيرة فقط من الغلال . وبغية الابقاء على الايلوتيين في حالة من الرعب والخضوع ، كان الاسبارطيون من حين لآخر ينظمون ضدهم عمليات التنكيل الدموية الوحشية .

كان الايلوتيون ، شأنهم في ذلك شأن الارض التي يعملون فيها ، يعتبرون ملكية مشاعية للاسبارطيين ، ولم يكن بوسع الاسبارطيين بيعهم او تقديمهم لشخص آخر .

وغالبا ما كان ينتفض الايلوتيون . فالانتفاضة الكبرى في سنة ٤٦٤ ق . م . كادت تؤدي الى سقوط سلطة الاسبارطيين .

اما البيريكيون الاحرار فكانوا يمارسون الحرف والتجارة . وخلافا للاسبارطيين كانوا يتمتعون بحق الملكيّة الخاصة ، وكانوا

يدخلون فى عداد قوات الاسبارطيين المسلحة . غير انهم كانوا محرومين من الحقوق السياسية وملزمين بتأدية الفرائض لمصلحة الاسبارطيين .

كان الاسبارطيون لا يؤلفون الا قسما صغيرا من السكان . ولكن من بينهم ايضا ينبغى تمييز المجموعة الاكثر تنفذا وثراء . فمنها بالذات كان الملكان اللذان يترأسان مشاعية الاسبارطيين . كان الملكان مجرد عضوين فى مجلس الزعماء الذى كان يعتبر اعلى هيئة للسلطة ويمثل حكم القلة فى المشاعية .

فى نهاية القرن السابع ق . م . تراست اسبارطة اتحاد بيلوبونيس الذى كانت تدخل فيه مدن-دول شبه جزيرة بيلوبونيس . وبما ان اسبارطة كانت دولة عبودية متاخرة فقد اصبحت حصن الرجعية فى اليونان . وقد حاول الاسبارطيون فى جميع دول (بوليسات) اليونان اقامة سلطة ارستقراطية مالكى العبيد ودعم هذه السلطة .

دولة ديموقراطية مالكى العبيد (اثينا)

تكونت دولة اثينا وتطورت فى اشكال تختلف عنها فى اسبارطة . فالنقص فى الاراضى الخصبة وتوفر الفضة والخزف الجيد والاحتياطات الكبيرة من المرمر افضت الى تطور الحرفة والتجارة المبكر . وقد ساعدت الموانئ البحرية الملائمة على ظهور الملاحة .

فى البدء كان يحكم اتيك ، التى كانت اثينا مركزا لها ، زعماء ارستقراطيون (باسيليون) ، كانوا فى آن واحد قضاة وكهنة وقادة للحرب . ومع تطور الاقتصاد انتقلت السلطة من ايدى الباسيليين الى ايدى الاوباتريين – ارستقراطى الارض .

ان الشعب (الديموس) لم يكسب شيئا من هذا التبدل . فقد استولى الاوباتريون على اجود الاراضي في اتيك . وهنا اخذ يتطور التبادل ويظهر الربا ، وبدأت تزدهر عبودية الدَين . وكل هذا ادى الى صراع اجتماعي عنيف .

وفي سنة ٦٢١ ق . م ، كما تروي الاسطورة ، سنّت قوانين دراكونت التي تميزت بالقسوة المتناهية . وكان القصد من هذه القوانين ان تحمي حق الملكية الخاصة وتؤدب بلا رحمة كل من يتطاول عليها . ورغم ذلك اخذ هيجان السكان المستعبدين يشتد في بداية القرن السادس قبل الميلاد وهذا ما اجبر الارستقراطيين على اجراء بعض التنازلات ، اذ أن اغنياء التجار والحرفيين كانوا في عداد المستائين . فقد كان هؤلاء يملكون الثروات ، ولكنهم ازيحوا عمليا عن السلطة التي تركزت في ايدي الاريوباج اي مجلس الكبار (مجلس الشيوخ) .

كان عدد اعضاء مجلس الكبار يكتمل سنويا من الارخونتيين وهم اعضاء مجلس يتكون من تسعة اشخاص ينتخبون من عداد الاوباتريين الارستقراطيين .

اصلاحات سولون مرحلة في تطور البوليس

انتخب سولون في سنة ٥٩٤ ق . م . عضوا في مجلس الارخونتيين في اثينا . وفي زمن الهزات الاجتماعية ، رشح ليكون وسيطا ؛ وكان مضطرا الى القيام بسلسلة من التغييرات في مصلحة الديموس (الشعب) . وهكذا الغي رهن الارض وصفيت الديون القديمة وحرّم بيع المواطنين للاستعباد لقاء الديون المترتبة عليهم .

وقد ساعدت اجراءات اخرى لسولون على تطور الحرف والتجارة . فاعلنت حرية الوصيّة ، مما انزل ضربة بالنظم

العشائرية . ومن جديد ، كما فى زمن الديمقراطية الحربية ، اخذت تلعب الدور البارز فى حياة اثينا السياسية الجمعية الشعبية باشتراك جميع المواطنين الذكور . بيد ان المواطنين كانوا ينقسمون الى اربع مجموعات تبعا لحالتهم المادية .

كان التمتع بكامل الحقوق السياسية من نصيب المواطنين من المجموعتين الاولى والثانية فقط . فهم وحدهم ، مثلا ، الذين كانوا ينتخبون الى مجلس الارخونتيين ويصبحون ، بالتالى ، اعضاء فى الاريوباج – مجلس الكبار . وقد حرم من هذه الامكانية اعضاء المجموعتين الثالثة والرابعة على السواء . فهؤلاء لم يملكوا الا حق انتخاب الاشخاص المسئولين الى الجمعية الشعبية ، اما هم انفسهم فما كان بالامكان انتخابهم .

والى جانب الاريوباج – مجلس الكبار قامت كذلك هيئة سياسية اخرى هى «مجلس الاربعمئة» . وكان هذا المجلس مؤسسة أكثر ديمقراطية من مجلس الكبار ، فاليه كان ينتخب ليس فقط المواطنون من المجموعتين الاوليين ، وانما من المجموعة الثالثة ايضا . ولئن كان مجلس الكبار يمارس القيادة العامة لشؤون الدولة ويقوم بدور المحكمة العليا ، فان «مجلس الاربعمئة» ، كان فى الفترات الواقعة ما بين جلسات الجمعية الشعبية ينصرف الى الشؤون الجارية لادارة الدولة . وفى هذه الحقبة بالذات ، على ما يبدو ، أسست محكمة الشعب التى اشترك فيها ايضا ممثلون من المجموعة الرابعة .

تقدمت اصلاحات سولون بمبدأ حق الملكية وكانت بذلك مرحلة هامة فى تكوّن الملكية العبودية كاساس للدولة اليونانية . غير ان اصلاحات سولون حملت طابع الحل الوسط .

لقد حصلت الفئات الغنية من الشعب على امكانية الاشتراك فى ادارة الدولة . اما سيطرة ارستقراطية العشائر فقد تزعزعت

فقط ولكن لم تصف . ولم يقض على التقسيم العشائرى القديم . وكانت هذه الاصلاحات بمثابة تنازل اضطرارى قــام به الارستقراطيون الذين لم يقلعوا ، مع هذا ، عن مخططات بعث النظم الاجتماعية القديمة .

التشكل النهائى لبوليس الرق

تكونت السمات الاساسية لدولة الرق (الدولة العبودية) فى اثينـــا بصورة نهائية على تخوم القرنين السادس والخامس ق . م . والمقصود هنا اصلاحات كليسفين التى أستعاضت عن التقسيم العشائرى بالمبدأ الاقليمى للتقسيم . فقد تأسست ثلاثون مقاطعة . وصارت كل ثلاث مقاطعات تكوّن «فيلا» اقليمية جديدة . وكل فيلا كانت تنقسم بدورها الى ديمات ، اى الى وحدات ادارية اقليمية اولية . وفقد الاريوباج – مجلس الكبار – اهميته القديمة . ومحل «مجلس الاربعمئة» حل «مجلس الخمسمئة» الذى كانت تنتخبه الفيلات على اساس التمثيل النسبى (لكل فيلا خمسون شخصا) .

واصبح «مجلس الخمسمئة» مرجعا الزاميا قبل طرح القضايا فى الجمعية الشعبية . وهو الذى كان ينفذ قرارات الجمعية . كذلك تأسس مجلس الستراتيجيين الذى اضحى فيما بعد الهيئة التنفيذية العليا . وكان يدخل فى هذا المجلس ممثل عن كل فيلا .

وازداد عدد المواطنين فى اثينا من جرّاء تدفق الغرباء الذين كانوا احرارا شخصيـــا ، ولكنهم لا يتمتعون بالحقوق السياسية .

وقد وجدت الارستقراطية العشائرية نفسها متفككة . وفقدت نفوذها السابق فى الجمعية الشعبية التى اخذت تصوت حسب الفيلات .

وكانت النتيجة النهائية ان تكون نظام بين المعالم للعلاقات العبودية . واصبح العبيد واسياد العبيد طبقتين اساسيتين متناحرتين . وكان العبيد محرومين كليا من جميع الحقوق المدنية منها والسياسية .

ولم تكن طبقة مالكى العبيد تشمل جميع السكان الاحرار الذين كان ينتسب اليهم كبار الملاكين العقاريين ، واصحاب المشاغل الحرفية ، والتجار والمرابون . فاكثرية الاحرار كانت تتالف من الشغيلة ، اى من صغار الحرفيين والمزارعين ، وكذلك من بعض فئات السكان الكادحين الاخرى .

ان توطد الديموقراطية العبودية فى اتيك قد استتبع رد فعل سلبى فى اسبارطة . وسوية مع الارستقراطيين الثيبيين والاوبيين هجم الاسبارطيون على جمهورية اثينا . وقد كان النصر الى جانب الدولة العبودية الديمقراطية ولم يتمكن الاثينيون من الذود عن نظامهم وحسب ، وانما تمكنوا ايضا من بسط نفوذهم خارج حدود اتيك .

وكان القرن الخامس ق . م . مرحلة الازدهار الشامل فى اثينا ، بما فى ذلك نظامها الديمقراطى . وبلغت النظم الديمقراطية ذروة تطورها فى عهد حكم بيريكلس . واخذت الجمعية الشعبية تجتمع بانتظام اربع مرات فى الشهر بمشاركة جميع المواطنين . وكان التحضير التمهيدى للمواد التى ستطرح فى الجمعية الشعبية يتركز فى ايدى «مجلس الخمسمئة» الذى كان يصرف ايضا الشؤون الجارية من سياسية وادارية وحربية .

كان فى وسع كل مواطن ان ينتخب وينتخب الى اية هيئة فى دولة اثينا : الى محكمة المحكمين ، الى «مجلس الخمسمئة» ، والى مجلس الستراتيجيين . ولكن هذه الديمقراطية كانت كالسابق ديمقراطية مالكى العبيد . ففى الجمعية الشعبية لم يكن يشترك الا

المواطنون الذكور الاحرار ، اى الاقلية الضئيلة . بالاضافة الى هذا لم يكن جميع الاحرار قادرين على ممارسة حقوقهم المدنية عمليا . فقلما كان يتمكن فلاحو اتيك من الاشتراك فى الجمعية الشعبية ، اذ انهم كانوا يعيشون على مسافة يتطلب اجتيازها الى اثينا يومين او ثلاثة ايام . ولذا لم يكن يحضر الجمعية الشعبية ، كقاعدة ، من عدد المواطنين العام البالغ ٣٠ ــ ٣٥ الف انسان غير الفين او ثلاثة آلاف فقط .

والى جانب استثمار العبيد والمواطنين الاحرار فى بوليس ــ اثينا كانت فئة اسياد العبيد الحاكمة فى اثينا تستثمر بدرجة متزايدة ابدا البوليسات التابعة لاثينا .

الاستعمار اليونانى القديم

جرى انتشار الاستعمار اليونانى فى آن واحد تقريبا مع تكون البوليسات . ومصدره بالدرجة الاولى ، تلك المناطق اليونانية التى استولت فيها الارستقراطية العشائرية على السلطة . فهى اذ ركزت الارض فى ايديها وحكمت بعملها هذا على جماهير المشاعيين بالاملاق ، اضطرتهم الى مغادرة الوطن . وقد انضم اليهم ممثلو الفقراء فى المدن والبوليسات ، والحرفيون المفلسون نتيجة لتفاقم مزاحمة عمل العبيد ، والمزارعون الصغار والمتوسطون . وكان كثيرون من المستعمرين اناسا من الاوساط الارستقراطية ، هاجروا من بوليساتهم لاعتبارات سياسية .

واندفع التجار فى الرحلات البعيدة سعيا وراء الثروات : القمح ، الملح ، المعادن ، العبيد .

وفى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . نشأت المستعمرات اليونانية على شواطئ البحر الابيض المتوسط اى فى

فرنسا ، واسبانيا ، وايطاليا الحديثة ، وفى دلتا النيل ، وعلى شواطئ البحر الاسود ، وبحر آزوف . وكانت هذه بوليسات مستقلة اقامت مع البوليس الام صلات وثقى ثقافية واقتصادية .

لقد لعب الاستعمار اليونانى دورا هائلا سواء أفى مصير اليونانيين انفسهم ، ام فى مصير السكان الذين اندمج معهم اليونانيون اندماجا وثيقا طويل الامد .

الاساس الاقتصادى للبوليس اليونانى

بنت الدولة اليونانية ازدهارها على الاستثمار الوحشى للعبيد الذين ازداد عددهم بصورة ملحوظة . وكانت الحروب وتجارة الرقيق مصادر زيادة عدد العبيد . وعلى استثمار العبيد قام نهوض الحرفة والملاحة والتجارة والفن .

ونشأت فى اثينا كثرة من المشاغل كان يعمل فيها العبيد . كانت المشاغل الصغيرة هى الغالبة ، ولكن عدد العبيد العاملين فى المشغل كان فى بعض الحالات يزيد على مئة عبد . وهذا التعاون البسيط للقوة العاملة رفع انتاجية العمل .

اما خاصة الاقتصاد اليونانى المميزة فكانت نمو التقسيم الاجتماعى للعمل الذى كان بدوره يستتبع تطور الانتاج البضاعى . لقد تحولت اثينا الى مركز تجارى ضخم .

فتح الاقتصاد العبودى فى الدولة اليونانية مجالا كبيرا لتطور القوى المنتجة ولكنه سرعان ما اخذ يعرقل تقدمها اللاحق . فالعبد لم يكن معنيا على الاطلاق برفع انتاجية العمل ، ولم يسع الى أتقان ادوات العمل وعاداته فى العمل ، وكان مهملا فى موقفه من الادوات وكان غالبا ما يكسرها . ولذا كان مالكو العبيد ، عادة ، لا يزودون العبيد الا باكثر الادوات فظاظة .

وكان العبيد القوة المنتجة الاساسية فى ذلك الوقت . ولكن وضعهم كان شديد الوطأة لدرجة ان عبيدا كثيرين كانوا يموتون قبل بلوغ سن العجز . وبقدر ما كان يسرع تطور الاقتصاد ، بقدر ما كان يزداد عدد العبيد وتتفاقم ظروف حياتهم . وعلى هذا النحو ، كان المجتمع اليونانى العبودى بمقدار تطوره يدمر بمقادير متزايدة ابدا قوته المنتجة الاساسية .

التضاد بين العمل الجسدى والعمل الفكرى

ان التطور الواسع للعلاقات العبودية فى اليونان ، وثم فى روما ساعد على تشديد التضاد بين العمل الفكرى والعمل الجسدى ، هذا التضاد الذى كان قد نشأ فى دول الاستبداد العبودية فى افريقيا وآسيا . ولا تنحصر القضية فى ان اسياد العبيد المتحررين من ضرورة العمل الجسدى استطاعوا الانصراف الى مختلف اشكال النشاط الفكرى : الادارى ، التشريعى ، القضائى ، الفنى ، الادبى وما الى ذلك .

فان السبب الاساسى لتعميق التضاد بين العمل الجسدى والعمل الفكرى يمكن فى ذلك الازدراء لاى شكل من اشكال العمل الجسدى ، الذى نشأ بين جماهير السكان الاحرار الواسعة فى اليونان ، وثم فى روما .

وقد ادى نمو عدد العبيد الذى لم يسبق له مثيل الى الخراب التدريجى لصغار الفلاحين او الحرفيين الاحرار وجعلهم يعتبرون العمل الجسدى عملا لا يليق بالانسان الحر ولا يشرفه .

ان التضاد بين العمل الجسدى والعمل الفكرى ، الذى رأى النور فى زمن الرق قد بقى على امتداد جميع التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية التى تلته والقائمة على استثمار الانسان للانسان .

الدفاع ضد الغزوات الاجنبية

لقد تأتى غير مرة على البوليسات (الدول) اليونانية ان تحمى نفسها من الغزوات الخارجية .

فعلى تخوم القرنين السادس والخامس قبل الميلاد شكلت هجمات الفرس خطرا خاصا . فدولة الفرس العبودية الهائلة التى تمتد من الهند الى مصر كانت قد بدأت تتكون فى القرن السادس قبل الميلاد . وفى النصف الثانى من هذا القرن استولى الفرس على البوليسات اليونانية الواقعة على شواطئ البحر الابيض المتوسط فى آسيا الصغرى واقاموا هنا ولاية من ولاياتهم . وفى سنة ٥١٢ ق . م . قام الفرس بحملة نحو الشمال ، الى ارض السقيتيين انتهت بالهزيمة . فادى هذا الى سقوط هيبة الفرس فى عيون اليونان .

وفى عام ٥٠٠ ق . م . نشبت انتفاضة فى مدينة ميلات اليونانية الكبرى فى آسيا الصغرى ، ساندها سكان المدن اليونانية الاخرى فى آسيا الصغرى . وقد حالف النجاح للفترة الاولى الثوار فهزموا جيش الفرس واحتلوا عاصمة الولاية . وبما ان يونانى آسيا الصغرى كانوا يملكون قوات ضئيلة ، فقد توجهوا بطلب النجدة من سائر الدول اليونانية . ولم تستجب لهذا النداء الا اثينا وبعض مدن جزيرة اوبه التى ارسلت لنجدة يونانيى آسيا الصغرى عددا قليلا من السفن . وفى هذه الاثناء بدأ الفرس بهجوم مضاد بعد ان حشدوا جيشا جرارا وحطموا مقاومة اليونانيين اليائسة واستولوا على ميلات واحرقوها وبذلك حكموا على سكانها جميعا بالموت او العبودية . وارسل ملك الفرس داريوس رسله الى جميع الدول اليونانية طالبا «الارض والماء» (اى الخضوع) . وقد اقرّت مدن يونانية كثيرة بانها خاضعة للفرس . فقط

الاثينيون والاسبارطيون اجابوا على طلب داريوس باعدام رسله . وبعد هذا ، زحف جيش الفرس يصاحبه اسطول هائل الى اوروبا . غير ان العاصفة الحقت بالاسطول ضررا كبيرا وقفل الجيش راجعا .

بعد مرور سنتين (٤٩٠ ق . م .) دخل الفرس الى اتيك واحدق باثينا خطر جدى . لم تسرع اسبارطة الارستقراطية الى نجدة الجمهورية الديمقراطية . فقط المدينة الصغيرة بلاتيا قامت بارسال كتيبة مساعدة . وفى المعركة التى دارت رحاها عند ماراثون ، انهزم الفرس نهائيا وتركوا فى ساحة المعركة ستة آلاف قتيل .

وفى عام ٤٨٠ ق . م . استأنف الفرس العمليات الحربية . فقد زحف جيش جرار يصاحبه اسطول هائل الى شبه جزيرة البلقان . ان اكثرية البوليسات لم تجرأ على مواجهة الفرس . وفقط اثينا واسبارطة وبعض الدول اليونانية الاخرى انشات تحالفا للنضال ضد الفرس .

وعندما اقتربت قوات الفرس من مضيق ترموبيل الجبالى الذى يفتح الطريق الى اليونان الوسطى ، كان الحلفاء ما زالوا يملكون قوى ضئيلة ، بينها ٣٠٠ مقاتل اسبارطى فقط . ان الاسبارطيين وقائدهم الحربى الملك ليونيداس سقطوا جميعا صرعى فى ساحة المعركة وبهذا اتاحوا الفرصة للحلفاء لتجنب الحصار .

على الرغم من مقاومة اليونان الضارية شق الفرس طريقهم عبر مضيق ترموبيل واندفعوا الى اليونان الوسطى . وبلغت الحرب أوج حدتها . وقد نقل الاثينيون الى جزيرتى سالامين وايجينا النساء والاطفال والشيوخ والاشياء النفيسة . بعد ذلك تسنى لهم انزال الهزيمة الماحقة باسطول الفرس . وفى عام ٤٧٩ قبل الميلاد حطمت قوى اليونان الموحدة تحطيما كاملا

جيش الفرس البرى . وحل فى الحرب انعطاف جذرى لمصلحة اليونان .

اما البوليسات اليونانية التى كانت قد خضعت للفرس ، فقد خلعت النير الاجنبى وثارت . وجرت المعركة الاخيرة فى عام ٤٤٩ ق . م . اى بعد مرور اكثر من نصف قرن على بداية الانتفاضة فى ميلات . وبنتيجة الحرب اضطر الفرس الى اخلاء بر اليونان وجزرها وسواحل البحر الابيض المتوسط فى آسيا الصغرى .

لقد ناضل اليونانيون فى سبيل حريتهم واستقلالهم وهنا يكمن السبب الاساسى لانتصاراتهم . اما جيوش الفرس فكانت تتالف لدرجة ملحوظة من مقاتلين من القبائل والاقوام الخاضعة للفرس ، ولم تكن لهؤلاء مصلحة تقريبا فى انتصارات ملوك الفرس وفى حاصل الحرب النهائى .

اثناء الحرب استولت الدول اليونانية العبودية على عدد هائل من الاسرى وحولتهم الى عبيد . وهذا ادى الى اطراد تطور العلاقات العبودية فى اليونان قاطبة ، وعلى الاخص فى اثينا حيث كان تدفق العبيد كبيرا بصورة خاصة .

وقد اثر تأثيرا جديا على مصير اليونان اللاحق تقويض قوة الفرس البحرية فى البحر الابيض المتوسط وتعزيز مواقع التجارة اليونانية فى هذه المنطقة الشاسعة . ان انتصار اليونان كان احدى المقدمات لازدهار البوليسات اليونانية فى المرحلة التالية .

ازمة نظام البوليسات

ان الظاهرات التى ادت الى ازمة نظام البوليسات ، بوصفه دولة عبودية تميزت بها اليونان القديمة ، بدأت تتطور على تخوم القرنين الخامس والرابع ق . م .

ومن الاسباب الاساسية للازمة ، ان الصلات الاقتصادية خطت بعيدا خارج الحدود السياسية للبوليسات . فاقتصاد البوليسات كان يقوم على الاستثمار المتنامى لعمل العبيد . اما عمل الفلاحين والحرفيين الاحرار الذى لعب فى السابق دورا حاسما فى الاقتصاد ، فقد اخذ يفقد اهميته بشكل سريع . وازداد عدد العبيد سواء أبتوسيع الصلات التجارية ، ام بنتيجة تكرار الاصطدامات والحروب بين الدول اليونانية . وهذه الهزات السياسية الحربية المستمرة قوضت اكثر من قبل وضع الفلاحين الاحرار . وتما تمركز الارض فى ايدى اسياد العبيد . وكان الفلاحون المعدمون يزيدون صفوف الفئات الدنيا فى المدن ، وعلى الاخص الفئة المتفسخة طبقيا والمسماة بحثالة البروليتاريا . واخذت التناقضات بين الجزء المعدم من المواطنين والفئة الغنية تتفاقم آكثر فاكثر . ثم ان الوحدة السابقة للمواطنين الذين يقطنون المدينة ، مع ان هذه الوحدة كانت نسبية ، اخذت تولى الى غير رجعة . «ليست مدينة واحدة ، بل اثنتين : واحدة من الفقراء ، والاخرى من الاغنياء» ، هكذا يرثى افلاطون الحال فى احد مؤلفاته .

ان تقوض ملكية الفلاحين الحرة للارض ، وكذلك ازاحة عمل الحرفيين الاحرار تدريجيا نتيجة لانتشار العبودية قد اتسما بسلسلة من العواقب الاخرى الشديدة الوطأة بالنسبة لاقتصاد اليونان القديمة . واستخدام عمل العبيد على نطاق متسع ابدا عرقل الاتقان التكنيكى وتطور الانتاج ككل . وقد ساعد هذا فى آخر المطاف على اضعاف نظام البوليسات .

اضعف املاق الجماهير الهائلة من المواطنين القوة الحربية فى البوليس واشترط الانتشار الواسع للجنود المرتزقة . وعلى الرغم من ان بعض المدن والاتحادات كانت تتصاعد احيانا

(مثلا ، الاتحاد البيوسى الذى تراسته ثيبة) راحت اليونان بوجه عام تضعف وتميل الى الغروب .

ومن بين الاسباب السياسية لازمة نظام البوليسات ، تجدر الاشارة الى ضعف ونضوب المدن اليونانية نتيجة لحرب بيلوبونيس (٤٣١-٤٠٤ ق . م .) بين الاتحاد البيلوبونيسى الذى تترأسه اسبارطة والاتحاد البحرى الذى قادته اثينا .

انشاء الدولة العبودية المركزية

ان عهد ضعف نظام البوليسات جاء فى وقت نشوء وتطور دولة عبودية جديدة فى شمال شبه جزيرة البلقان هى الدولة المكدونية .

وهنا لم تكن التناقضات الملازمة للمجتمع العبودى قد نضجت بعد وكشفت عن نفسها بالدرجة التى ظهرت بها فى اليونان . كان الفلاحون المشاعيون الاحرار اساس القوات المكدونية . وقد تمكن الملك المكدونى فيليب الثانى ، بجمعه بين العمليات الحربية والمناورات السياسية الماهرة ، من ان يخضع عمليا المدن - الجمهوريات اليونانية التى تنخرها التناقضات . وفى المؤتمر الذى عقده فيليب عام ٣٣٧ ق . م . فى كورنتس اعلن السلم بين جميع الدول اليونانية ، وحرمت الحروب بينها واعلنت الحرب على الفرس .

على هذه الصورة وجدت اليونان (ماعدا اسبارطة) نفسها متحدة . وقد املى ضرورة التوحيد مجرى التطور باكمله ، واشترطه نمو الانتاج البضاعى وازمة نظام البوليسات . غير ان التوحيد فرض بالقوة وحققه الاجانب .

لقد كانت الجماهير الواسعة معنية موضوعيا بتوحيد الدول اليونانية وبالسلم بينها — اذ كانت تدفع غاليا مقابل الحروب والنزاعات الدائمة .

ان الشكل الذى تم به التوحيد ولّد ميولا مكشوفة معادية للمكدونيين . وفى مؤتمر كورنتس عام ٣٣٧ ق . م . أعلنت الحرب على الفرس ؛ وكان من المفترض ان توجه استياء الجماهير الشعبية وجهة اخرى وان تجلب فى آن واحد للفئة المكدونية الحاكمة ثروات الشرق الطائلة ، وتؤمن الاستيلاء على اراضى الغير ، واستعباد الجماهير الغفيرة من السكان .

وترأس الحملات ضد دولة الفرس الهائلة القائد الحربى البارز والشخصية السياسية اللامعة فى العهد القديم الاسكندر المكدونى .

فتحت قيادته استولت القوات المكدونية اليونانية فى فترة وجيزة (٣٣٤–٣٢٧ ق . م .) على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وبلاد الفينيقيين ومصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد الفرس وقسم من آسيا الوسطى وقسم من الهند .

فقط فى آسيا الوسطى ، فى اراضى الجمهوريات السوفييتية الحالية ، اعاقت مقاومة القبائل المحلية لمدة طويلة زحف جيوش الاسكندر المكدونى التى لم تعرف الهزيمة .

ان نجاحات الجيوش المكدونية اليونانية لا تفسّر فقط بالتفوق العسكرى وعبقرية القائد ، وانما ايضا بعدد من الاسباب الاخرى . واهم هذه الاسباب هو استياء جملة من القبائل والشعوب من سيطرة الفرس ، وعدم رغبتها فى القتال من اجل مصالح زعماء الفرس . بل ان هذه القبائل والشعوب غالبا ما كانت تساعد جيش الاسكندر المكدونى . ناهيك بان الاريستقراطية

المحلية ، سعيا منها الى المحافظة على سيطرتها الطبقية ، كانت تتآمر مع الفاتحين قصدا وعمدا .

وقد جعل الاسكندر المكدوني مدينة بابل عاصمة لدولته الهائلة التي لم يسبق لاتساعها مثيل قبل ذاك .

تشابك نظام البوليسات ونظام دول الاستبداد الشرقية . الدول الهيلينية المكدونية اليونانية

لقد حمل المكدونيون اليونانيون معهم الى بلدان آسيا وافريقيا الشمالية منجزات الحضارة اليونانية ؛ وقد تعرضوا بدورهم للتأثير الشديد من جانب شعوب الشرق .

ان التماس بين العالمين اليوناني والشرقي ، الذي كان قد اقيم في الالف الثاني ق . م . ، قد انتشر وشمل مختلف الميادين : الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والايديولوجي ، الخ . . وهذا التأثير المتبادل والتشابك المتبادل والاغتناء المتبادل لمختلف جوانب العالم اليوناني والممالك القديمة في آسيا وافريقيا هو الذي حدد جوهر مفهوم الهيلينية . والمقصود عادة بهذا الاصطلاح ، عصر فتوحات الاسكندر المكدوني والحقبة التي تلته من تطور الدول الهيلينية الى ان فتحها الرومان .

وحمل المكدونيون اليونانيون معهم نظام البوليسات فانتشر في الشرق بنجاح . ولكن البوليس هنا لم يعد جمهورية عبودية مستقلة . فقد تحول الى مدينة تخضع لاشراف الملك ، على الرغم من انها كانت تحوز على عدة امتيازات . وفضلا عن ذلك ، انتشر نظام البوليسات على مساحة صغيرة نسبيا من اراضي العالم الهيليني . وفي القسم الاكبر من الاراضي المسماة «خورا» كانت تسود نظم الاستبداد العبودي . وكانت «الخورا» تشتمل على الاماكن الريفية والمدن التي لا تتمتع بامتيازات . ونفس

الشيء بالضبط جرى في الدول التي افتتحها الاسكندر المكدوني ؟ فقد تشابكت الاشكال اليونانية القديمة لامتلاك العبيد مع اشكاله البدائية القائمة في بلدان آسيا . اما الحرفيون المكدونيون اليونانيون الذين أتوا في اثر الفاتحين فلم يجلبوا معهم التجربة والمهارة وحسب ، بل اغنوا ما لديهم من تجارب ومهارة بتعرفهم على مهارة زملائهم الشرقيين . ورافق تطور الحرفة نمو سريع في التبادل والتجارة . وفي نتيجة الاختلاط الواسع بين المكدونيين اليونانيين وشعوب آسيا وافريقيا والاندماج التدريجي بين الاريستقراطية المحلية والغرباء ، أخذ يفقد اصطلاح «هيليني» معناه السلالي ، الجنسي ويكتسب معنى طبقيا . وراحوا يسمون هيلينيا كل اريستقراطي بصرف النظر عن قوميته .

كان يبدو ان الامبراطورية الهائلة دولة وطيدة . غير ان التناقضات بين العبيد ومالكي العبيد ، بين الفاتحين والخاضعين ، بين البوليسات و «الخورا» ، بين مختلف فئات اسياد العبيد ، والرئيسي ، انعدام الوحدة الاقتصادية ، كل هذا جعل من المستحيل بقاء امبراطورية الاسكندر العالمية زمنا طويلا .

في صيف ٣٢٣ ق . م . مات القائد العظيم قبل ان يتمكن من تعيين خلف له . فانقسمت دولته الهائلة الى كثرة من الدول المستقلة ، الكبيرة والصغيرة ، وفي هذه الدول بقيت التناقضات المذكورة اعلاه وشرعت تتزايد حدة .

٢ ـ الايديولوجية والثقافة

مع تكّون وتطور العلاقات العبودية في اليونان القديمة ، كانت تتكون ايديولوجية المجتمع اليوناني القديم . وكانت هذه ايديولوجية اسياد العبيد الساعين بمعونة النظرات الدينية والفلسفية الى تعزيز سيطرتهم . وفي الصراع بين مختلف المفاهيم

الفلسفية انعكست التصادمات الاجتماعية والسياسية الدائرة داخل طبقة اسياد العبيد المسيطرة .

وقد لعبت منجزات الشعب اليونانى الخلاقة فى العصر القديم دورا هائلا فى تطور الثقافة الانسانية العامة ، وعلى الاخص فى تطور الثقافة الاوروبية .

الثقافة الكريتية-الميسينية او الايجية

ان مصادر الثروة الثقافية فى اليونان القديمة ترجع الى ثقافة المجتمعات العبودية المبكرة التى وجدت فى الالف الثالث والثانى ق . م . فى كريت وفى بر اليونان (ميسين) وعلى جزر بحر ايجه وفى غربى آسيا الصغرى (طروادة) . ان منجزات ما يسمى بالثقافة «الكريتية – الميسينية» او الايجية قد استوعبتها الاجيال التالية واعادت صياغتها بصورة خلاقة . وفى الالف الثانى ق . م . نشأت هنا اولى نماذج الكتابة اليونانية القديمة . وبالثقافة الايجية ترتبط ولادة فن المعمار والفنون الجميلة فى العالم القديم (الفخار المتعدد الالوان ، التصوير على الحائط ، الخ .) . كذلك تجدر الاشارة نفسها فيما يخص الموسيقى والشعر . وتروى لنا حفريات الآثار عن مبانى الكريتيين القدماء ، واهالى ميسين وطروادة ، وعن القصور الرائعة والحصون المنيعة ، وعن الطرق ومنشآت الرى الكبيرة . وهنا وجدت ايضا اسلحة مصفحة نفيسة وآنية وحلى من الذهب والفضة .

ثقافة مجتمع هوميروس

ان ملحمتى هوميروس «الالياذة» و «الاوذيسة» هما مكسب ثقافى رائع لليونان القديمة . قام هوميروس ، الشاعر

العبقرى فى العهد القديم فجمع الاغانى التى ابدعها قبله الرجالة الشعبيون واعاد صياغتها بصورة خلاقة . واشعار هوميروس هى آثار تذكارية للمجتمع اليونانى الذى ظهر من القرن الحادى عشر الى الثامن ق . م . على انقاض الدول العبودية المبكرة التى نشأت فى حوض بحر ايجه . وقد انقرضت هذه الدول نتيجة لزحف القبائل التى كانت ما تزال فى مرحلة النظام المشاعى البدائى . وعلى صفحات ملحمتى هوميروس انعكست حياة المجتمع اليونانى الجديد الذى لم تكن فيه دولة فى اول عهده . فى البدء انتشرت هاتان الملحمتان شفهيا ولم تكتبا الا فى القرن السادس ق . م . فى اثينا . وسمى المجتمع اليونانى فى القرن الثالث عشر والثانى عشر والحادى عشر ق . م . مجتمع هوميروس . ان عبقرية هوميروس الفنية ، حسب التعبير المجازى الذى اطلقه الناقد الادبى فى القرن الماضى الاديب الروسى المشهور بيلينسكى ، كانت فرن الصهر الذى كانت تخرج منه ذهبا صافيا الفلزة الفظة للاساطير الشعبية والاغانى والمقتطفات الشعرية .

الاساطير اليونانية

فى اشعار هوميروس وغيرها من الآثار الشعرية فى اليونان القديمة تتشابك المواد الواقعية التى تعكس الواقع التاريخى الملموس تشابكا وثيقا مع القصص الاسطورية . فان الاساطير اليونانية قد مدت جذورها الى الاشكال القديمة للتصورات الدينية عند سكان حوض ايجه فى عصر النظام المشاعى البدائى . ولكن الاساطير اليونانية ليست الوريث الوحيد لهذه التصورات . فقد انعكست النظرات الدينية عند السكان القدماء فى الفولكلور (الاغانى والقصص والاشعار الشعبية وما اليها) ،

وفيما بعد فى الآداب والفنون اليونانية القديمة . وفى اثر الديانة القديمة كانت الاساطير تعكس تصورات الناس البدائيين عن الطبيعة المحيطة بهم وحياة الانسان بشكل خيالى . وهذا الطابع بالذات تحمله التصورات الاسطورية عن اهمية الماء والهواء والنار والارض . ومع تطور الاساطير كان يزداد محتواها الدينى . وبدأت تتكون الديانة الاولمبية عند اليونانيين القدماء .

الدين الاولمبى الاسطورى

على ابواب القرن السادس ق . م . تقريبا تكونت معتقدات دينية متشابهة بهذا القدر او ذاك في جميع المناطق الماهولة باليونانيين . واخذت هذه المعتقدات شكل الديانة الاولمبية التى سميت تبعا لاسم جبل اولمبس الذى كانت تسكنه اسرة الآلهة برئاسة زفز ، حسب تصورات اليونانيين القدماء الدينية . ولم يكن الدين الاولمبى مرتبطا باية هيئة كنسية ، باى نظام للعقائد والطقوس . ثم ان معابد مختلف الآلهة لم تؤلف نظاما واحدا متناسقا على الرغم من انها لعبت دورا كبيرا فى الحياة الدينية ، ولم تكن هناك ايضا فئة خاصة من خدام الدين-الكهنة . فقد كان يقوم بدورهم فى حالات الضرورة اشخاص مسؤولون منتخبون فى الجمعية الشعبية .

ان تصور الآلهة بصورة انسان فى الديانة الاولمبية ، قد ساعد على تغلغلها فى صلب الجماهير الشعبية وزاد نفوذها على الشغيلة . وبالتدريج تحولت عبادة الآلهة الاولمبيين الى ديانة رسمية للبوليسات اليونانية . وكان الدين الاولمبى يقدس الاضطهاد الطبقى الذى كان يتعرض له العبيد والكادحون الفقراء . ولكن الجماهير الشعبية المستاءة لحرمانها من الحقوق كانت غالبا ما

تعارض الدين الرسمى بعبادة آلهتها الخاصة ـ حماتها . هكذا كانت مثلا عبادة ديونيزوس وهو الحامى الالهى للزراعة وكانت تقام الاعياد الشعبية تمجيدا له . ان هذا التفكير المغاير الاصيل الذى يعارض العبادة الرسمية يمكن اعتباره الصورة المسبقة للهرطقات الدينية فيما بعد .

ازدهار الثقافة فى القرن الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد

ان نجاحات التطور الاقتصادى فى اليونان فى القرن الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد قد رافقها ازدهار حياتها الثقافية .

ففى القرن الثامن ق . م . ظهرت حروف الهجاء اليونانية ، القائمة على استخدام الرموز الفينيقية . ودخل الابداع الادبى مرحلة جديدة من تطوره . فالى جانب «الالياذة» و«الاوذيسة» كتب ما يسمى ب«القصائد الكيكية» و«اناشيد هوميروس» . كانت هذه المؤلفات ما تزال مرتبطة بالاساطير ؛ اما قصيدة الشاعر اليونانى اللامع هيسيود «الاعمال والايام» فانها تصف الحياة اليومية الدارجة فى المجتمع اليونانى . فالمؤلف ينظر الى الظاهرات التى يصفها من وجهة نظر مزارع بسيط يضطهده الاغنياء والاقوياء .

كذلك اخذت تظهر اولى المؤلفات الادبية النثرية . فى البداية كان لها شكل قصص شفهية ، ثم صارت تكتب تدريجيا . وعلى نطاق واسع انتشرت الحكايات الشعبية التى كان ابطالها عادة من الحيوانات . ومن كتبة القصص فى هذا العصر صاحب الشهرة العالمية ايزوب الذى كان عبدا .

وكانت القرون الثامن والسابع والسادس ق . م . مرحلة هامة فى تطور الفن ، ولا سيما فن المعمار . فقد حلت المعابد الحجرية محل المعابد الخشبية التى كانت تميز العهد الماضى . وبدأت تتكون

الهندسات المعمارية من الطراز الاغريقى والايونى . وانتصر فى الفنون الجميلة المبدأ الواقعى . وازداد اتقانا فن النحت والرسم على الاوانى .

بدء الدراسة العلمية للطبيعة

كان بدء الدراسة العلمية للطبيعة مرتبطا بازدهار الحياة الثقافية . ولم تكن المعارف العلمية الناشئة قد انفصلت عن بعضها بعضا . ولم تكن ثمة اية علوم متخصصة . فموضوع الدراسة عند علماء الطبيعة ، الفلاسفة القدماء فى اليونان ، شمل فى آن واحد جميع ميادين الحياة من علم الفلك الى الطب . وفى الوقت نفسه كانت محاولات الدراسة العلمية للطبيعة مظهرا للنظرة المادية الى الطبيعة . ونشأ تصور مفاده أنه ليس الانسان هو الذى خلقته قوى آلهية ، بل الآلهة هى التى خلقها تخيل الانسان . ان المراقبات العملية لظاهرات الطبيعة قد ساعدت على تكوّن النظرات المادية .

المدرسة المادية الايونية

ان التطور العاصف الذى عرفته المدن الواقعة على ساحل آسيا الصغرى الايونى ولا سيما ميلات وافسس وفوقيا قد افضى الى ازدهار الحياة الثقافية فيها . وهنا بالذات ظهرت اولى مدارس الفلاسفة اليونانيين الذين جاؤوا بالافكار المادية (ما يسمى بالفلسفة الطبيعية الايونية) . فلم يعترف الفلاسفة الايونيون الاّ بالاساس المادى للعالم المحيط ، هذا الاساس الذى يتجلّى بتنوع لا نهاية له . اى انهم كانوا المعبّرين عن المادية الاولية العفوية . وابرز هؤلاء هم الفلاسفة تاليس وانكسيمندر وانكسيمنس (نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس ق . م .) .

كان ممثلو الفلسفة الطبيعية الايونية يملكون معارف واسعة فى علم الطبيعيات تؤلف مع الفلسفة كلا لا يتجزأ . ولكن وجهات نظرهم كانت ما تزال واقعة تحت تأثير الاساطير .

فى نهاية القرن السادس ق . م . تطورت الفلسفة المادية الايونية تطورا لاحقا فى تعاليم هيراكليت من آفسس . فقد اعتبر هيراكليت ان النار هى اساس كل ما هو موجود على الارض . وتقدم لاول مرة فى تاريخ البشرية بافكار الحركة العامة وصراع ووحدة الاضداد : «يستحيل دخول النهر ذاته مرتين» ، «الشيء نفسه فينا ـ الحى والميت ، المستيقظ والنائم ، الفتى والشائخ» ، «المتخاصم يتحد ، والمتنافر يؤدى الى اروع وئام ، وكل شيء يجرى عبر الصراع » . ومع ان هيراكليت قد افصح عن تخميناته العبقرية الا انه لم يفهم ان الصراع يحمل طابعا مطلقا ، وان وحدة الاضداد لا تتسم الا بطابع نسبى . وتجلّت فى نظرية هيراكليت العناصر الاولية للمادية الدياليكتيكية . وهيراكليت هو اول من قام بمحاولة لحل المسالة المتعلقة بطابع المعرفة البشرية . واعتبر الطبيعة موضوع هذه المعرفة .

تكوّن الاتجاه المثالى فى الفلسفة

ان بعض الفلاسفة المنشغلين فى الرياضيات ، اى العلم الذى يتطلب درجة عالية من التفكير المجرد ، اصبحوا ممثلين للاتجاه المثالى . فقد استخدموا الرياضيات من اجل تكوين مختلف انواع المفاهيم المثالية ؛ فصاغوا مثلا نظرية معينة لسحر الاعداد . وكان فيثاغورس واتباعه (القرن السادس ق . م .) اوائل هؤلاء الفلاسفة المثاليين . فقد اضفوا على الارقام والمفاهيم الرياضية طابعا صوفيا . وطبقا لوجهات نظرهم ، مثلا ، يعبّر العدد واحد

عن الشر والعدد اثنين عن الخير ، واعتبر العدد عشرة كاملا ، الخ ..

ان ممثلى المدرسة المثالية التى ظهرت فى المستعمرة اليونانية مدينة ايليا ، فى جنوب ايطاليا ، سعوا للبرهنة على سكون كل ما يوجد فى العالم .

الصراع بين الخطين المادى والمثالى فى الفلسفة

لقد سار تطور الخط المادي فى الفلسفة عبر الصراع العنيف ضد الاتجاه المثالى الديني . وسعى الفلاسفة الماديون الى استخدام ذلك الجانب من القصص الاسطورية الذى ارتبط بمشاهدات الناس البدائيين لما يدور فى الطبيعة ، وقامت استنتاجاتهم كذلك على المعارف العلمية التى كدستها شعوب آسيا وشمال افريقيا .

اما الفلاسفة المثاليون فاستندوا الى الجانب الدينى اللاهوتى فى الاساطير اليونانية . واخذوا عن شعوب آسيا وافريقيا مختلف المذاهب الدينية .

فى هذه الحقبة التى نحن بصددها ولد الصراع بين الاتجاهين الفلسفيين الذى دار طيلة كل تاريخ اليونان القديمة والهيلينية . ويختفى وراء هذا الصراع الايديولوجى صراع مختلف الفئات الاجتماعية والسياسية . وكان هذا الصراع يكتسب فى مجرى تطور المجتمع اليونانى طابعا متزايدا ابدا فى تنوعه .

بدء عملية انقسام العلوم . ازدهار الثقافة

لقد ساعد نهوض الحياة الاقتصادية والسياسية فى اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد على تطوير مختلف ميادين الثقافة . كذلك لم يتمكن احتدام التناقضات الداخلية فى المجتمع اليونانى

فى القرن الرابع من اعاقة هذا النهوض . وفى هذا الوقت بالذات اخذت تتطور الرياضيات وعلم الفلك والطب .

وجاء الرياضيون القدماء بعدة احكام تتسم باهمية كبيرة عملية ونظرية على حد سواء . منها الافكار القائلة بالكميات المتناهية الصغر ، وكذلك نظرية اودكسوس بصدد علاقة الكميات غير المتناسبة . ان هذه النظرية هى السلف الاصيل للنظرية الحديثة عن الكميات الصم .

وظهرت جملة من الفرضيات العلمية فى مجال علم الفلك ، وخصوصا الفرضيات المتضمنة تصورات عن كروية الارض والاجرام السماوية الاخرى . وانشأ ميتون التقويم الشمسي وحدد فيه مقدار السنة بـ ٣٦٥ يوما و ١٩\٥ من اليوم . وقد اعترف بهذا التقويم لغاية العمل بتقويم يوليوس قيصر فى روما القديمة .

وقام بقراط (هيبوقراط) بعدة دراسات عملية فى ميدان الطب عرضها فى سلسلة من الكتب . ووضع نظريته عن امزجة الانسان الاربعة .

ان بعض كتاب هذه الحقبة ، مثلا هيرودوتس وفوكيديد ، قد كرسوا مؤلفاتهم للاحداث التاريخية الماضية والحاضرة .

وفى القرنين الخامس والرابع ق . م . بلغت الآداب والفنون الجميلة فى اليونان مستوى رفيعا من التطور . وكانت الاعياد الدينية القديمة عند اليونان حافزا لظهور التمثيليات المسرحية . ان بعض كبار ممثلى الثقافة اليونانية فى ذلك الوقت ، كتبة المآسى اسخيلوس وسوفوكليس واوريبيدس ، وكاتب الهزليات ارستوفانس قد اثروا تأثيرا هائلا على مجمل تطور الثقافة العالمية لاحقا .

وفى هذه الحقبة ايضا ابدع مشاهير فن النحت ميرون وفيدياس وبوليكتيت ، وفيما بعد براكسيتل . وبقيت الى وقتنا هذا آثار رائعة من فن المعمار اليونانى القديم .

واحب اليونان القدماء الموسيقى حبا كبيرا . فقد كانت لديهم مجموعة من الآلات الوترية والمزمارية والطبول .

اشتداد الصراع بين المادية والمثالية . خط ديموكريتس

لقد ازداد الصراع بين الفلاسفة الماديين والمثاليين تفاقما . وكان هذا الصراع صراعا بين ممثلى اتجاهين ، معسكرين فى الحياة السياسية فى اليونان العبودية . فان الفلاسفة الماديين كانوا ايديولوجيى المجتمع العبودى فى شكله الديموقراطى ، اى الدولة الديموقراطية من طراز اثينا . اما المثاليون فكانوا المدافعين عن دولة حكم القلة من طراز اسبارطة .

وقد سعى الفلاسفة الماديون الى ايجاد جواب على الاسئلة التى تطرحها الحياة . واحدى هذه المسائل كانت مشكلة تركيب المادة . وقد حاول حلها علماء طبيعيات بارزون فى العهد القديم مثل انكساغوراس (حوالى ٥٠٠–٤٢٨ ق . م .) ، امبيذكلس (٤٨٣–٤٢٣ ق . م .) ، ديموكريتس (حوالى ٤٦٠–٣٧٠ ق . م .). واعتبر انكساغوراس ان اساس كل ما هو موجود هو الجسيمات المادية التى سماها «هوميومورينات» («الاجزاء المتشابهة») – «بذور» كل الاشياء .

وكان امبيذكلس يرى ان العالم كله بمثابة تنسيق للعناصر المادية الاربعة («الاصول») : الارض والهواء والماء والنار . وهذه الاصول تنقسم الى ما لا نهاية . وتحركها القوتان الماديتان – الحب والعداء . وطريفة هى فكرة امبيذكلس القائلة بنشوء العالم العضوى من «الاصول» . ان تطورها اللاحق كان مرتبطا لدرجة ما بفكرة بقاء الأصلح .

وطور ديموكريتس فكرة عدم انقسام جسيمات المادة ،

اى الذرات ، التى جاء بها لاول مرة احد اسلافه وهو ليفكيب . فان هذه النظرية تقول ان الذرات التى تكوّن جميع الظواهر الطبيعية هى عناصر متجانسة كيفيا ولا تختلف الا من حيث الكم ومن حيث وضعها فى المكان ونظام مركباتها . واعتبر ديموكريتس اساسا لكل الظاهرات الضرورة المرتبطة بالحركة التى هى أهم خاصية للمادة . وطور ديموكريتس افكار لانهائية وابدية المادة : «لا يمكن ان ينشأ شىء من لا شىء ، وما من شىء يمكن ان يتحول الى لا شىء» . وقد حاول ان يشرح ماديا منشأ العالم العضوى . وبيّن الطابع المادى «للنفس» البشرية التى يسرى عليها الموت كما على الجسد .

ان الاتجاه المادى الذى كان ديموكريتس اسطع ممثل له فى القرنين الخامس والرابع ق . م . كان يزداد قوة اكثر فاكثر . وقد تكوّن اتجاه خط ديموكريتس فى النضال ضد النظريات المثالية .

الحاد الفلاسفة الماديين

مع تطور الفلسفة المادية ، تطورت ايضا النظرة الالحادية الى العالم . واساسها السياسى كان ازدهار الديموقراطية العبودية .

ان الفلاسفة الماديين ، بتاكيدهم المبدأ المادى ، لم يتركوا مكانا «للعقل الالهى» . فقد كتب هيراكليت عن العالم المحيط ، عن الكون ، يقول : «هذا النظام العالمى ، شىء واحد للجميع ، لم يخلقه احد من الآلهة ، ولا من الناس ، ولكنه كان دائما ، ولا يزال وسيكون نارا حية ابدية ، تلتهب بمقادير وتنطفىء بمقادير» .

واعتبر الفلاسفة الماديون النفس ظاهرة مادية . واقاموا فى مجال الظاهرات الاجتماعية العقل البشرى فى مقام ارادة الآلهة .

تطور الاتجاهات المثالية . خط افلاطون

لقد سعى ممثلو الاتجاه المثالي بكل الاساليب الى اضعاف نفوذ الفلاسفة الماديين . وكانت اثينا المسرح الاساسى لهذا الصراع .

كانت التصورات المثالية تميّز بصورة بالغة وجهات نظر من يسمونهم بالسفسطائيين ، «معلمي الحكمة» ، رغم انه بقيت لديهم وجهات النظر المادية والالحادية . فان احد السفسطائيين البارزين ، وهو غورغي (حوالى ٤٨٣-٣٧٦ ق . م .) من جزيرة صقلية ، قد انكر امكانية معرفة العالم وبوجه عام وجود حقيقة موضوعية . وانكر سفسطائيون كثيرون صلة المذاهب الفلسفية بالحياة وبذلك حولوا الفلسفة الى لعبة خطابية لا اول لها ولا آخر . كان سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق . م .) هو الذى وضع المبدأ المثالي للسفسطائيين اذ اعلن ان مصدر المعرفة هو «الأنا» الداخلي للانسان . فقد كتب قائلا : «اعرف نفسك» . وناهض سقراط التفسير المادى لظاهرات الطبيعة والحياة الاجتماعية . وبلغ الاتجاه المثالي ذروته في نظرية تلميذ سقراط ، افلاطون (حوالى ٤٢٩ - ٣٤٧ ق . م .) ، الامر الذى يسمح بالقول بـ«خط افلاطون» المجابه لـ«خط ديموكريتس» . فقد اعتبر افلاطون العالم المادى الحسى مجرد «ظل العالم الواقعى» ، انعكاس «الافكار العامة» والمفاهيم والظاهرات والمواد . ويستطيع الانسان معرفة هذه الافكار العامة بواسطة ذكريات «نفسه الخالدة» . لقد كان هذا مظهرا ساطعا للمثالية الموضوعية .

وكانت الافكار الصوفية قوية جدا في آراء افلاطون .

احتلت آراء ارسطو ، المفكر العظيم فى العهد القديم (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م .) ، مركز الوسط بين نظرات ديموكريتس وافلاطون . فقد عالج ارسطو بصورة انتقادية مذهب افلاطون بصدد عالم الافكار ما فوق الحسي . واعترف بوجود العالم الموضوعى خارجنا واعتبر بالتالى ان الانطباعات الحسية هى مصدر التصور الصحيح عنه . وهذه كانت الفكرة الرئيسية فى آراء ارسطو الفلسفية وهى تشهد على اقترابها من المادية . ويرى ارسطو ان «الافكار» الافلاطونية عاجزة عن تفسير سبب نشوء الظاهرات والمواد المحسوسة وسبب تغيرها على السواء .

غير ان ارسطو بقى على مواقف مثالية فى حله مسألة العلاقة بين الوجود (المشاعر الحسية) والتفكير . فقد نسب الدور الحاسم فى عملية المعرفة الى النفس العاقلة المستقلة عن الجسد المادى . والمادة فى نظره سلبية وبدون شكل وتحركها قوة نشيطة . واعتبر ان نقطة انطلاق هذه القوة وفى الوقت نفسه الهدف النهائى للتطور العام هى «شكل جميع الاشكال» ، اى الله .

كان ارسطو عالما مرموقا فى زمنه . فقد كتب عدداً كبيرا من المؤلفات فى علم الطبيعيات ، وعلى الاخص فى علم الحيوان والتاريخ والادب والمنطق ونظرية الادب . ولكتابات ارسطو المكرسة للمشاكل السياسية اهمية كبيرة . فهو الذى ادخل فى الاستعمال لاول مرة اصطلاح «السياسة» نفسه فى كتاب «البوليتيا الاثينية» وهو عرض اصيل للنظام السياسى فى مختلف الدول .

الايديولوجية والثقافة الهيلينية

لقد استوعبت ثقافة العالم الهيلينى خيرة ما نشأ فى اليونان القديمة . وفى كل منطقة من المناطق الشاسعة التى تكونت فيها الدول الهيلينية اجتمعت الثقافة اليونانية والمحلية ، واندمجت

مختلف الاتجاهات فى ميادين العلم والفن والادب . وساعد تطور الانتاج على تطور العلوم الطبيعية . ففى تلك الحقبة بالذات نشأت الدراسة الدقيقة للطبيعة .

واخذت مختلف الفروع للمعرفة العلمية تنفصل نهائيا عن الفلسفة وتتطور بصورة عاصفة . ومع ذلك ، حقق بعض المفكرين منجزات كبرى دفعة واحدة فى ميادين كثيرة من العلم .

وانشغل ايراتوستين (٢٧٦ ـ ١٩٣ ق . م .) بالرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والتاريخ وكثيرا جدا بالجغرافيا . فهو اول من حسب طول محيط الكرة الارضية محددا اياه بـ ٣٩٧٠٠ كيلومتر (وهو يبلغ فى الواقع زهاء ٤٠ الف كيلومتر) . لقد كان حساب ايراتوستين فى منتهى الدقة بالنسبة لذلك الوقت البعيد .

فى بداية القرن الثالث ق . م . ظهرت «الاصول» الهندسية المشهورة التى وضعها اقليدس .

وفى صقلية عاش عالم الرياضيات والميكانيك ارخميدس (حوالى ٢٨٥ ـ ٢١٢ ق. م .) . واليه يعود اكتشاف القانون الاساسى فى علم توازن السوائل («قانون ارخميدس») ، وتحسين آلات رى الحقول («لولب ارخميدس») واختراعات تكنيكية اخرى .

ووضع اريسطارك (القرن الثالث ق . م .) فى علم الفلك نظرية مفادها ان الاجرام السماوية تدور حول الشمس وقد عرفت باسم النظام الشمسى المركزى .

وفى الاسكندرية وضعت دراسة انتقادية لنصوص شعر هوميروس بداية علم اللغة والادب .

وظهرت اول المؤلفات الادبية الطوباوية عن الحياة السعيدة المثلى . مثلا ، كتب يامبول كتابا بعنوان «دولة الشمس» .

فى هذه الاثناء استمر الصراع بين الفلسفتين المادية والمثالية . لقد كانت فى آراء الرواقيين عناصر مادية ، الا ان نظراتهم ككل تميزت باقرار مبدأ العقل فى تركيب الكون . وهذا العقل يشترط حتمية الظاهرات فى العالم ، الذى هو بمثابة كل حى . وقاوم الرواقيون وغيرهم من المدافعين عن المثالية والدين مقاومة حازمة انتشار الآراء المادية العلمية . واعتبر المادى ابيقور (حوالى ٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م .) الانسان جزءا من الطبيعة المحيطة .

وفى رأى ابيقور ، شأنه شأن ديموكريتس ، ان اساس كل ما هو موجود هو الجسيمات المادية التى لا تنقسم ، اى الذرات ، والفراغ الذى تقوم فيه بحركتها الميكانيكية . واعتبر ابيقور جميع ظاهرات الطبيعة تناسقات مختلفة للذرات . الا انه افترض ، خلافا لديموكريتس ، بانها تختلف ليس فقط من حيث الحجم والشكل ، وانما من حيث الوزن ايضا . واتسمت باهمية كبرى فى ارساء المعرفة المادية فكرة ابيقور القائلة بالانحراف الداخلى المشترط للذرات باتجاه الجوانب بالاضافة الى حركتها المستقيمة من جراء الثقل . وكتب ابيقور ان العالم المادى الموجود خارج وعى الانسان هو ابدى وغير محدود وان الناس يعرفون العالم بواسطة احساساتهم . وهاجم ابيقور جهارا الديانة القديمة . وقد لعبت افكاره دورا كبيرا فى تطور الالحاد لاحقا .

الفصل الرابع

السمات الاساسية لنظام الرق في روما القديمة

خلافا للدول القديمة فى آسيا وشمال افريقيا ، وكذلك فى اليونان القديمة ، كانت دولة روما القديمة بالذات ذلك المجتمع العبودى الذى اصبح العبيد فيه المنتجين الاساسيين للخيرات المادية . وقد أدى هذا الى أعنف اشكال الصراع بين العبيد ومالكى العبيد .

ان تاريخ روما القديمة يمكّننا من توضيح التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى جرت فى المجتمع العبودى فى الشكل الاكثر نموذجية .

١ ـ تكوّن مجتمع الرق ودولة الرق

مجتمع روما المبكر («عهد القياصرة»)

ان التطور السريع الذى عرفته العلاقات العبودية فى روما فى المرحلة المبكرة يفسَّر لدرجة ملحوظة بتأثير المجتمعات الاخرى الاكثر تطورا . فقد قامت فى اراضى ايطاليا مستعمرات للفينيقيين (فى صقلية) واليونان ، كان يسيطر فيها النظام العبودى . وتطور

٩٠

فى شمال شبه جزيرة ابنينو المجتمع العبودى الايتروسكى الذى بلغ ازدهاره فى القرن السادس ق . م . وانهار فيما بعد .

كان هناك الكثير المشترك فى عملية نشوء دولة الرق فى روما القديمة واليونان القديمة . ففى هذا العصر كان الرومان كذلك متحدين فى عشائر (تروى الاسطورة ان عددها كان ٣٠٠) ، وكوريات (تضم الواحدة منها عشر عشائر) وتريبات (قبائل) . وهذه القبائل كانت متحدة فى اتحاد يؤلف ما عرف بـ«الشعب الرومانى» . وكان يرأس اتحاد القبائل «قيصر» (زعيم الاتحاد) ، يجرى انتخابه فى الكوميسيات (الجمعيات الشعبية) . وشيئا فشيئا تحول مجلس الكبار الى مجلس الشيوخ الذى كان يمارس سوية مع «القيصر» السلطة العليا . ان الكبار والأسر التى كانوا ينتسبون اليها بالذات كانوا يؤلفون نواة اريستقراطية روما العشائرية – الباتريسيين (الاشراف) .

ان قسما كبيرا من السكان بقى خارج هذا الاتحاد القبلى العشائرى . وكان هؤلاء «البليبى» (الشعب) ، اى الاسرى السابقين وسكان المناطق التى اخضعتها روما ، وكذلك النازحين طوعا . انهم كانوا احرارا شخصيا ، ولكنهم كانوا لا يتمتعون باية حقوق سياسية . وبالتدريج اندمج البليبيون مع العشائر المعدمة غير الاريستقراطية .

وفى مجتمع روما كان ايضا عدد قليل من العبيد . غير ان العبودية كانت ما تزال تحمل طابعا ابويا (بطريركيا) . وكانت التناقضات الطبقية لا تزال بعد فى بداية نشوئها .

نضال الشعب ضد اريستقراطية العشائر

لقد خاض البليبيون ، الذين تسندهم الفئات المعدمة من المواطنين الكاملى الحقوق ، نضالا ضاريا ضد اريستقراطية العشائر .

وبالنتيجة ادى هذا النضال ، المرتبط ارتباطا وثيقا باشتداد التفاوت في التملك ، الى هلاك التنظيم العشائرى . وحلت تقسيمات اقليمية محل التقسيمات العشائرية القبلية . وصار يدخل في عداد المشاعية المدنية جميع الذين يملكون الارض بغض النظر عما اذا كانوا ينتسبون في السابق الى الباتريسيين ام الى البليبيين . واصبح مبدأ التملك المبدأ الاساسي لتقسيم المجتمع .

ان الاصلاح الذى اجراه ، كما تقول الاسطورة ، «قيصر» روما قبل الاخير سرفيوس توليوس في القرن السادس ق . م . كان مرحلة هامة في التنظيم الجديد لمشاعية روما . وطبقا لهذا الاصلاح جرى تقسيم جميع سكان روما الى بضع فئات («طبقات») تبعا لما يملكون . فقد كان المواطنون من اغنى الطبقات يقدمون عددا اكبر من الوحدات العسكرية (سينتوريات) وكان المواطنون من الطبقات الاقل يسرا ، يقدمون عددا اقل من السينتوريات ، رغم انهم كانوا من الطبقات الاكثر عددا . اما الفئة الواسعة العديدة من الناس الذين لا يملكون شيئا على الاطلاق ، والذين اسميوا بالبروليتاريين (بروليس في اللاتينية تعنى ذرية) ، اى الاشخاص الذين لا يملكون سوى الذرية ، فلم يكونوا يقدمون الا سينتوريا واحدة .

ان هذا النظام لتقسيم المجتمع اتسم بمعنى سياسى كبير . فكان المواطنون اذ يجتمعون في الجمعية الشعبية ، يصوتون حسب السينتوريات ، وكان عدد اصوات كل طبقة يساوى عدد السينتوريات التى تقدمها .

وعلى هذا النحو كانت مقادير الثروة المتمركزة في يدى المالك هى التى تحدد مكانه ووزنه واهميته في المجتمع . ونتيجة للاصلاح المذكور اخذت الفئة العليا من البليبيين تندمج مع

الباتريسيين . أما الفئات الدنيا من البليبيين فكانت تصاب بالخراب اكثر فاكثر . ولم يغير وضعهم كذلك سقوط السلطة القيصرية فى عام ٥٠٩ ق . م . وقيام الجمهورية .

العهد الجمهورى المبكر

ان تطور الحياة الاقتصادية فى مجتمع روما ، المرتبط بانفصال الحرفة عن الزراعة ونمو التبادل ، قد ادى الى اتساع دور عمل العبيد تدريجيا . وقد ادى هذا الى توطيد الدولة لاحقا بوصفها الجهاز الطبقى لسيطرة مالكى العبيد والفئات الغنية .

كان مجلس الشيوخ الهيئة العليا لجمهورية روما . وقد استعيض عن سلطة القيصر بسلطة رئيسين سميا فى البداية حاكمين وثم قنصلين . وكان هذان يترأسان مجلس الشيوخ ويقودان القوات المسلحة . وتدريجيا ظهر رؤساء من درجة ادنى – الكيستور والايديل – وكانت وظيفتهم الاشراف على الخزينة والشؤون الاجتماعية . وهذه الوظائف كانت بدون راتب ولذا كان لا يشغلها ، كقاعدة ، الا ممثلو الفئة الغنية . اما اشغال وظائف الرئاسة العليا ، وكذلك حق عضوية مجلس الشيوخ فكانا امتيازا للباتريسيين .

لم يهدأ الصراع بين الباتريسيين والبليبيين . وكان يدور حول مسألتين اساسيتين – المسألة الزراعية التى ارتبطت بها على الاخص مشكلة عبودية الدين ، وكذلك مسألة الحقوق السياسية للبليبيين . وناضل الملاكون العقاريون الصغار البليبيون ، الذين كان وضعهم الاقتصادى يتردى ويزدادون غرقا فى الدين ، ضد الملاكين العقاريين الكبار – الباتريسيين . وزاد هذا الصراع تعقيدا بسبب التفاوت فى التملك الذى تطور فى صفوف البليبيين انفسهم .

لقد انتزع البليبيون بعض التنازلات ، اهمها تحريم عبودية الدين (قانون بيتيليوس ، ٣٢٦ ق . م .) ، واجيز لهم الوصول الى هيئات الرئاسة العليا ، وتمكنوا كذلك من اقرار تاسيس وظائف الرؤساء الشعبيين المنتخبين من عداد البليبيين فقط . ونال هؤلاء حق تعليق قرارات الرؤساء الباتريسيين اذا كانت هذه القرارات تناقض مصالح البليبيين .

لقد ادى الصراع بين الباتريسيين والبليبيين الى انجاز تقسيم المجتمع حسب مبدأ الملكية الذى بدأه اصلاح سرفيوس توليوس . واندمجت بقايا عشائر الباتريسيين القديمة والفئة العليا من البليبيين وكونت طبقة مميّزة هى طبقة النبلاء . وفقد اصطلاح «البليبيين» معناه السابق واصبح يعنى فئات السكان الدنيا المستثمرة .

وفى ميدان السياسة الخارجية يتميز العهد الجمهورى المبكر (القرن الخامس والرابع والثالث ق . م .) بالحروب التى خاضتها روما باستمرار تقريبا فى سبيل السيطرة على شبه جزيرة ابنينو .

فى هذه الاثناء تمت عملية تكوّن مجتمع الرق ودولة الرق فى روما .

٢ ـ ازدهار مجتمع الرق

فتح روما لمنطقة البحر الابيض المتوسط

أن تطور علاقات الرق (العبودية) وطموح الطبقة السائدة لحل المسألة الزراعية بواسطة الاستعمار قد افضيا الى نشر السياسة العدوانية لدولة روما خارج حدود شبه جزيرة ابنينو . ومنذ اواخر النصف الاول من القرن الثالث ق . م . بدأ صراع روما مع اكبر دولة عبودية فى شمال افريقيا هى قرطاجة . وهذه

الحروب المعروفة بالحروب البونيكية (الاول والثانية والثالثة) قد انتهت فى عام ١٤٦ ق . م . بتدمير قرطاجة واقامة سيطرة روما فى القسم الغربى من البحر الابيض المتوسط . وفى هذا الوقت فتح الرومان شبه جزيرة البلقان . ثم بسطوا سيطرتهم على شرقى البحر الابيض المتوسط ، وعلى آسيا الصغرى ، وعلى اسبانيا وعلى اراضى بلجيكا الحالية ، الخ .. وتحولت المناطق المفتوحة الى ولايات رومانية تشكل مصدرا لاغتناء الطبقة الحاكمة فى جمهورية روما العبودية .

ان الحروب المظفرة ضمنت تدفقا هائلا من العبيد الرخيصين للغاية . مثلا ، وقت البطش بسكان سردينيا جرى استعباد ٨٠ الف شخص ، وعند اخضاع المنطقة اليونانية ابير (سنة ١٦٧ ق . م .) بيع اكثر من ١٥٠ الف شخص كعبيد . ولقد ساعد تدفق العبيد على زيادة الوزن النسبى لعمل العبيد فى اقتصاد دولة روما العبودية .

هيمنة عمل العبيد

لقد عنى انتشار عمل العبيد ازاحة العمل الحر . وبما ان ايطاليا كانت بلدا زراعيا فان هذه العملية الجديدة اخذت تتجلّى فى الزراعة بقوة خاصة . وأدى استخدام عمل العبيد على نطاق واسع فى الزراعة الى تكوين الاستثمارات الزراعية الكبيرة او اللاتيفونديات . وكانت منتوجات اللاتيفونديات تخصص بصورة رئيسية للبيع . ولم تتكون الاستثمارات الكبيرة نتيجة لاستيلاء اسياد العبيد اصحاب اللاتيفونديات على مـــا يسمى بالحقل الاجتماعى وحسب ، بل ايضا عن طريق خراب استثمارات الفلاحين الصغيرة والمتوسطة . وتحول الفلاحون المحرومون من

المصدر السابق لحياتهم الى مستأجرين لارض الملاكين العقاريين الكبار ، او نزحوا الى المدن . ان قسما من النازحين الى المدن امكنه ممارسة العمل الحرفي . ولكن الاكثرية تحولت الى فئة من السكان متفسخة طبقيا ، الى ما يسمى حثالة البروليتاريا ، الى فئة تعيش على صدقات ممثلى الطبقة السائدة .

واتحد الحرفيون فى المدن فى زملات مهنية ، اخذ العبيد ايضا يدخلون فيها تدريجيا .

كان القرن الثانى ق . م . نقطة الانعطاف فى تطوير امتلاك العبيد الواسع . وابتداء من هذا الوقت اصبح العبيد بدرجة متزايدة ابدا المنتجين الاساسيين فى مجتمع روما العبودى .

تطور التجارة والرأسمال الربوى

لقد ادى تطور امتلاك العبيد الى تكوين نظام كامل لتجارة الرقيق . وظهرت اسواق النخاسة فى روما وغيرها من الاماكن .

وسادت التجارة الخارجية على التجارة الداخلية . فكانت تستورد من «الولايات» العديدة ، اى من المناطق المستعبدة والبلدان التابعة لروما ، المنتوجات الزراعية وكذلك مواد الترف ، وتصدر المصنوعات المعدنية والخمور وزيت الزيتون . ان استيراد البضائع كان يفوق التصدير . غير ان النقص فى التصدير كان يعوض بالنهب المباشر للاراضى المفتوحة ، وعلى الاخص بتدفق المبالغ النقدية الكبرى . وقد انشأت دولة روما باستيلائها على مناجم الفضة فى اسبانيا مصدرا دائما لسك العملة .

وادى نمو التجارة والتداول النقدى الى تطور الرأسمال النقدى الربوى . واخذت تنشأ شركات الملتزمين الذين كانوا يقومون بالعمليات التسليفية الربوية ويلتزمون بجبى الضرائب .

وانتشرت بصورة واسعة مكاتب الصرافة . وكان اصحابها يقومون ، علاوة على صرف العملة ، بحفظ النقود وتحويلها وكذلك بتقديم القروض بفائدة .

واخذ الاشخاص الذين يمارسون التجارة والربا يتميزون وينفصلون تدريجيا وألفوا احدى فئات الطبقة السائدة - فئة ما يسمى بالفرسان .

احتدام التناقضات في مجتمع روما

ان استثمار العبيد الوحشي الواسع قد ادى الى احتدام التناقض الاساسي في دولة روما - التناقض التناحري بين مالكي العبيد والمنتجين المباشرين للخيرات المادية - العبيد . وازدادت انتفاضات العبيد .

ان النضال الذى خاضه العبيد تحت قيادة اسبرطقوس (سبارتاك) كان انتفاضة عظيمة في العهد القديم .

نظم اسبرطقوس ، الذي كان مصارعا محترفا ، مع زملائه من المصارعين في مدينة كابويا مؤامرة في سنة ٧٤ قبل الميلاد . وقد انفضح امر المؤامرة ولم يتسن الا لعشرات من العبيد الخروج من المدينة برئاسة قائدهم واللجوء الى جبل فيزوف . ومن حفنة البواسل هذه نما فيما بعد جيش رهيب من ستين الفا كان يقوم بعملياته الحربية في جنوب وشمال ايطاليا وينزل الهزيمة تلو الهزيمة بقوات اسياد العبيد . ولم تتمكن دولة روما من قمع الثوار الا في عام ٧١ قبل الميلاد بعد ان بذلت كل ما لديها من قوى . لقد كان النظام العبودى ما يزال قويا لدرجة كافية ولم يتمكن العبيد من تحطيمه . بيد ان اهمية انتفاضة ٧٤-٧١ ق . م . كانت عظيمة : فقد

انزلت الانتفاضة ضربة خطيرة بمواقع اسياد العبيد . وساعدت على تعزيز تقاليد حب الحرية عند الشعب . ان اسم اسبرطقوس الخالد قد اصبح رمزا للنضال فى سبيل تحرير جماهير الشغيلة من الظلم .

وأخذت تزداد توترا العلاقات بين روما والولايات المستثمرة . واندلعت الحروب الشعبية ضد سيطرة روما . واتسع الصراع بين الملاكين العقاريين الكبار والفلاحين الصغار الاحرار الذين كانوا يصابون اكثر فاكثر بالخراب . ثم ان الحركة الزراعية التى قام بها بليبيو روما المطالبون باعادة توزيع الاراضى الاجتماعية العامة ، التى احتلها مالكو العبيد ، بلغت مدى كبيرا فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد .

ان احتدام تناقضات مجتمع روما لم يعن بعد ازمة النظام العبودى بوجه عام . ان هذا لم يكن الاّ ازمة شكل الدولة العبودية القائم فى ذلك الوقت ، وهذا الشكل هو جمهورية روما . ولكن هذه الازمة حملت فى ثناياها ايضا اعراض الانهيار المقبل لمجتمع روما العبودى بأسره .

سقوط الجمهورية وتكون الامبراطورية

تحولت ازمة الجمهورية الى حرب اهلية حقيقية نشأت فى اواسط القرن الاول قبل الميلاد بين مختلف فئات الطبقة السائدة .

كانت الازمة انعكاسا لواقع ان جمهورية روما المتكونة على اساس المدينة-الدولة لم تستطع ضمان الدور القيادى لطبقة مالكى العبيد السائدة على نطاق الامبراطورية الاستعمارية الهائلة . ولذا رأى اسياد العبيد الوسيلة الاساسية لتعزيز سيطرتهم فى تأسيس ديكتاتورية تستند الى الجيش . واخذ

ينجذب الى قيادة الدولة ايضا اسياد العبيد فى ولايات روما .
ان الشكل الجديد المتكون لدولة روما العبودية – الامبراطورية – كان عبارة عن جهاز للسيطرة الطبقية ليس فقط لاسياد العبيد فى مدينة روما وانما فى ايطاليا كلها ، وفى جميع الاقاليم التى فتحتها روما .

بدأ الشكل الجديد لدولة روما فى عهد ديكتاتورية يوليوس قيصر (فى النصف الثانى من القرن الاول قبل الميلاد) وفى عهد ديكتاتورية ابنه بالتبنى وولى عهده الرسمى اكتافيوس اغسطس (القرن الاول الميلادى) . كان هذا الاخير الحاكم الاوحد المعترف به على نطاق الامبراطورية ، رغم ان مجلس الشيوخ كان يعتبر شكليا الهيئة العليا للدولة . وقد ركز اغسطس فى يديه بالاضافة الى السلطة العليا المدنية السلطة الحربية العليا كذلك . ان لقب امبراطور الذى كان يمنح فى السابق للقائد المنتصر لفترة معينة ، اصبح جزءا مكونا للقب حاكم الدولة .

اما الجيش الذى سعى الاباطرة الى الاعتماد عليه فقد غدا قوة اجتماعية وسياسية كبرى .

واخذ ينشأ جهاز من الموظفين تابع للامبراطور سرعان ما ازاح الدوائر الجمهورية .

ان النصف الثانى من القرن الاول والقرن الثانى هما عصر جبروت وازدهار امبراطورية روما ، عصر اكبر اتساع اقليمى لها .

٣ – انهيار دولة روما العبودية

ان انهيار ، انحلال اى مجتمع كان لا يحدث فجأة . انه عملية طويلة تتطور بشدة تكثر او تقل فى مختلف المراحل . لقد أخذت أعراض انحلال امبراطورية روما ترتسم فى الوقت الذى لم يكن فيه شىء ، على ما يبدو ، يهدد جبروت دولة روما .

بدء تدهور الاقتصاد المزرعي الكبير ونشوء الاقتصاد القائم على التأجير

ان احد هذه الاعراض التي بدأت تظهر في نهاية القرن الاول وفي القرن الثاني بعد الميلاد هو الهبوط التدريجي لدور الاقتصاد المزرعي (اقتصاد المزارع الكبرى) القائم على عمل العبيد . فالعبيد لم يكونوا معنيين بتاتا في نتائج عملهم . وكانت انتاجية عملهم ومستوى الانتاج كله منخفضين جدا . وكان يترتب على اصحاب اللاتيفونديات استخدام نظام معقد من الاشراف والاكراه ، الامر الذي زاد من تكاليف الانتاج .

ولذا غالبا ما كان اصحاب اللاتيفونديات يجدون من المربح ابقاء استثمارات صغيرة في اطار الاملاك العقارية الكبيرة . وكان العبيد يحصلون على ادوات العمل من السيد ويعملون في الاستثمارة مقابل قسم من المحصول . وظهر كذلك مستأجرون احرار سموا «كولونات» او «معمّرون» . كان بعض هؤلاء يدفع مقابل استئجار الارض نقودا والبعض الآخر (وكان عددهم يزداد باستمرار) كان يدفع عينا ، قسما من المحصول . وشيئا فشيئا تحول المستأجرون الاحرار الى اشخاص تابعين . وكان عدد المستأجرين يزداد من الفلاحين الاحرار الصغار المفلسين ، وكذلك من العبيد المحررين .

لقد ساعد نظام الاقتصار القائم على التأجير في زيادة اهتمام المنتجين المباشرين بعملهم .

كذلك خدم الغرض نفسه ما يسمى باستخدام الملكية . كان السيد يضع في مجال استخدام العبد قسما من ملكيته شريطة ان يقدم العبد الى المالك قسما من الدخل .

تعاظم ازمة النظام العبودى

ان اعراض انحلال النظام العبودى وعلاقات الانتاج العبودية التى بدأت تظهر منذ النصف الثانى للقرن الاول نمت فيما بعد نموا بالغا ، وادت على ابواب القرن الثالث الى ازمة عميقة فى مجتمع روما العبودى .

وطرأت تغيرات كبرى على وضع الطبقتين الاساسيتين المتناحرتين : العبيد ومالكى العبيد ، وكذلك على العلاقات بين هاتين الطبقتين . ونظرا لعدم فائدة عمل العبيد كان السيد غالبا ما يحرر العبيد فكأن هؤلاء يستخدمون حصة من ملكية السيد او يصبحون مستأجرين احرارا . واضطر اسياد العبيد لدرجة معينة الى الكف عن اكراه العبيد السافر على العمل ساعين بذلك الى زيادة اهتمام العبيد فى نتائج عملهم . غير ان المستأجرين الذين كانوا فى السابق احرارا ، اخذوا يصبحون لدرجة متزايدة ابدا اناسا تابعين . اى ان عملية تقارب جرت بين الفلاحين الاحرار والعبيد . وغالبا ما كان يتحول الصغار والمتوسطون من الملاكين العقاريين واسياد العبيد الى مستأجرين . وبما ان المدينة الرومانية ، مثلها مثل كل المدن القديمة ، كانت تمثل جماعة من الملاكين الاحرار ، فان هذا ادى الى تضعضع المدينة كدعامة للمجتمع العبودى .

كذلك اخذ الخراب يصيب تدريجيا الحرفيين الاحرار المتحدين فى الزملات المهنية . ثم ان الدولة المعنية فى انتاج المصنوعات الحرفية وفى الضرائب التى تحصل عليها بانتظام من الحرفيين ، اخذت تسعى بكل الوسائل لتعزيز اتحـــادات الحرفيين .

ان اشتداد وطأة الضرائب وسلب اراضى المدن الاجتماعية ، بالاضافة الى خراب اكثرية سكان المدن ، كل هذا ساعد على ذبول المدن وتدهورها تدريجيا .

وافضت الازمة الاقتصادية فى القرن الثالث الى تفاقم التناقضات الاجتماعية تفاقما حادا . واخذ المستاجرون والفلاحون الاحرار المفلسون وفقراء المدن يناضلون سوية ضد مالكى العبيد .

وفى القرن الثالث قام العبيد والمستاجرون الذين عرفوا باسم «باغاود» («المناضلين») بانتفاضة كبيرة جدا فى القرن الثالث شملت بلاد الغال واسبانيا . وفى هذه الاثناء لم تكن تسود الوحدة فى صفوف اسياد العبيد : كانت اريستقراطية الملاكين العقاريين الكبار تسعى لقمع الصغار من اسياد العبيد .

ورافقت التناقضات الاجتماعية تناقضات فى المجال السياسى . فقد اشتدت الميول الانفصالية عند بعض الولايات ، واستعر اوار الصراع بين مختلف الفئات فى سبيل العرش الامبراطورى . وفى هذه الاصطدامات الداخلية كان الجيش يلعب دورا متعاظما ، تارة يساند هذه الفئة وتارة تلك .

فى سنوات ١٩٣-١٩٧ نشبت حرب اهلية بين بعض فئات الطبقة السائدة ادت بالنتيجة الى ازمة سياسية عميقة فى اواسط القرن الثالث .

التفسخ النهائى لاسلوب الانتاج العبودى

كان تطور العلاقات القائمة على التاجير احد الدلائل المميزة لتفسخ علاقات الانتاج العبودية . ففى القرن الرابع (فى عهد الامبراطور قسطنطين) جرى تثبيت المستاجرين فى

الارض التى يفلحونها . وكان المستأجر ، بغض النظر عن منشأه ، ملزما بالعمل الدائم على ارض المالك . واصبح المستأجر الشخصية الرئيسية فى الاستثمارة الزراعية ، ولم يكن يملك حق مغادرتها ، لا هو نفسه ولا ذريته . وكان هذا يعنى عمليا جعل المستأجر قنا . ولكن العلاقات القائمة على التأجير لم تستطع ان تتحول الى نظام من العلاقات الاقطاعية ، اذ كان النظام السياسى العبودى يقف عائقا منيعا على طريق هذا التحول .

ان وضع المستأجرين المتردى كان يقترب اكثر فاكثر من وضع العبيد . وفى الوقت نفسه اخذ موقف الطبقة السائدة من العبيد يزداد وحشية . فاذا كان الخوف من انتفاضات العبيد قد اضطر فى السابق دولة روما الى سن قانون يحرم قتلهم ، فان هذا «الحق» قد اعيد . و «سمح» للفقراء ببيع اطفالهم كعبيد .

لم تشمل القنانة المستأجرين وحدهم . فقد شملت قيودها كذلك اعضاء زملات الحرفيين . وكانت الزملة ككل مسؤولة امام الدولة عن قيام اعضائها بجميع الالتزامات . ولم يكن بمستطاع الحرفيين الداخلين فى الزملة الخروج منها ، ولم يكن لهم حق الزواج من اشخاص من زملة اخرى . بل ان ممثلى الفئات الغنية من سكان المدن المشتركين فى مجالس المدن قد ربطوا بهذه المدن . وبهذه الاجراءات سعت الدولة العبودية الى منع هروب السكان من المدينة وبالتالى ايقاف هبوط الانتاج الحرفى . الاّ ان ذلك المجرى الذى بدأ ، مجرى خراب واملاق المدن ، قد استمر ، وهذا ما ساعد على سلب اراضى المدن من قبل الافراد واشتداد وطأة الضرائب .

كذلك انعكس تفسخ اسلوب الانتاج العبودى على العلاقات داخل الطبقة السائدة . فبدلا من توطد الدولة ، بوصفها المعبر

عن المصالح الطبقية العامة لاسياد العبيد ، تفاقم التفكك السياسى اكثر من قبل . وازداد استقلال الملاكين العقاريين الكبار عن السلطة المركزية . وسعى الفلاحون الاحرار ، انقاذا لانفسهم من الخراب النهائى ، الى الاحتماء بهؤلاء الملاكين العقاريين ووقعوا فى ظلم اشد من قبل واصبحوا آناسا تربطهم قيود القنانة .

ان الانتفاضات الشعبية العارمة قد زعزعت سيطرة مالكى العبيد . واندمجت الازمات الاجتماعية والسياسية . وكان احد المظاهر الملحوظة لهذه الازمات هو انقسام امبراطورية روما الى امبراطورية غربية وامبراطورية شرقية ؛ هذا الانقسام ثبت نهائيا فى عام ٣٩٥ بعد موت الامبراطور تيودوسيس . ان الامبراطورية الشرقية التى عرفت فيما بعد باسم الامبراطورية البيزنطية قد تحولت بنتيجة تطورات معقدة الى دولة اقطاعية دامت حتى اواسط القرن الخامس عشر .

٤ ـ الايديولوجية والثقافة

لقد استخدم مالكو العبيد فى روما القديمة ، بغية الابقاء على سيطرتهم ، الوسائل الايديولوجية ايضا ؛ وهذه الوسائل لم تكن متشابهة طيلة وجود دولة روما القديمة . فقد كانت تتغير تبعا للتغيرات فى التركيب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لمجتمع روما العبودى .

عهد الجمهورية المبكرة

● ان الدور الحاسم فى هذه الحقبة كان يعود للبوليس ، اى للمشاعية التى كانت تترأسها الاريستقراطية العشائرية . وهذا

ما ادى الى نزعة المحافظة المتناهية لايديولوجية مجتمع روما ؛ وهذه الايديولوجية كان جوهرها تقديس النظم المشاعية فى البوليسات ، اى الوعظ بالخضوع لقيادتها الاريستقراطية الباتريسية .

وتطورت علاقات الملكية التى كانت تنظمها احكام حقوقية خاصة .

وبالاضافة الى الابداع الشعبى الشفهى اخذت تظهر اولى آثار الشعر والنثر فى روما .

العهد الجمهورى

لقد عنت ازمة نظام البوليسات السياسى فى الوقت نفسه ازمة ايديولوجية البوليس ايضا .

تكونت ايديولوجية العهد الجمهورى بتاثير ايديولوجية المجتمع اليونانى ، الامر الذى اشترطته الحروب التى خاضتها دولة روما فى آسيا الصغرى وفى شبه جزيرة البلقان . ولوحظ فى روما ، كما فى اليونان ، صراع بين مبدأين فى الايديولوجية . وقد تكوّن الاتجاه الدينى المثالى تحت تاثير الاساطير اليونانية .

قبل هذا الوقت ، فى عصر نشوء الدولة ، كان الرومان يعبدون كثرة من الآلهة . وكان لكل شىء ولكل ظاهرة فى تصوراتهم روحها ، ألوهيتها . فقد كان هناك مثلا ثلاثة واربعون ألها للطفولة : اله صيحة الطفل الاولى ، اله خطوته الاولى ، الخ . . وأعتبرت الارواح الخيرة حارسة البيوت والعائلات .

ووجدت عدة زملات للكهنة . كان اعضاء احداها يراقبون القيام بالطقوس الدينية ، واعضاء زملة اخرى ينصرفون الى التنبؤ ، الخ . .

وتحت التأثير اليوناني جرى تدريجيا توحيد الآلهة في روما واليونان واخذت آلهة روما صورة الانسان . ونتيجة لهذا أعتبر الاباطرة الرومان كهنة عظاما واعترف بهم على انهم رؤساء ديانة روما .

اما الاتجاه المادى فتطور تحت تأثير مذهب ابيقور . وكان ممثله البارز لوقراسيوس (٩٨–٥٥ ق . م .) . ففى كتابه «فى طبيعة الاشياء» طور الافكار المادية بخصوص منشأ وتطور الطبيعة والبشرية . وقد كتب مثلا عن «البدايات» غير القابلة للتجزئة اى الذرات التى لا تنشأ ولا تفنى .

وساعد الادراك المادى للواقع على تكديس المعارف العلمية التى كانت نتيجة لاقتباس منجزات اليونانيين وتطور العلم فى روما نفسها . مثلا كتب مرقس تيرانسيوس فارون (١١٦–٢٨ ق . م .) موسوعة علمية كاملة طبقا لمستوى المعارف آنذاك .

ورافق تطور العلاقات البضاعية النقدية ونمو الملكية الخاصة تكامل القانون العبودى فى روما . وتطور فن الخطابة والبلاغة اللذين كان ممثلهما البارز شيشرون ، وتطور كذلك الادب السياسي وعلم التاريخ (مخطوطات يوليوس قيصر ، مؤلفات سولوست) . وظهر شعراء اصيلون ومنهم ، مثلا ، ليفيوس اندرونيكوس (النصف الاول من القرن الثالث ق . م .) ، وكاتولوس (حوالى ٨٧–٥٤ ق . م .) ، وكتاب مسرحيون ، مثل تيطس ماكسيوس بلاوتوس (حوالى ٢٥٤–١٨٤ ق . م .) وبوبليوس تيرانسيوس الافريقى (حوالى ١٩٠–١٥٩ ق . م .) ، ومهندسون معماريون ونحاتون .

رافق تكوين المؤسسات السياسية للامبراطورية ظواهر معينة فى مجال الايديولوجية . وكان هذا مرتبطا قبل كل شيء باستخدام الدين بمزيد من الفعالية من قبل طبقة مالكى العبيد السائدة كوسيلة للتأثير الروحى على الجماهير الشعبية . وقد بذل الاباطرة قصارى جهدهم للتأكيد على المنشأ الالهى لسلطتهم . وفى الولايات الشرقية كانوا يمجدونهم جهارا كآلهة .

وكان تمجيد الامبراطورية الناشئة الهدف الاساسى لانتشار الرواقيـة التى كان يمثلها سينيكا وابكتات . فان الانسان ، طبقا لمذهب الرواقيين ، جزء من بنية هائلة ، من كل شامل . وعلى كامل نشاط الانسان ان يكون مكرسا لخير هذا الكل الشامل ، اى للمجتمع ، للدولة . وزعم الرواقيون ان كل شيء يتكرر دائما وليس ثمة شيء جديد ولا يمكن ان يكون هناك جديد . لقد كان القصد من هذه الافكار تأكيد فكرة ابدية الامبراطورية والنظم القائمة فيها .

وبتوحيد الافكار الفلسفية عند فيثاغورس وافلاطون وارسطو ، صاغ الفيثاغورسيون الجدد مذهبا مشربا بالصوفية يعتبر المبدأ الالهى خيرا ، والمادة شرا .

وخلافا لايديولوجية الطبقة السائدة ، اخذت تتكون عند الجماهير الشعبية بصورة عفوية ايديولوجيتها الخاصة . ولقد كانت هذه ايديولوجية الاحتجاج على الحرمان من الحقوق ، ايديولوجية تمجيد العمل والناس البسطاء . وكان عامة الناس يعتبرون ان ليس القياصرة والاريستقراطيون وحسب ، بل الكادحون البسطاء ايضا يمكنهم ان يكونوا بعد الموت مساوين للآلهة .

كذلك استخدمت الطبقة السائدة الادب والفن من اجل دعم ورفع مكانة سلطة الامبراطور . ويتميز عهد الامبراطور اغسطس بابداع الشعراء فيرجيليوس وهوراسيوس وبروبيرسيوس وتيبولوس وافيديوس والكاتب النثرى تيطس ليفيوس وغيرهم .

وترجع الى وقت لاحق مؤلفات الكاتب السياسى بلينوس الاصغر ، والمؤرخين بلوتارك من هيرونيا وابيانوس من الاسكندرية وسفيتونيوس . واستهدف فن المعمار تمجيد الامبراطور وترك الآثار الرائعة . كذلك ابتغى الهدف نفسه قانون روما الذى تكوّن بصورة نهائية .

وفى الوقت ذاته ، ظهرت فى بعض المؤلفات الادبية والسياسية افكار انتقادية كان اصحابها المؤرخ تاقيطس والشاعر لوكانوس والكاتب النثرى بطرونيوس والهجائيان يوفينال ولوقيانوس ، الذين كانوا على صلة مع الاوساط المعارضة للامبراطورية من طبقة اسياد العبيد .

وفى زمن الامبراطورية المبكرة بدأت تنشأ حضارة واحدة هيلينية رومانية كانت مزيجا من المنجزات الثقافية فى اليونان وروما والولايات الشرقية المفتوحة . وهذا ما يميّز فى المقام الاول العلوم الطبيعية . ان «تاريخ الطبيعيات» الذى كتبه بلينوس الاكبر حمل من حيث الاساس طابع الجمع والتنسيق . ولكن ظهرت مؤلفات علمية اكثر اهمية اعيدت فيها بصورة انتقادية صياغة كتابات المؤلفين القدماء . فقد كتب سترابون مؤلفات شاملة فى الجغرافيا . وأتم بطليموس من الاسكندرية وضع النظام الفلكى الذى سمى باسمه .

وبصورة واسعة اشتهر الطبيب جالينوس الذى أثر تأثيرا كبيرا على تطور الطب لاحقا .

ظهرت المسيحية فى اواسط القرن الاول الميلادى فى الولايات الشرقية من امبراطورية روما . وفى بداية القرن الثانى وصلت الى اليونان وسرعان ما ظهرت فى شبه جزيرة ابنينو .

ان وضع الجماهير الشعبية المتردى وحرمانها من الحقوق قد اديا الى انتشار الافكار الدينية الصوفية عن فناء الحياة الارضية والتأمل بمستقبل افضل فى العالم الآخر ، انتشارا واسعا .

ونمو هذه الافكار هيأ ظهور العقيدة المسيحية . لقد قبلت المسيحية عبادات دينية كثيرة فى بلدان آسيا وافريقيا تقول بموت وقيامة الاله الذى قيل انه اراق دمه فى سبيل الناس من اجل تخليصهم من قوى الشر وايصالهم الى الخلود والنور . ان المسيحية فى بادىء تطورها رفضت كليا تقديم القرابين وكذلك اية طقوس كانت . والشىء الرئيسى هو ان وعاظ المسيحية ، خلافا لانصار المذاهب الدينية الاخرى المعاصرة لها ، لم يعترفوا باية فروق سلالية او اجتماعية . وهذا ما زاد من انجذاب عواطف المحرومين والمضطهدين نحوها .

فى العهد الباكر ، كانت المساواة تسود فى الطوائف المسيحية التى كانت تضم الفقراء فى الغالب . ولكن ما ان اخذ ينضم الى المسيحيين ممثلو الاوساط الغنية ، غير الراضين بهذه الدرجة او تلك عن النظام القائم ، حتى راحت تزول شيئا فشيئا البساطة فى العلاقات والطابع الديموقراطى للطوائف المسيحية .

ان مقتضيات العبادة التى اخذت تزداد تعقيدا والهبات الطائلة قد شددت نفوذ الاشخاص الذين كانوا يتصرفون بملكية الطائفة ويشرفون على اداء الطقوس ، اى الكهنة والقساوسة والاساقفة . وبدأ انفصال الفئة القائدة المسماة بالاكليروس عن

المسيحيين البسطاء ، واخذت تنشأ الكنيسة المسيحية . وهكذا اكتسبت المسيحية فى مجرى تطورها عدة سمات وخصائص جديدة ساعدت على جذب الطبقة السائدة الى جانب الدين المسيحى .

وجدت العبادات الدينية القديمة نفسها عاجزة عن ابقاء الجماهير الشعبية فى حالة الاذعان . اما محتوى التعليم المسيحى الذى ألهى الشغيلة عن النضال الاجتماعى ضد المستثمرين ، فقد استجاب لمصالح طبقة مالكى العبيد على أكمل وجه . وسرعان ما فهم ايديولوجيو هذه الطبقة بان احتجاج المسيحيين الاصيل ليس من الصعب توجيهه فى مصلحة المستثمرين . والذى استهوى اسياد العبيد هو ما يميّز المسيحية من عظة بالسكينة والخنوع والمطالبة بالخضوع التام والاعتراف غير المشروط بالعقائد القائمة . ان حاصل التغيرات التى اخذت تحدث فى موقف ممثلى الطبقة السائدة من المسيحية كان اعلان المسيحية فى بداية القرن الرابع الميلادى فى عهد الامبراطور قسطنطين دين الدولة . وقد نالت الكنيسة المسيحية امتيازات كبيرة . وتحولت المسيحية من دين للمظلومين الى اداة يستخدمها اسياد العبيد لقمع الجماهير الشعبية روحيا .

الامبراطورية المتأخرة

ان ازمة الامبراطورية فى المجال السياسى والاجتماعى قد شملت ايديولوجيتها ايضا . واخذت النظريات الدينية الفلسفية المنتشرة بين ممثلى الطبقة السائدة تكتسب طابعا تشاؤميا يشتد اكثر فاكثر . فقد طرأ تغير ، مثلا ، على آراء الرواقيين . فحينما كانت امبراطورية روما تعيش فى فترة الازدهار ، ساعد مذهب الرواقيّة القائل بضرورة التضحية بالنفس من اجل المجتمع على تعزيز سلطة مالكى العبيد . اما فى فترة انحطاط الامبراطورية فقد ساعد على انتشار افكار التشاؤم وفقدان الامل .

واتتشرت انتشارا واسعا فى القرن الثالث فلسفة بلوتينوس المثالية الصوفيــة ، المسماة بالافلاطونية الجديدة . وبــراى بلوتينوس ان الشر والمادة مفهوم واحد . وهدف الانسان هو الاندماج الروحى بخير عال ما يعجز العقل عن ادراكه .

كذلك آكتسب الادب صبغة دينية فلسفية ، بما فى ذلك شكله الاكثر انتشارا ، وهو الرواية («التبدل ، او الحمار الذهبى» لكاتبها ابوليوس من مادافرا ، «ادمونيكا» لصاحبها هيليودورس من اميسا) .

فى القرنين الرابع والخامس ، اى فى مرحلة انحطاط امبراطورية روما نهائيا ، اندمجت المذاهب الفلسفية الوثنية التى ازاحتها المسيحية اندماجا وثيقا مع البحث فى الجن والشياطين والسحر والتنجيم . ورافق انتصار الكنيسة المسيحية ابادة كثرة من آثار الحضارة القديمة الوثنية . ولكن المسيحية اقتبست فى الوقت نفسه الشىء الكثير من الوثنية سعيا منها لكسب الشهرة والشعبية . مثلا ، جرى توقيت عيد الميلاد فى يوم عيد إله الشمس ميترا . وفى الولايات الشرقية حيث كانت عبادة ربات الخصوبة ايزيس وعشتاروت وكيبيلا ، متطورة جدا ، تطورت عبادة والدة الاله . وراح الادب الروائى يرضى اكثر فاكثر اذواق حفنة قليلة من اريستقراطية القصر . فكان مدح الاباطرة وتمجيدهم يؤلفان محتواه الاساسى . وفى هذه الحقبة انخفض مستوى الثقافة العام انخفاضا شديدا .

٥ ـ هلاك امبراطورية روما

اخذ عمل العبيد يصبح اكثر فاكثر عائقا لتقدم التكنيك وتطور المجتمع لاحقا . وتطلب المستوى الذى بلغته القوى المنتجة علاقات انتاجية اخرى . واخذ ينضج الانتقال الثورى الى تشكيلة

اقتصادية اجتماعية اكثر تقدما ، الى التشكيلة الاقطاعية . غير ان هلاك امبراطورية روما الغربية ـ الشكل الاعلى لدولة روما العبودية ـ لم تشترطه العوامل الداخلية وحسب ، بل العوامل الخارجية ايضا .

لقد تكررت غارات القبائل المجاورة الكثيرة العدد على اراضي امبراطورية روما المتاخرة . واصبحت غزواتها المدمرة خطرة على الاخص فى نهاية القرن الثانى .

وفى اوروبا الوسطى كانت اتحادات القبائل الجرمانية التى كانت تجتاز مرحلة تفسخ المجتمع المشاعى البدائى جارا خطيرا للرومان . وفى الكاربات وشمال البحر الاسود تكونت كذلك اتحادات قوية لقبائل الغوطيين والداليين والسارماتيين والسلافيين .

وكان استخدام الجنود المرتزقة من بين قبائل «البربر» (القبائل الجرمانية وغيرها) أحد دلائل تفسخ دولة روما . وهذا ما شكل خطر التقارب بين القبائل من جهة والعبيد والمستأجرين من جهة اخرى . ان التناقضات الداخلية وأنتفاضات العبيد والفلاحين المعدمين والحرفيين قد اندمجت مع ضربات الجرمانيين والسارماتيين والغوطيين والشعوب الاخرى مزعزعة بذلك دولة روما العبودية .

وكانت اراضي امبراطورية روما الغربية تتقلص على الدوام . ففى اواسط القرن الخامس لم يبق تحت سلطان الاباطرة الرومان الا ايطاليا وقسم ضئيل من بلاد الغال . حتى ان عاصمة الامبراطورية انتقلت بعد هزيمة روما فى عام ٤١٠ من قبل الغوطيين الغربيين الى شمال ايطاليا ، الى مدينة رافينا .

لقد ساند العبيد والمستأجرون القبائل المهاجمة . واصبح عرش امبراطور امبراطورية روما الغربية لعبة فى ايدى قادة الكتائب الجرمانية المرتزقة . ان سنة ٤٧٦ التى اطاح فيها ادواكر ، احد هؤلاء القادة ، بآخر امبراطور لروما تعتبر تاريخ

سقوط امبراطورية روما الغربية نهائيا . وبعد هذا تكونت فى اراضى ايطاليا اول دولة «بربرية» .

ان هلاك امبراطورية روما سجل فى الوقت نفسه انهيار النظام العبودى ككل .

ان مجمل العوامل الداخلية والخارجية المذكورة اعلاه التى ادت الى انهيار النظام العبودى قد الف جوهر الانتقال الثورى الى تشكيلة أقتصادية اجتماعية اكثر تقدما هى التشكيلة الاقطاعية .

٣

المجتمع الاقطاعى

تمهيد

تطور عناصر الاقطاعية فى احشاء التشكيلة العبودية

نشات العلاقات الاقطاعية فى باطن التشكيلة العبودية مثلها مثل العلاقات العبودية التى بدأت تتكون فى احشاء النظام المشاعى البدائى . ان تطور نظام اقتصاد التأجير (الكولونا ، Colonat) كان احد مظاهر الازمة الزاحفة لاسلوب الانتاج العبودى .

لقد ابتلع الملاكون العقاريون الكبار بصورة تامة تقريبا الملكية الفلاحية الصغيرة . وكانت الاستثمارات الزراعية الكبيرة التى يستخدم فيها عمل العبيد والمستاجرين الشكل الاولى للممتلكات الاقطاعية المقبلة . وفى القرنين الرابع والخامس ، فى آخر عهد قيام امبراطورية روما ، ضعفت الصلات الاقتصادية بين اجزاء الامبراطورية بالتدريج ، واشتدت الازمة السياسية للامبراطورية . ومن اهم مظاهر هذه الازمة ، كما رأينا ، انقسام امبراطورية روما الى غربية وشرقية .

ان الملاكين العقاريين الكبار ، والمستاجرين والعبيد الذين يفلحون ارضهم ، كانوا يكتفون بالمنتوجات المنتجة محليا . ولذا اكتسب الاقتصاد طابعا مغلقا طبيعيا .

بيد ان عناصر اسلوب الانتاج الجديد ، الاسلوب الاقطاعى لم تكن تملك آنذاك آفاق التطور الحر ، لان العلاقات العبودية السائدة كانت تعرقل نموها .

الهزات الثورية في امبراطورية روما

ان عناصر علاقات الانتاج الجديدة بحد ذاتها كانت عاجزة عن تحطيم قيود اسلوب الانتاج القديم . فكان لا بد من انقلاب ثورى من شانه ان يقضى على التشكيلة العبودية وعلى الدولة وغيرها من عناصر البناء الفوقى العبودى التى تعرقل تطور العلاقات الاقطاعية .

كانت الانتفاضات الشعبية تهز دولة روما بلا انقطاع . ثم ان النضالات الثورية التى خاضتها الجماهير الشعبية والشعوب الخاضعة زعزعت بصورة ملحوظة جبروت امبراطورية روما ، ولكنها كانت عاجزة عن تحطيمها نهائيا . فقط الصراع الطبقى داخل مجتمع روما مع غارات القبائل الجرمانية والسلافية ، هو الذى مكّن من انجاز سقوط امبراطورية روما الغربية ، والقضاء على النظام العبودى ، والمساعدة على تعزيز العلاقات الاقطاعية .

مراحل التشكيلة الاقطاعية

ان فترة تكون العلاقات الاقطاعية هى المرحلة الاولى ، مرحلة بداية تطور التشكيلة الاقطاعية التى يوحدها المؤرخون الماديون مع مفهوم «القرون الوسطى» . ولذا تسمى هذه المرحلة عصر القرون الوسطى المبكرة .

تبدأ هذه المرحلة فى اوروبا فى القرن الخامس تقريبا وتمتد حتى بداية القرن الحادى عشر ، وفى آسيا تبدأ من القرن الثالث (الصين) ، القرنين الرابع والخامس (الهند) ، القرن السابع (بلاد العرب) وتمتد حتى نهاية القرن الثامن فى الصين ، وحتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى معظم البلدان الاخرى .

المرحلة الثانية من تاريخ القرون الوسطى هى عصر الاقطاعية المتطورة . انها مرحلة الانفصال الثانى للحرفة عن الزراعة ، وعصر تكوّن المدن كمراكز للحرف والتجارة . وترجع هذه المرحلة فى اوروبا الى القرون ١١ ـ ١٥ ، وتمتد فى بلدان آسيا وشمال افريقيا من القرون ٩ ـ ١١ حتى القرن الخامس عشر .

المرحلة الثالثة والاخيرة تسمى القرون الوسطى المتاخرة . وهى تتميز بتفسخ العلاقات الاقطاعية ونشوء العلاقات الرأسمالية . ويمتد تاريخ هذه المرحلة بالنسبة لاوروبا من القرن الخامس عشر الى اواسط القرن السابع عشر .

نتيجة لتوسع المستعمرين الاوروبيين استمرت العلاقات الاقطاعية فى البقاء مدة اطول فى بلدان آسيا وافريقيا . ويعتبر العلماء السوفييت اواسط القرن السابع عشر نهاية العهد الاقطاعى (القرون الوسطى) وبداية عهد جديد هو عهد الرأسمالية .

الفصل الاول

عصر تكوّن العلاقات الاقطاعية

(القرون الوسطى المبكرة)

١ ـ تكوّن العلاقات الاقطاعية فى اوروبا الغربية

فى مرحلة انشوء العلاقات الاقطاعية اخذت تتكون السمات الاساسية لاسلوب الانتاج الاقطاعى ، وعلى الاخص العلائم المميزة للملكية العقارية الاقطاعية ، وكذلك اطرزة الريع العقارى الاقطاعى بوصفه شكلا اقتصاديا لتحقيق هذه الملكية .

الجرمان والسلاف القدماء

يكمن جوهر تكوّن العلاقات الاقطاعية فى اوروبا الغربية فى تشابك العمليات الجارية فى امبراطورية روما المتفسخة والعمليات التى كانت تجرى عند الجرمان والسلاف القدماء .

ان التماس بين الجرمان والسلاف القدماء ومجتمع روما العبودى قد ادى الى تكوّن العلاقات الاقطاعية عندهم مباشرة على قاعدة النظام المشاعى البدائى . وكانت عملية تكون الطبقات عند هؤلاء واولئك قد بدأت فى مرحلة انحطاط امبراطورية روما . ولكن التطور لم يتعد اشكالها البدائية الابوية (البطريركية) .

كان وضع العبيد اسرى الحرب عند الجرمان والسلاف القدماء قريبا من وضع المستاجرين فى روما . فكانوا يحصلون على قطع

من الارض ويمارسون اقتصادهم الخاص الصغير ويدفعون للسيد فريضة عينية ـ ماشية ، قمح ، الخ ..

فى القرون الاولى بعد الميلاد حلت محل المشاعية العشائرية المتفسخة عند الجرمان والسلاف مشاعية التجاور الاقليمية (عند الجرمان تسمى « ماركا ») . وانتقلت الارض الى تصرف العائلات بمفردها من اجل استخدامها الفردى . بمرور الزمن ، وبمقدار تفسخ مشاعية التجاور ، تحولت الارض اكثر فاكثر الى ملكية خاصة . وهذا مرتبط بواقع ان الاسلوب الفردى لفلاحة الارض اصبح اكثر انتاجية . كان استخدام المحراث الثقيل مستحيلا فى ظروف امتلاك العبيد . ثم ان اريستقراطية القبائل ركزت فى ايديها قطع الارض الكبيرة والماشية . ونحو القرنين الخامس والسادس بلغ تطور الملكية الفردية الفلاحية مقاييس كبيرة .

لقد ساعد الاتصال الوثيق المتزايد ابدا بمجتمع روما على تعجيل عملية تكون الطبقات عند الجرمان والسلاف . وكانت مصالح السلاف الغربيين والجنوبيين تتصادم قبل كل شىء مع مصالح امبراطورية روما . ثم ان تأزم العلاقات المتبادلة بين القبائل ودولة روما زاد من مصلحة القبائل فى تصفية جبروتها .. وقد لعب دورا حاسما فى سقوط امبراطورية روما ما يسمى « نزوح الشعوب العظيم » ويقصد به الغارات المستمرة على امبراطورية روما ونزوح القبائل الجرمانية والسلافية وغيرها من القبائل الى اراضيها .

عملية انتشار الاقطاع

لقد ساند العبيد والمستاجرون القبائل الجرمانية والسلافية التى هاجمت امبراطورية روما الغربية وبيزنطية ، لان الفاتحين اقاموا انظمة جديدة حسنت لدرجة كبيرة وضع السكان المحليين

المحرومين من الحقوق . وانتزع الجرمان الارض والعبيد بصورة رئيسية من كبار اسياد العبيد الرومان . هذا وكانت اشكال استثمار العبيد عندهم الين بكثير مما عند الرومان . كذلك جلب الجرمان معهم النظم المشاعية التى سرى مفعولها على الفلاحين الاحرار المحليين ، الامر الذى حسن احوالهم فى الفترات الاولى .

ان أشكال وتقاليد النظام المشاعى التى ادخلها الجرمان القدماء قد تشابكت مع عناصر الاقطاعية الظاهرة فى احشاء المجتمع العبودى المتفسخ . وقد ساعد هذا على تعجيل توطد العلاقات الاقطاعية الجديدة . وتقبل الفاتحون الجرمان ذلك المستوى الاعلى لتطور القوى المنتجة الذى كان يميز امبراطورية روما . وبسبب قلة عددهم (بالمقارنة مع السكان الاصليين فى الاراضى الرومانية) اضطروا الى تقبل شكل امتلاك الارض ذى الجذور العميقة . وكأنهم بعثوا فى الوقت نفسه قوى جديدة فى مجتمع روما المتداعى واستطاعوا تطوير الانتاج تطويرا لاحقا . وكان كبار الملاكين العقاريين الرومان يندمجون بالتدريج مع الاريستقراطية الجرمانية ، فتكونت طبقة سائدة موحدة .

كذلك شكل السلاف على اراضى بيزنطية عدة دول تقوم فيها عناصر الاقطاعية مساعدين بذلك على تطوير العلاقات الاقطاعية هناك .

تطور الملكية العقارية الخاصة فى دولة الافرنج

ان مملكة الافرنج هى المثل الكلاسيكى للمجتمع الاقطاعى المبكر . فى القرن الرابع كان الفلاحون الاحرار يؤلفون الجزء الاساسى من مجتمع الافرنج . بيد ان المشاعيين الاحرار لم يكونوا متجانسين من حيث ما يملكون . فكان يبرز فى المشاعية

فلاحون ميسورون تحولوا فيما بعد الى اقطاعيين صغار ومتوسطين .

ومن جرّاء تطور عدم المساواة فى التملك داخل مشاعية الافرنج ، على تخوم القرنين السادس والسابع ، تحولت الارض ، التى باتت قبل ذلك ايضا ملكية خاصة ، الى موضوع لحرية نقل الملكية (البيع والشراء ، الخ .) . ان ظهور الملكية الخاصة للارض القابلة للبيع والشراء ، اى ملكية الارض التى اصبحت بضاعة ، قد اشترط نشوء عدم المساواة فى الممتلكات العقارية ، وقد خلق هذا بدوره قاعدة لتطور الملكية العقارية الكبرى .

الفلاحون والعبيد

كان العبيد فى ذلك الوقت يفلحون اراضى اسرة الملك واراضى الملاكين الكبار . وهؤلاء العبيد لم يبقوا مثل عبيد امبراطورية روما . فان قسما كبيرا منهم كان يملك قطع الارض ويمارس الاقتصاد المستقل ، مقدما فرائض معينة . غير ان هؤلاء العبيد كانوا محرومين من الحقوق حرمانا تاما . ومقابل قتل العبد لم تكن تدفع الا غرامة كتعويض عن الخسارة . وكان مصدر العبيد الحروب وعبودية الدّين التى كان يقع فيها الناس الذين لا يتمكنون من تسديد الدّين او دفع الغرامة .

وبالاضافة الى العبيد كان يتعرض للاستثمار اشباه الاحرار ــ الذين كانوا يسمونهم الليتيين (وفى عدادهم كان ايضا المستأجرون السابقون) ، وكذلك العبيد الذين اطلق سراحهم . ان هؤلاء واولئك كانوا يملكون قطعا من الارض ويدفعون الاتاوات ويقومون بالفرائض التى يقررها مالك الارض . وكان الليتيون غير كاملى الحقوق مثلهم مثل الناس الاحرار غير المنحدرين من اصل الافرنج

(الرومان وغيرهم) . والفدية فى حالة قتل احد الليتيين او الرومان كانت اقل الى النصف (١٠٠ صولد) منها فى حالة قتل الافرنجى الحر (٢٠٠ صولد) . وتدريجيا تكونت طبقة الفلاحين التابعين .

نظام استخدام الارض

كان بعض الملاكين ، لا سيما الكبار ، قد بدأوا فى القرنين الخامس والسادس يوزعون قسما من اراضيهم على الفلاحين الاحرار المعدمين قطعا صغيرة . وكان الفلاح يقدم للمالك مقابل الارض التى ينالها ، قسما من الغلال ، ويقوم كذلك باعمال معينة لمصلحته . وكانت قطع الارض هذه تقدم فى بعض الاحيان لمدة غير محددة من الزمن ، ومن ثم صار الزمن يحدد تحديدا دقيقا ، مثلا ، مدى حياة متسلم الارض . واحيانا كانت تقدم الارض لتستخدم وراثيا .

بعد ذلك بوقت متاخر ، لا سيما فى القرنين الثامن والتاسع ، اتسعت اشكال استخدام الارض . فقد كان الفلاح المصاب بالخراب والذى ضيق عليه الملاكون العقاريون الكبار مضطرا الى اعطاء احدهم قطعة ارضه فتغدو ملكية لهذا المالك العقارى . ومن ثم كان الفلاح يسترجع منه قطعة الارض نفسها ولكن لا كملكية له وانما ليستخدمها مدى الحياة او وراثيا . وكان الفلاح يقدم للملاك العقارى الكبير قسما من المنتوجات ويقوم ببعض الفرائض ، اما الملاك فكان يحميه من تطاول الملاكين العقاريين الآخرين . واحيانا كان الفلاح يتسلم ليس فقط قطعته السابقة بل ايضا قطعة اضافية . وبهذه الطريقة جذب الملاكون العقاريون الكبار ، بما فى ذلك الكنيسة (فى نهاية القرن الخامس «اعتنق» الافرنج المسيحية) ، القوة العاملة لفلاحة الاراضى التى لم تفلح بعد .

الاقطاعات مقابل الخدمة العسكرية

ان التطور اللاحق لانتشار الاقطاع في القرن الثامن كان مرتبطا بانقلاب اصيل في العلاقات العقارية في ذلك الوقت .

لقد كفوا عن تقديم الارض ملكية خاصة . وشرع ممثلو الطبقة السائدة الذين ينالون الاقطاعات ملزمين بالقيام بالخدمة العسكرية لمصلحة الملك . واصبحوا على رأس الكتائب العسكرية التي تشكل في اراضيهم . والاقطاعات كهذه لم تكن تنتقل بالوراثة ، لقد كانت تقدم فقط للاستخدام الشرطي مدى الحياة . وكان بالامكان انتزاع الاقطاع قبل ذلك اذا لم يقم نائله بواجبات الخدمة العسكرية . وفي حالة موت النائل كان الاقطاع يعود الى الملك او الى ولي العهد .

تكوّن النظام الاقطاعي . التبعية (الموالاة)

في القرنين التاسع والعاشر طرأ على طابع العلاقات العقارية تغيرات لاحقة . فقد اكتسب الاقطاع العسكري بالتدريج طابعا وراثيا .

ان نظام الاقطاع كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بما يسمى بالتبعية او الموالاة . وجوهر التبعية يكمن في ان كل مالك عقاري كان ملزما بالاعتراف بتبعيته لمالك اكبر وان يصبح مواليه وذاك سيده (مولاه) . كان الموالي ينال من سيده ملكية عقارية وكان ملزما بالقيام بالخدمة العسكرية لمصلحته .

في بادئ الامر كانت اقامة علاقات التبعية عملا يدخل في الحق الخاص . ولكن منذ النصف الثاني من القرن التاسع ، اصبحت التبعية الزامية طبقا لمراسيم الملك .

وتكوّن السلّم الهرمى الذى يميز تميزا تامـا التنظيم الحكومى والسياسى فى ظل الاقطاعية . فكان على رأس هذا السلم اكبر الاقطاعيين الذين آعتبروا انفسهم التابعين المباشرين للملك . وبعدهم جاء الملاكون الكبار الاصغر منهم ، واخيرا ، الحلقة السفلى فى هذه السلسلة كان الاقطاعيون الصغار الذين سموا فيما بعد بالفرسان .

القوى المنتجة فى المجتمع الاقطاعى

لغاية الحقبة المذكورة بلغ تطور علاقات الانتاج الجديدة مستوى يمكننـا معه التحدث عن السمات المميزة للتشكيلـة الاقطاعية ، لاسلوب الانتاج الاقطاعى .

ان القوى المنتجة هى الجزء الرئيسى فى الانتاج . ولذا من المهم تحديد مستوى تطورها فى لحظة تكون الاقطاعية .

لقد جاء انتشار المجاريث (الثقيلة والخفيفة) وبعض الادوات الزراعية الاخرى نتيجة لتحسين اساليب تكييف الحديد . وهذا بدوره ساعد على رفع انتاجية الزراعة : فادخلت بالتدريج الدورة الزراعية الثلاثية واتسعت المساحة المزروعة بالكروم . والعامل الاخير اجبر على البحث عن وسائل تطوير صنع الخمور . ولذا تحسن بانتظام عصر العنب . وظهرت وسائل تكنيكية اخرى ، مثلا طاحونة الهواء . وتحسنت طاحونة الماء التى وجدت منذ زمن امتلاك العبيد .

الا انه بغض النظر عن بعض التطور فان ما ميز الانتاج الاقطاعى فى هذه الحقبة هو ركود التكنيك . هذه الميزة تميز ، بدرجة مختلفة ، الاقتصاد الاقطاعى فى جميع مراحل تطوره .

نمت القوى المنتجة فى عهد القرون الوسطى المبكرة بصورة بطيئة جدا . وفقط بالتدريج حلت الدورة الزراعية الثلاثية

محل تبوير الارض والدورة الثنائية . واستخدم المحراث ذو السكة الحديدية لزراعة الحبوب ، ولكن عند سلف التربة كان الفلاحون يستخدمون ، كقاعدة ، قرمة خشبية يجرونها فى الحقل . وكان الدراس يجرى بواسطة مدقات خشبية او بمجرد عصى . ولم يستعمل الروث ، تقريبا ، لتسميد الحقول . وكانت نتيجة كل هذا انخفاض المحاصيل منتهى الانخفاض .

كانت حالة التكنيك هذه مرتبطة بسيطرة الانتاج الصغير الفلاحى (وفى المستقبل الحرفى كذلك) .

علاقات الانتاج الاقطاعية والملكية فى ظل الاقطاعية

ان مستوى تطور القوى المنتجة فى المجتمع الاقطاعى حدّد طابع علاقات الانتاج فى ظل الاقطاعية .

ومن اجل وصف جوهر هذه العلاقات من الضرورى قبل كل شيء تقرير شكل ملكية وسائل الانتاج ، ومن ثم اسلوب تحقيق هذه الملكية ، واسلوب توزيع المنتوجات ، واخيرا تقرير وضع مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية المرتبط بهذه العوامل ، وعلاقاتها المتبادلة فى عملية الانتاج .

ان وسيلة الانتاج الاساسية فى العصر الذى نحن بصدده ، وهى الارض ، كانت ملكية احتكارية للاقطاعيين . اما الارض الحرة الموجودة فى ملكية الفلاحين فكانت حالة استثنائية نادرة جدا .

كان الاسياد الاقطاعيون يحققون ملكيتهم باسلوب مزدوج . لقد كانت الارض حتى فى فترة تكوّن الارض الحرة تنقسم الى ثلاث فئات . البيت وما يلاصقه من ارض وحاكورة يعود للفلاح . ارض الفلاحة اعتبرت ملكية مشاعية ، ولكنها كانت توزع بانتظام توزيعا جديدا بين العائلات الفلاحية المنفردة من اجل الفلاحة .

اما الاحراش والمروج والاراضى الاخرى فكانت ملكية للمشاعية غير قابلة للقسمة .

في عصر تكون النظام الاقطاعى حوفظ على هذا التقسيم لدرجة معينة . ولكن قسما كبيرا من الارض المفلوحة اصبح تحت اشراف وكلاء الاقطاعى مباشرة . وهذا هو الاسلوب الاول الذى استخدم به الاقطاعيون حقهم الاحتكارى لملكية الارض . والاسلوب الثانى وجد جنبا الى جنب الاول ، وهو اقطاع الفلاحين قطعات من الارض يعملون عليها بدون اشراف مباشر من جانب الاقطاعيين . وكانت الاحراش والمراعى كذلك تخص الاقطاعى . غير ان بعض حقوق الفلاحين شملتها بوصفهم اعضاء المشاعية (كانوا يرعون الماشية ويصيدون السمك ، الخ .) .

لقد حافظ الفلاحون على بقايا المشاعية على مر القرون بشكل تنظيم اجتماعى خاص يدافع عن مصالحهم .

كان لا بدَّ من فلاحة الارض ، وهى موضوع الانتاج ، ومن ثم جمع الغلال . وبالتالى كانت تلزم عدا الارض الادوات الزراعية . وكان من الضرورى ايضا توفر الخيول وغيرها من الحيوانات . وكل هذا كان ملكا للاقطاعيين الذين كانوا يقدمون للفلاحين الادوات والماشية بشروط معينة . وهذا القسم من وسائل الانتاج غدا ملكية للفلاحين .

صفة الاقتصاد الطبيعية

ان اسلوبى استثمار عمل الفلاحين قد اشترطا سيطرة الانتاج الصغير . وقد عرقل تشتت وتبعثر القوى المنتجة تطوير اقتصاد المجتمع الاقطاعى . وحمل الاقتصاد الاقطاعى صفة طبيعية ، وهذه ايضا خاصة من خواص اسلوب الانتاج الاقطاعى .

لقد بقيت هذه السمة لدرجة معينة خلال العصر باكمله ، ولكنها ميزت على الاخص القرون الوسطى المبكرة .

كان هدف الانتاج فى هذا الوقت في كل اقطاعية سد حاجات بيت الاقطاعى الكنسى وغير الكنسى ، وفى املاك الملك سد حاجات البلاط الملكى . والحرفة التى انفصلت فى عصر امتلاك العبيد عن الزراعة نتيجة التدهور الاقتصادى ، اتحدت ثانية معها فى عهد انهيار امبراطورية روما . وكان الانتاج المحلى يسد ما يحتاج اليه الاقطاعى والفلاحون من المصنوعات الحرفية . وكل ما كان ينتج فى الاستثمارة الاقطاعية ، باستثناء الشىء القليل ، كان يستهلك فى الاستثمارة نفسها .

المنتوج الضرورى والزائد

ان جميع ما كان ينتج فى استثمارة الاقطاعى كان نتيجة عمل الفلاح .

يمكن تقسيم المنتوج الذى كان ينتجه الفلاح الى ثلاثة اقسام :

أ) قسم المنتوج الذى يمتلكه السيد الاقطاعى ؛

ب) قسم المنتوج الضرورى لاعالة الفلاح واسرته ؛

جـ) قسم المنتوج العام الذى استطاع الفلاح انتاجه فوق الحد الادنى الضرورى للحياة ، نتيجة لرفع انتاجية عمله .

ان القسمين الاخيرين يؤلفان ما يسمى بالمنتوج الضرورى ، والقسم الاول ــ المنتوج الزائد . وطبقا لهذا ، يمكن تقسيم عمل الفلاح ايضا الى عمل ضرورى وعمل زائد .

ونسبة حجم العمل الزائد (الاضافى) الى حجم العمل الضرورى تؤلف ما يسمى بمعدل الاستثمار . ان الفلاح لم يكن بعمله يعيد

انتاج قواه الخاصة وقوى اسرته وحسب . وكانت نفقات تجديد انتاج الاقتصاد تقع ايضا على كاهل المنتجين المباشرين ، اى انها كانت تغطى على حساب المنتوج الضرورى . فقط جزئيا كانت هذه النفقات تجد مصدرها فى المنتوج الزائد . ان ظروف حياة الفلاح (وفيما بعد الحرفى ايضا) كانت من الصعوبة لدرجة انه كان على العموم يضطر الى حرمان نفسه من المنتوجات الضرورية ليتمكن فقط من ضمان المحصول الكافى وتأدية الاتاوات والفرائض للمالك الاقطاعى .

الريع الاقطاعى بوصفه شكل تحقيق الملكية العقارية

ان المنتوج الزائد الذى كان يمتلكه الإقطاعيون كان يؤلف ما يسمى بالريع الاقطاعى الذى يمثل شكل تحقيق ملكيــة الاقطاعيين الاحتكارية للارض .

كان حصول الاسياد على الريع هو الهدف الموضوعى لمجمل الانتاج فى العصر الاقطاعى . وهذا السعى انحصر فى الحاجات الشخصية للاقطاعي واسرته وخدمه . اما سد حاجات الفلاحين (والحرفيين) فلم يعتبره الاقطاعيون الا واسطة لضمان الهدف الاساسى المذكور للانتاج ، الا وسيلة للابقاء على النشاط الحيوى للاقتصاد .

ان استثمارة الاقطاعى كانت منظمة كيّفتها الطبقة السائدة للحصول على الريع .

ومقادير الريع لم تحددهــا حاجـات الاقطاعيين والفلاحين الجسدية البحت . فغالبا ما كان الاقطاعيون ينتزعون من الفلاحين اكثر الاشياء ضرورة دافعينهم بذلك الى درك حياة التسول . كان مقدار الريع يتوقف على الاسباب التاريخية المعنية وقبل كل شيء

على نسبة القوى الطبقية للملاكين الاقطاعيين والمنتجين المباشرين . ولم تكن مقادير الريع متشابهة فى مختلف المناطق الجغرافية وفى مختلف المراحل .

تطور الريع الاقطاعي

لم تبق اشكال الريع الاقطاعى بلا تغير . فى البدء كان الفلاح مضطرا لان يعمل معظم وقته فى ارض السيد . وهذا ما يسمى بالريع-العمل (الريع الكدحى) ، او السخرة . وعلاوة على ذلك كان الفلاح يبنى مختلف التحصينات ويقوم بمهام نقل المنتوجات ويساهم فى الاعمال الحرفية .

ونظرا لارتفاع انتاجية عمل الفلاح ، وكذلك لارتفاع مستوى ثقافته الانتاجية اصبح من الأفيد للاقطاعيين ان ينقلوا مركز الثقل فى الانتاج الى الاستثمارات الفلاحية مباشرة . فاكتسب الريع طابعا عينيا . وهذه هى المرحلة الثانية فى تطور الريع الاقطاعى .

كان قسم كبير من الريع يعتبر مدفوعا مقابل استخدام الارض وادوات الانتاج التى يحصل عليها الفلاحون من الاقطاعيين . وكان هذا ما يسمى بفريضة الارض . وهى تشمل ايضا الدفع مقابل استخدام المراعى وغيرها من الاماكن والاراضى التى كانت فى السابق ملكية مشاعية وامتلكها الاقطاعيون .

ان اكثر اشكال الريع انتشارا فى عصر القرون الوسطى المبكرة كان الريع-العمل . وكان الريع العينى حالة استثنائية .

وفى عصر تطور المدن اكتسب الريع النقدى الاهمية الاولية . فقد كان الاقطاعى معنيا بالحصول على المنتوجات التى لا تنتج فى الاقطاعية فقط وانما فى الاماكن الاخرى ايضا ، ولذا بذل جهده للحصول على النقود من الفلاحين .

ان فرائض الارض فى عصر تطور الريع العينى ومن ثم الريع النقدى شكلت القسم الاساسى من الريع الاقطاعى . وكانت تدخل فى عداد المنتوج الزائد فرائض اخرى ، وقبل كل شىء المدفوعات المرتبطة بالتبعية الشخصية ، وكذلك الغرامات القضائية والادارية . كان يمكن ان يتكون النوع الاول من المدفوعات (مثلا فى فرنسا) مما يسمى بضريبة الرأس ، اى حسب عدد اعضاء الاسرة . وفى بعض الاماكن ، عند عقد زواج الفلاح كان السيد يملك «حق الليلة الاولى» . فيما بعد استعيض عن هذا الحق برسم معين يدفع عينا او نقدا . وبحكم التبعية الشخصية كان الفلاح يدفع للسيد اتاوة لقاء حق الارث . وفى بعض الاحيان كان عليه تقديم احسن رأس من الماشية ، ولبأس العيد او قطعة من اثاث المنزل . واخيرا كان الاقطاعى يفرض على الفلاحين حسبما يرتأى فرائض اخرى او رسوما (مقابل السماح بالزواج ، وبتغيير مكان السكن ، والتنازل عن الملكية لشخص ما ، الخ .) .

ان اهمية تبعية الفلاحين الشخصية والقضائية والادارية للاقطاعيين لم تنحصر بنيل المداخيل الاضافية . فالمغزى الرئيسى لاشكال تبعية الفلاحين هذه يكمن فى شىء آخر .

لقد احتوى دفع فرائض الارض على عناصر تبعية الفلاحين الاقتصادية . غير انه فى الظروف التى كان الفلاحون فيها ينالون الارض ويملكون ادوات الانتاج الخاصة بهم ، كان من الضرورى ، من اجل ارغامهم على تقديم قسم كبير من ثمار عملهم للاقطاعيين ، ان يتوفر اكراه معيّن غير اقتصادى ، كانت تلزم سلطة مباشرة للاقطاعى على شخصية الفلاح . وكان بامكان تبعية الفلاح

الشخصية ان تكون فى منتهى التنوع – من حالـة القنانة الى مرتبة الانتقاص من الحقوق .

وترتبط سلطة الاقطاعى القضائية والادارية ارتباطا وثيقا بسلطته على شخص الفلاح .

ان قيام الاكراه غير الاقتصادى كان احدى السمات المميزة لاسلوب الانتاج الاقطاعى .

فرضت تبعية الفلاح الشخصية فى مجتمع الافرنج فى آن واحد مع سلب اراضى الفلاحين والمشاعيات من قبل الملاكين الكبار . وكان الفلاحون المفلسون والمعدمون مضطرين الى وضع انفسهم تحت حماية الجيران الاقوياء للمحافظة على حياتهم وما تبقى لهم من ملكية فى ظروف الحروب والغزوات المستمرة بين الاقطاعيين الكبار . وكانت قد ظهرت اجنة هذه الظاهرة فى امبراطورية روما .

الدولة الاقطاعية المبكرة

ان تطور اشكال تبعية الفلاحين ، ولا سيما منها الشخصية والقضائية والادارية ، كان وثيق الصلة بتطور اشكال الدولة الاقطاعية الناشئة – البنـاء الفوقى فى المجتمع الاقطاعى . فى بادئ الامر كانت الوظيفة الرئيسية للدولة الاقطاعية المبكرة (مثلا ، مملكة الافرنج وغيرها من الممالك البربرية) قمع الحركات الشعبية التى قام بها العبيد والمستاجرون فى الاراضى المفتوحة ، وكذلك تحصيل الجزية من السكان الخاضعين فى ايطاليا وولايات روما . وفيما بعد غدا هدف الدولة كذلك اخضاع «خاصتها» من الفلاحين الذين كانوا فى وقت ما احرارا وامسوا فيما بعد اقنانا ومستثمرين . ونفذت الدولة الاقطاعية المبكرة بلا كلل وظيفتها الرئيسية وهى تعزيز سيادة الملاكين العقاريين .

ان التغيرات التى طرأت على التنظيم السياسى ولا سيما فى مجتمع الافرنج قد اشترطتهـــا التغيرات فى ميدان العلاقـــات الاجتماعية والاقتصادية . ونحو نهاية القرن الخامس تحولت سلطة زعيم القبيلة الحربى الانتخابية الى سلطة ملكية وراثية . وفى هذا المجال لعب الدور الحاسم الاستيلاء على ولايات روما الذى عجّل فى توطيد الطبقة السائدة ومنظمتها السياسية ـ الدولة . ومحل القوات الشعبية القديمة حل الجيش الاقطاعى المتكون فى الاساس من كتائب الاقطاعيين الكبار .

ان التقسيم القبلى السابق الى وحدات المئة والمديريات التى كانت توحد عدة مئات اصبح يعنى التقسيم الى وحدات اقليمية . وكانت السلطة القضائية والادارية فى المديرية فى يد موظف يعينه الملك ، هو الكونت الذى كان ياخذ لمصلحة الملك ثلث جميع الغرامات الحاصلة بموجب القضايا التى تنظر فيها المحاكم فى المديرية .

غير ان هذا التمركز الضعيف للغاية لادارة الدولة زادته ضعفا على ضعف منذ عهد حكم السلالة الاولى لملوك الافرنج ـ السلالة الميروفينجية ـ سلطة الملاكين الكبار المشتدة . واخذ الملك يمنحهم ما يسمى بالحصانة التى كان يسرى مفعولها على اقاليم معينة . وكان السيد الذى ينال الحصانة يتمتع بوضع مميّز . وانتقلت السلطة القضائية والادارية باكملها فى الاقاليم المعنية (كانت القضايا الجنائية فى بادئ الامر حالة استثنائية) الى السيد صاحب الحصانة . فكان يجبى الضرائب ويقود الكتائب العسكرية المتشكلة فى اراضيه .

تكونت دولة الافرنج الاقطاعية المبكرة بصورة نهائية فى

القرنين الثامن والتاسع . وسمتها المميزة هى التجزئة الاقطاعية والاستقلال السياسى لمختلف الملاكين العقاريين الكبار . وقد حافظت هذه السمة على اهميتها البالغة ايضا فى عهد قيام ما يسمى بالامبراطورية الكارولينجية التى سميت على اسم شارلمان الكبير (٧٦٨ـ٨١٤) والتى سرعان ما انهارت بعد موته .

التناحر الاساسى فى المجتمع الاقطاعى

ان مصدر مداخيل الاقطاعيين كان استثمارهم الفاضح للمنتجين المباشرين ـ الفلاحين (وفيما بعد للحرفيين ايضا) . وكان ميل معدل الاستثمار يتجه نحو الارتفاع . وكانت الاغلبية الساحقة من سكان المجتمع الاقطاعى تقع فى تبعية تامة لاقلية ضئيلة تملك الارض . وهذا ما حدد التناحر الاساسى فى المجتمع الاقطاعى .

بالاضافة الى الطبقتين الرئيسيتين المتناحرتين فى المجتمع الاقطاعى كانت هناك فئات اجتماعية اخرى ، ومنها مثلا فئة الحرفيين .

ان وضع مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية فى المجتمع الاقطاعى ، كما كان الامر كذلك فى عصر العبودية ، قد تميز بوجود المراتب ، اى الفئات المختلفة بوضعها الحقوقى . وفى بعض الحالات كانت الطبقة تنقسم الى عدة مراتب اجتماعية (مثلا ، انقسمت الطبقة السائدة فى القرون الوسطى الى اقطاعيين دينيين ودنيويين) . وفى حالات اخرى تحتوى المرتبة الواحدة (مثلا ، ما يسمى بـ «المرتبة الثالثة» فى فرنسا) على ممثلى مختلف الفئات الاجتماعية ، التى اصبحت فيما بعد طبقات وفئات طبقية مختلفة : فلاحين ، حرفيين ، تجار ، مرابين .

نضال الفلاحين ضد الاقطاعيين في عهد القرون الوسطى المبكرة

لقد شملت قيود القنانة الفلاحين الافرنج الاحرار في جو من الصراع الطبقي الضاري . وكانت اشكال هذا الصراع في منتهى التنوع — من هروب الفلاحين الاقنان الى الانتفاضات المسلحة السافرة .

ان أنتفاضات الفلاحين العفوية وغير الموحدة لم تتكلل بالنصر . ولكن النضال الطبقي الذى خاضته الجماهير الشعبية قد اضطر الاقطاعيين الى اقرار مقادير دائمة للفرائض ، الامر الذى حمى المنتجين المباشرين للخيرات المادية من تعسف المستثمرين غير المحدود .

وفيما بعد كانت مقادير هذه الفرائض رهنا بنسبة القوى الطبقية .

كان التنظيم السياسى فى مجتمع الافرنج الاقطاعى يستهدف بكليته قمع الجماهير الشعبية . وكان الاسياد الكبار يستخدمون احيانا قواتهم العسكرية الخاصة لمحاربة الفلاحين الثائرين . ولكن الدور الحاسم فى قمع الانتفاضات كان يعود لاجهزة السلطة الملكية بوصفها المعبرة عن مصالح طبقة الاقطاعيين برمتها .

السمات المميزة لتكون العلاقات الاقطاعية فى اوروبا الغربية

عند استخلاص حاصل ما قيل اعلاه ، تجدر الاشارة الى الخصائص الاساسية لتكوّن الاقطاعية فى اوروبا الغربية : انشاء ملكية عقارية اقطاعية كبرى وتقييد اغلبية الفلاحين الاحرار بقيود القنانة ؛ اندماج العبيد والمستأجرين الذين بقوا من العصر العبودى ، مع الفلاحين الاقنان . وقد اشترط هذا ظهور طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين التابعين للاقطاعيين الذين كانوا المنتجين الاساسيين للخيرات المادية . وقد ركز الاقطاعى

المالك العقارى فى يديه سلطة سياسية معينة . ثم ان مخلفات المشاعية الحرة عند القبائل الجرمانية بقيت فى المجتمع الاقطاعى ايضا بشكل تنظيم خاص للفلاحين الاقنان .

٢ ـ تكوّن العلاقات الاقطاعية فى اوروبا الشرقية

خصائص تطور الاقطاعية عند السلاف الشرقيين

لقد اتسمت عملية تكون الطبقات وقيام الدولة عند السلاف الشرقيين فى القرون ٦ـ٩ بعدة خصائص . ففى الاراضى التى كان يقطنهـــا السلاف الشرقيون لم تنتشر سلطة الدولة العبودية ، مثلما كان الحال فى مناطق اوروبا الغربية التى فتحتها روما . ولذا لم تؤثر العلاقات العبودية تاثيرا مباشرا على النظام الاجتماعى عند هذه القبائل . وقد اخذ النظام المشاعى البدائى يتفسخ هنا بينما كان النظام العبودى قد ولى زمنه فى تلك المناطق التى كان للسلاف معها وان صلات طفيفة . لقد جاء السلاف الشرقيون فى سياق تكوّن الطبقات الى الاقطاعية مجتنبين التشكيلة العبودية . ففى القرنين التاسع والعاشر تكونت الطبقتان الاساسيتان فى المجتمع الاقطاعى ، اذ تحول المشاعيون الاحرار الى فلاحين تابعين يستثمرهم الاقطاعيون مالكو الارض .

روسيا كييف

تكونت فى القرن التاسع دولة اقطاعية مبكرة مركزها مدينة كييف . وكانت قبيلة الروس اساس هذه الدولة . وفى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر توحدت تدريجيا حول هذه القبيلة اكثرية قبائل السلاف الشرقيين .

نحو بداية القرن الحادى عشر كانت تدخل فى نطاق هذه الدولة ألاقطاعية المبكرة - روسيا كييف (كما اصبحت تسمى باسم القبيلة الآنفة الذكر) الاراضى الممتدة على طول نهر اوكا، وفى الجانب الايمن من ضفة نهر الدنيبر، وضفة الدنيبر اليسرى، والاراضى الممتدة حتى نهر الدون وشمال القفقاس، والاراضى الواقعة ما وراء نهر الدنيستر وفى الكاربات . وفى تبعية روسيا كييف كانت مدينة نوفغورود واراضى ايلمين المتاخمة لها .

كانت السلطة العليا تخص امير كييف الكبير . واستند الامير الكبير الى عصبته الحربية التى اشترك افرادها فى بحث شؤون الدولة .

كان الامير الكبير يجبى الاتاوات فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر من سكان بعض المناطق . وكانت ما تزال فى هذه الاماكن مخلفات قوية للعلاقات العشائرية القبلية . وكان القسم الآخر من الارض ملكية للاقطاعيين . وكان بعض هذه الممتلكات ينتقل بالوراثة، والبعض الآخر يقدم للاقطاعيين بصورة موقتة، وعلى هؤلاء ان يقوموا بالمقابل بالخدمة العسكرية لمصلحة الامير الكبير .

ان عدد الفلاحين الاحرار الذين كانوا يدفعون الجزية لخزينة الامير كان ينقص على الدوام . وقد ادى انتقال اراضى الفلاحين الى ايدى مختلف الاقطاعيين الى تكبيل الفلاحين بقيود القنانة .

وظهرت العلاقات العبودية فى روسيا كييف فى حالة جنينية ولم تتطور تطورا لاحقا .

كان الفلاحون التابعون يعملون فى استثمارة السيد، ويدفعون كذلك الضريبة العينية، اى انه كان يقوم فى ذلك الوقت سواء شكل الريع-العمل (السخرة) او شكل الريع العينى .

ان نمو القوى المنتجة كان اساس تطور العلاقات الاقطاعية فى روسيا كييف . وكانت زراعة الحبوب هى السائدة فى الزراعة . وفى المناطق الجنوبية استخدم المحراث ذو السكة الحديدية . واكثر انظمة الزراعة انتشارا كان نظام التبوير او حرث الارض وتركها لترتاح . ولكن اخذت تظهر انظمة الدورة الثنائية والدورة الثلاثية فى الزراعة .

كذلك تطورت الحرف التى اخذت تنفصل شيئا فشيئا عن الزراعة . اما الحرفيون الذين بقوا فى الريف فاصبحوا تابعين للاقطاعيين . ولكن الحرفيين القاطنين حول قصور الامراء المحصنة كونوا بلدات حرفية-تجارية وتدريجيا تكونت المدن كمراكز للحرف . فى هذا المجال سبقت روسيا كييف اوروبا الغربية حيث جرت هذه العملية فى عهد العلاقات الاقطاعية المتطورة . لقد جاء فى المخطوطات ذكر ٨٩ مدينة وجدت فى روسيا فى القرن الحادى عشر .

كان عدد الاختصاصات الحرفية فى القرن الثانى عشر فى المدن الروسية القديمة اكثر من ٦٠ اختصاصا تنتج حتى ١٥٠ نوعا من مصنوعات الحديد والفولاذ وحدها . وبلغ الحرفيون الروس مستوى رفيعا من الاتقان فى صنع أدوات العمل والاسلحة ومختلف المجوهرات . الا ان التطور غير الكافى للتقسيم الاجتماعى للعمل فى البلاد والطابع الطبيعى للاقتصاد قد اعاقا اتساع الصلات التجارية الداخلية .

وعن تطور الحضارة الرفيع فى المدن الروسية القديمة تروى آثار الكتابة فى روسيا القديمة ، المكتشفة اثناء التنقيب عن الآثار القديمة فى نوفغورود .

كانت التجارة الخارجية اكثر تطورا . فقد كان بالامكان مشاهدة التجار الروس فى الخلافة العربية وبيزنطية وبلاد التشيك وبولونيا

والمانيا وسكانديناڤيا . لقد كانوا يبيعون الفراء والشمع والعسل وصمغ الصنوبر وانسجة الكتان والحلى والاسلحة ، الخ .. ويشترون من البلدان النائية مواد الترف والخمور والفواكه ومختلف التوابل .

كانت روسيا كييف فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر دولة قوية سريعة التطور فى الميدان الاقتصادى . وقد قام جبروتها على استثمار الفلاحين والحرفيين بضراوة ، ولذا كان هؤلاء غالبا ما ينهضون للنضال ضد ظالميهم .

واكبر الانتفاضات كانت انتفاضة عام ١١١٣ فى كييف . فتحت ضغط الجماهير اضطرت سلطة الامير الى القيام ببعض التنازلات .

دور دولة كييف فى المسرح الدولى

لعبت الدولة الروسية الاقطاعية المبكرة دورا كبيرا فى تعزيز سيطرة الاقطاعيين . ان اكثر ممثلى طبقة الاقطاعيين شهرة فى التاريخ وممن عملوا الكثير من اجل تعزيز سيطرة هذه الطبقة هم الامراء الكبار فلاديمير سفياتوسلاڤيتش (٩٨٠ ــ ١٠١٥) ، وابنــه ياروسلاف فلاديميروفيتش ، الملقب ياروسلاف الحكيم (١٠١٩ــ١٠٥٤) ، وفلاديمير فسيفولودوفيتش مونوماخ حفيد ياروسلاف (١١١٣ــ١١٢٥) . وفى نهاية القرن العاشر اعلن فلاديمير سفياتوسلاڤيتش المسيحية دين الدولة هادفا بذلك تعزيز مكانة سلطة الامير . وجاءت المسيحية الى روسيا من بيزنطية . فى هذه الاثناء كانت الفروق السياسية والاجتماعية والثقافية بين بيزنطية وبلدان اوروبا الغربية قد ادت الى نزاع حاد فى الآراء وصراع مكشوف بين ممثلى الكنيسة المسيحية الشرقية والغربية . وفى عام ١٠٥٤ تمت القطيعة النهائية بينهما . ان كلا من الكنيستين ادعت لنفسها دور الكنيسة العالمية الواحدة : الكنيسة الكاثوليكية

فى اللفظ الغربى ، والكافوليكية فى اللفظ الشرقى . ولذا بدأوا يسمون الكنيسة الغربية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والشرقية الكنيسة الكافوليكية اليونانية ، او اليونانية البيزنطية . واخذت الكنيسة الشرقية تسمى نفسها كذلك الكنيسة «الارثوذكسية» (القويمة الايمان) .

فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان للدولة الروسية القديمة مكانة كبيرة على المسرح الدولى . وبالاضافة الى الصلات التجارية تطورت العلاقات السياسية والثقافية مع بلدان اوروبا وبيزنطية ، مما يشهد على الاهمية العالمية للدولة الروسية القديمة .

وقد اقام الكثيرون من ملوك اوروبا الغربية علاقات نسب مع امراء كييف .

وثمة آثار تاريخية وادبية كثيرة ورد فيها ذكر الارض الروسية وسكانها : فى مخطوطات الرحالة العرب والمؤرخين البيزنطيين ، فى الاساطير السكانديناڤية ، فى ملحمتى «رولان» الفرنسية ، و«نيبلونغنليد» الالمانية ، وفى غيرها .

الا ان الغزو المغولى فى القرن الثانى عشر اوقف التطور الاقتصادى والسياسى فى دولة كييف . ان التجزئة الاقطاعية المتفاقمة والتفكك الاقليمى فى ذلك الوقت سهلا على المغول فتح روسيا .

٣ ـ تكوّن الاقطاعية فى بلدان آسيا وافريقيا

تكونت وتطورت العلاقات الاقطاعية فى بلدان آسيا وافريقيا بطريقة خاصة . ففى آسيا تكونت العلاقات الاقطاعية بطرق مختلفة فى مختلف البلدان .

جرى تكوّن الاقطاعية فى الصين منذ القرن الثالث الميلادى (وبموجب بعض المعطيات فى زمن ابكر) . وفى المجال السياسى جاء ذلك مع تفسخ الدولة الصينية القديمة ـ امبراطورية هان ، وما هتبعها من توحيد جديد للبلاد فى نطاق امبراطورية تسزين . ان خاصة تطور العلاقات الاقطاعية فى الصين هى ان الطبقة السائدة اقامت ملكيتها الاحتكارية للارض والماء ليس بشكل ملكية فردية وانما بشكل ملكية الدولة . وقد ارتبطت هذه العملية ، كما ارتبطت اقامة ملكية الدولة فى عصر العبودية ، بمركزة معينة للاشغال العامة ، وببناء التحصينات الدفاعية على نطاق واسع . وفى هذا الوقت بالذات ، ابتدأ بناء سور الصين العظيم .

فى عهد اول امبراطور من سلالة تسزين ، وهو سيما يان اوـدى (٢٦٥ــ٢٩٠) سن قانون نال الفلاح بموجبه من الدولة حصة من الارض تنقسم الى قسمين . احدهما كان يفلحه لمصلحته ويقدم غلال القسم الآخر كليـــا الى الدولة . وفضلا عن هذا ، كان على الفلاحين ان يقوموا بصيانة منشآت الرى وتجفيف التربة وبناء تحصينات الدفاع . لقد كان هذا شكلا فريدا للريع-العمل . غير ان العمل فى اراضى السيد الاقطاعى ، الذى كان منتشرا فى اوروبا ، كان غير موجود تقريبا فى الصين . وكانت ممتلكات الاقطاعيين من الارض قليلة العدد . اما المحاولة الرامية لتنظيم حقول للدولة يعمل فيها الفلاحون فلم تتكلل بالنجاح .

لقد سعت الدولة الاقطاعية الى ربط الفلاحين بالارض وسعت فى الوقت نفسه الى اتاحة الفرصة لهم للقيام ببعض المبادرة فى الاقتصاد . لهذا السبب اصبح الشكل العيني للريع هو الغالب .

تحت تأثير العلاقات الاقطاعية النامية فى الصين ، تكون النظام الاقطاعى فى اليابان وكوريا . ان كلا البلدين استطاع الانتقال الى الاقطاعية مباشرة من النظام المشاعى البدائى ، دون المرور ، من حيث الاساس ، بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية العبودية . ففى اليابان بدأت العلاقات الاقطاعية تتكون منذ القرن الرابع . وقد بقيت العبودية فى غضون زمن طويل . الا ان العبيد لم يشغلوا مكانا بارزا فى الانتاج .

ان القسم الاكبر من الارض ومنشآت الرى فى اليابان اصبح ملكا للدولة الاقطاعية . وبموجب البيان الامبراطورى الصادر فى عام ٦٤٦ ، الغى حق التمتع الخاص بالارض . فتحول الفلاحون الى متسلمين لما تقتطعه لهم الدولة من ارض . وكانوا يدفعون الريع العينى من المنتوجات الزراعية والمصنوعات الحرفية ، ويشاركون كذلك فى الاشغال العامة .

وغالبا ما كان يظهر بين الدولة ، بصفتها المعبر الجماعى عن مصالح طبقة الاقطاعيين السائدة وبين الفلاحين ، ملاكون منفردون — هم الاسياد ألاقطاعيون . كان هؤلاء يملكون ما يسمى باقطاعات الارض الملتزمة وكانوا بالمقابل ملزمين بالخدمة العسكرية . وهذه الاقطاعات كان يفلحها الفلاحون ايضا . لقد تكون فى اليابان سلم هرمى لملكية الارض . ومثل هذا السلم الهرمى ، تكون بهذا الشكل او ذاك ، فى جميع بلدان آسيا التى تطورت فيها الاقطاعية .

وفى القرن الخامس اخذت العلاقات الاقطاعية ترسخ كذلك فى الهند الصينية . وكانت قد نشأت هنا قبل ذلك دولتان . احداهما دولة ليني او تشامبا وشغلت أراضى الفييتنام المركزية

الحالية وقسما من جنوب الفييتنام . وتكونت الدولة الثانية فى القسم الجنوبى من شبه جزيرة الهند الصينية وهى دولة فونان . وكان سكانها فى الغالب من قوم خمير .

فى زمن التجزئة الاقطاعية التى شملت البلاد فى القرن الخامس انفصلت اراض تقع فى القسم الشمالى من دولة فونان — فى كمبوديا الحالية ، وظهرت دولة اقطاعية جديدة كبرى وحدت اراضى فونان كلها وسماها الصينيون تشيندا . ولم يرتبط اسم كمبوديا بهذه الدولة الا فى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر .

المجتمع الاقطاعى مع بقاء العبودية البدائية . الهند

ان المجتمع الاقطاعى الاكثر نموذجية الذى أبقى على العبودية البدائية هو المجتمع الهندى الذى لم يتعرض لتاثير من الخارج . كان التفوق هنا للعبودية الابوية (البطريركية) ، وكانت قوية كذلك مخلفات النظام المشاعى البدائى .

انشأت العلاقات الاقطاعية فى الهند فى القرنين الخامس والسادس . وكانت المشاعية الزراعية تتسم كالسابق بطابع مغلق طبيعى . وكان الانتاج الحرفى فى المدن يستهدف فى الغالب سد حاجات الاريستقراطية من اسياد العبيد . وغالبا ما كان يجرى تبادل مصنوعات الحرف بين المدن الكبرى .

تطورت القوى المنتجة فى الهند تطورا بطيئا ووجدت تعبيرها على الاخص فى استخدام الادوات الحديدية فى الزراعة على نطاق اوسع . وكانت العلاقات العبودية القائمة تعيق تطور القوى المنتجة . واخذ عمل العبيد يغدو أقل فاقل فائدة . واكثر فاكثر شرع الملاكون العقاريون الكبار يقطعون عبيدهم قطعا صغيرة من الارض ، يكون العبيد مقابلها ملزمين باداء

مختلف انواع الفرائض . وكان بعض الملاكين يؤجرون قطعا منفردة من الارض الى الفلاحين الاحرار . وكان هؤلاء ملزمين بان يقدموا لمالك الارض قسما معينا من المحصول .

وبالتطابق مع تطور اشكال الاستثمار الاقطاعية الجديدة فى الهند ، تغيرت ايضا اشكال ممارسة الاقتصاد الفلاحى . فانقسمت المشاعية العشيرية الى عائلات فردية كانت تمارس اقتصادها الصغير . وقد أدت تجزئة املاك الفلاحين الى تطور عدم المساواة فى التملك والى املاق عدد كبير من المزارعين . وزاد هذا من احتدام التناقضات الاجتماعية . وظهر النزاع كذلك داخل الطبقة السائدة بين اريستقراطية اسياد العبيد الكبيرة التى تضع يدها على جهاز الدولة وبين ألاقطاعيين الناشئين .

وكل هذا افضى الى اضعاف دولة الغوبتيين العبودية التى دامت قرونـــا وقرونا والى سقوطها تحت ضغط غزوات الرحل الايفتاليتيين على تخوم القرنين الخامس والسادس .

ان سيطرة الايفتاليتيين فى الهند لم تـدم طويلا ؛ فقـد انهارت دولتهم قبيل عام ٥٤٠ . وعلى انقاض الدولة الكبرى الواحدة ظهر عدد كبير من الدويلات المستقلة اخذت تنتشر فيها الاقطاعية .

تطور العلاقات الاقطاعية على اساس انحلال النظام المشاعي البدائى عند قبائل الرحل

ينبغىُ إعتبار الدول التى ظهرت فى جزيرة العرب المجموعة الثالثة من البلدان من حيث طراز تكون العلاقات الاقطاعية . ان الدول العربية العبودية المبكرة قد تفسخت وظهرت ثانية فى غضون الالف الثانى والاول قبل الميلاد . فقط المملكة الحميرية التى كانت تقوم فى اراضى اليمن الحالية دامت حتى بداية القرن

السادس بعد الميلاد . وفيما بعد لم يبق الا مدن-دول عبودية منفردة من طراز مكة ويثرب (المدينة) . غير ان العلاقات العبودية وجدت فى جزيرة العرب بشكل غير مكتمل التطور . اما العلاقات الاقطاعية فبدأت تتطور هنا فى القرن السابع . وقد تكونت هذه العلاقات على اساس انحلال العلاقات المشاعية البدائية عند قبائل الرحل .

كانت القبائل العربية القاطنة جزيرة العرب تنقسم من حيث المنشأ السلالى الى عرب الجنوب ، او القبائل اليمنية ، وعرب الشمال . وكانت الزراعة الفرع الاساسى فى اقتصاد المملكة الحميرية . الا ان القسم الاكبر من العرب بقى من الرحل البدو ، اذ ان امكانيات تطور تربية المواشى المتنقلة فى جزيرة العرب كانت اكبر من امكانيات تطور الزراعة .

ان تطور تربية المواشى واتساع الصلات التجارية بين القبائل قد اتاحا لحفنة من زعماء القبيلة ان تركز فى يديها ثروات كبيرة ، وعلى الاخص الماشية والمراعى . وعلى هذا الاساس جرى انفصال وبروز عائلات غنية منفردة . اما سواد اعضاء القبيلة فازداد فقرا ووقع فى التبعية الاقتصادية للعائلات الغنية . كان رئيس (شيخ) القبيلة ينتخب شكليا من قبل القبيلة بأسرها ، ولكن كقاعدة من العشيرة او العائلة الغنية .

على هذا النحو نشأت داخل القبائل والعشائر فئة اجتماعية جديدة ، يتعلق سلطانها ونفوذها قبل كل شيء على مقدار ما تملك من ماشية ومراع . وبدأت تتكون طبقة الاقطاعيين . وظهر اتجاه لتاسيس الدولة كجهاز لقمع الجماهير الشعبية المستثمرة .

تكونت فى شمال جزيرة العرب دولتان اقطاعيتان – هما الدولتان اللخمية والغسانية ، وكان على رأسهما ملوك من قبيلتى

لخم وغسان . غير ان هاتين الدولتين لم تعمرا طويلا ؛ فقد دامتا من القرن الثانى حتى السابع الميلادى .

لقد تكونت العلاقات الاقطاعية فى كل مكان فى بلدان آسيا فى جو من النضال العنيف خاضته الجماهير الشعبية ضد سيطرة المستثمرين .

نشوء العلاقات الاقطاعية فى القارة الافريقية

ان تكوّن وتطور العلاقات الاقطاعية فى بلدان شمال افريقيا ، وكذلك فى المناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، كانت لهما سمات كثيرة مشابهة لعملية انتشار الاقطاعية فى اوروبا وآسيا .

كانت دولة غانا احدى الدول القديمة ذات الطراز الاقطاعى . ومن المفترض انها قد ظهرت فى القرن السابع ما بين نهرى السنغال والنيجر حيث كانت تعيش الشعوب الناطقة بلغات فئة مانده (بامبارا ، الخ .) . ان التفصيلات المتعلقة بالبناء الاجتماعى والاقتصادى فى مجتمع غانا لم تعرف بعد . وكل ما عرف هو انه كان على رأس الدولة حكام اقطاعيون . وفى نهاية القرن الثامن انتقلت السلطة الى سلالة سيسى تونكارا . وواقع ان وراثة سلطة الملك كانت تجرى عن طريق المرأة (من الخال الى ابن الأخت) يشهد على وجود مخلفات معينة للعلاقات المشاعية البدائية . كذلك بقيت عناصر العبودية . وبغية الاستيلاء على العبيد كان حكام غانا ينظمون الحملات على المناطق المجاورة .

ان التقسيم الاجتماعى للعمل كان ، على ما يبدو ، ضعيفا ، لان الاهمية الحاسمة لم تكن للتجارة الداخلية وانما للتجارة الخارجية . وكان يصدّر فى الغالب الملح والذهب . وكانت التجارة تجرى فى الاساس مع بلدان المغرب .

وقد تكونت فى مدن غانا ، فى جينا وغيرها ، عدة مراكز تجارية . وساعد تطور المدن على انتشار الثقافة ، وبصورة خاصة على انشاء المدارس .

السمات المميزة لاسلوب الانتاج الاقطاعى

تلخيصا لما قيل اعلاه ، يمكننا ان نقول بان ما يميز اسلوب الانتاج الاقطاعى هو ملكية الاقطاعيين الاحتكارية لوسائل الانتاج الاساسية — الارض وادوات العمل . وعن تسليمها للمنتج المباشر ، هذا التسليم المنبثق من طابع الملكية فى ظل الاقطاعية ، نشأ ربط الفلاح بالارض — اى التبعية الاقتصادية والاكراه الاقتصادى . فى الوقت نفسه قامت تبعية الفلاح الشخصية للسيد . ولولا هذا الاكراه غير الاقتصادى ، لما استطاع الاقطاعى ارغام الفلاح على العمل لمصلحته . ان اشكال ودرجات هذا الاكراه كانت مختلفة ، ابتداء من حالة القنانة وانتهاء بعدم مساواة الفلاحين فى الحقوق بوصفهم مرتبة اجتماعية .

كان الاقتصاد الاقطاعى يتسم بطابع طبيعى مغلق وكانت صلته ضعيفة جدا ببقية العالم . وكانت حالة التكنيك المتدنية والراكدة للغاية شرط ونتيجة لنظام الاقتصاد الاقطاعى .

ان اسلوب الانتاج الاقطاعى من حيث جوهره كان اكثر تقدما من اسلوب الانتاج العبودى ، رغم انه قام ايضا على اساس استثمار الاقلية السائدة للاكثرية الكادحة . وكان للفلاح القن ، خلافا للعبد ، اسرته واقتصاده الخاص الصغير ، ولذا كان معنيا بعمله .

ان اهتمام المنتج المباشر بعمله اصبح اساسا لتطور القوى المنتجة فى المجتمع الاقطاعى .

جوهر الاقطاعية فى شروح الكتاب البرجوازيين

ان الفهم المادى لتطور الاقطاعية ومراحلها يعارضه التفسير المثالى لتاريخ المجتمع فى القرون الوسطى . ان اصطلاح «القرون الوسطى» وارد فى الادب البرجوازى كذلك . وقد ادخله الانسانيون الطليان لكى يعنى مرحلة الوسط بين عصر الحضارة القديمة فى اليونان وروما وعصر انبعاث هذه الحضارة فى ايطاليا وغيرها من بلدان اوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، اى عصر النهضة .

وفيما بعد تثبّت فى كتب المؤلفين البرجوازيين تقسيم التاريخ الى التاريخ القديم والاوسط والجديد . ولكن اكثرية العلماء الغربيين لا تربط هذه المصطلحات باية تطورات اجتماعية اقتصادية كانت ، بل تعتبرها تسميات اصطلاحية لا غير . فبعض العلماء البرجوازيين يرجعون بداية القرون الوسطى الى السنوات الاولى لعصر «المسيحية» ، ويرجعها آخرون الى حقبة تصفية امبراطورية روما الغربية . ويحدد المؤلفون البرجوازيون نهاية القرون الوسطى بصورة مختلفة كذلك من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر . والهدف الاساسى هنا لعلم التاريخ البرجوازى هو السعى للبرهنة على انه لم يحدث انقلاب ثورى فى العلاقات الاجتماعية عند الانتقال من العصر القديم الى القرون الوسطى .

ان مختلف الكتاب البرجوازيين قد عالجوا وهم يعالجون هذه المسألة تبعا لمفاهيمهم السياسية . وفى هذا الموضوع تركز الاهتمام على مسألتين : اهمية ومغزى هجوم القبائل الجرمانية ودور المشاعية الجرمانية ـ ماركا ـ فى التاريخ اللاحق للدول التى نشأت على اراضى امبراطورية روما السابقة . ان المؤرخين الالمان فى القرن التاسع عشر ذوى النزعة الشوفينية ـ فيتز ،

وزوم ، وبرونير وغيرهم ـ بذلوا جهودهم لتصوير سقوط امبراطورية روما على انه انتصار «الروح القومية» الالمانية على مجتمع روما المتفسخ . هذا وقد تجاهلوا دور المشاعية فى تكوين العلاقات الاجتماعية الجديدة . اما المؤرخ الفرنسي فوستيل دى كولانج (الربع الثالث من القرن التاسع عشر) فقد تجاهل مجرد واقع وجود مشاعية الارض . وسعيا منه لاثبات سرمدية الملكية الكبرى واستثمار الاريستقراطية للجماهير الشعبية ، دافع عما يسمى بنظرية الاقطاعة . فهو يزعم زعما لا يقوم على برهان بان المشاعية الحرة ـ ماركا ـ لم توجد ابدا ، وان اساس الحياة الاقتصادية فى القرون الوسطى هى ، على حد زعمه ، الضيعة الكبيرة ، الاقطاعة ، التى وكانها انتقلت بشكلها الجاهز الى القرون الوسطى من عصر امبراطورية روما المتاخرة .

ان فوستيل دى كولانج وكذلك دوبو وهو مؤرخ فرنسى آخر ، والمؤرخ الانكليزى سيبوم قد انكروا فتح الجرمان لامبراطورية روما وزعموا بان الذى حدث هو فقط تغلغل القبائل الجرمانية تدريجيا فى مجتمع روما ، وبان هذا التغلغل لم يغير شيئا فى طابع هذا المجتمع .

وقد عارض فوستيل دى كولانج بمفهومه هذا ما يسمى بنظرية المشاعية . غير ان المؤرخين البرجوازيين انصار هذه النظرية ـ العالم الالمانى ماورير وآخرين ـ قد تصوروا بشكل خاطئ الدور الحقيقى للنظام المشاعى البدائى عند القبائل الجرمانية ، وعلى الاخص المشاعية ، فى تكوّن الاقطاعية وتطورها اللاحق . فقد اعتبر ماورير المشاعية اساسا ثابتا لمجمل حياة مجتمع القرون الوسطى ، جرى اقتباسه بصورة تامة عن الجرمان القدماء .

كذلك سعى المؤرخ الرجعى دوبش جهده لاثبات انعدام القفزة عند الانتقال الى القرون الوسطى . فهو يزعم ان القبائل

الجرمانية القديمة لم تلحق أى اذى بحضارة روما وانها اصبحت وريثتها وحاميتها . وزعم ايضا ان نظامها الاجتماعى لم يتميز بشيء على الاطلاق عن نظام مجتمع روما . ان كل هذا ، برأى دوبش ، يبرهن على الانعدام التام للانقلاب الثورى عند الانتقال الى القرون الوسطى . كذلك زعم دوبش ان جوهر هذا المجتمع وذاك هو الملكية الخاصة الكبيرة الموجودة منذ الازل . ان وجهات نظره فى هذا المجال تتجاوب من نواح كثيرة مع مفاهيم الكتاب البرجوازيين المعاصرين .

كذلك يستعمل المؤرخون البرجوازيون اصطلاح «الاقطاعية» ولكنهم يضمنونه مضمونا آخر يختلف عن المعروض اعلاه . ولكنه يمكن ملاحظة بعض التطور فى آرائهم المتعلقة بهذا المفهوم .

وفى اواسط القرن التاسع عشر نظر المؤرخون البرجوازيون ، ومنهم فرانسوا بيار غيزو وآخرون الى الاقطاعية بوصفها نظام علاقات تبعية ، واعتبروا ان سمتها الاساسية هى التجزئة السياسية . ولم يعترفوا بفكرة تطور المجتمع البشرى وانكروا تبدل التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية . وقد ربطوا التبعية بعلاقات الارض المبكرة وبسيطرة نظام الاقطاعة .

ثم ان احد كبار المؤرخين البرجوازيين فى النصف الاول من القرن العشرين وهو هنرى سى ، اعتبر الاقطاعية تجزئة سياسية . ولم ير سى الفرق بين اللاتيفونديات فى روما والضيعة الاقطاعية فى القرون الوسطى . فالملكية الاقطاعية ، برأى سى ، هى ملك يخص صاحبه بصورة تامة غير منقوصة .

لقد ابتعد المؤرخون البرجوازيون المعاصرون اكثر من قبل عن الفهم العلمى لاصطلاح «الاقطاعية» . مثلا ، يعتبر المؤرخان الاميركيان شتراير وكولبورن ان الاقطاعية ليست

تظام علاقات اجتماعية معينة بل هى تعبير اصطلاحى محض جرى تفسيره باشكال مختلفة فى مختلف الاوقات . ان الاقطاعية ، من وجهة نظرهما ، هى قبل كل شىء «طريقة للحكم» وليست نظاما اقتصاديا واجتماعيا ، وهى طريقة كانت تتغير على الدوام ؛ ولا ترتبط الاقطاعية ، على حد زعمهما ، الا اصطلاحيا بملكية الارض ، بالاقطاعة . وهما يعتبران سلطة السيد الاقطاعى السياسية خالية من اية صلة بالتطورات الاجتماعية والسياسية . لذا يجدان الاقطاعية بنفس القدر من السهولة فى الالف الثالث ق . م . فيما بين النهرين وفى مصر القديمة ، فى الالف الاول ق . م . فى الصين وجزيرة العرب ، فى اوروبا الغربية والشرقية . اما الهند وروسيا ، حسب زعم شتراير وكولبورن ، فقد تجنبتا الاقطاعية فى تطورهما .

ان آراء شتراير وكولبورن نموذجية بالنسبة لذلك القسم من المؤرخين البرجوازيين الذين لا يعترفون بتقسيم تاريخ المجتمع تقسيما علميا الى مراحل ويتجاهلون الوقائع الحقيقية المحسوسة فى الماضى والحاضر ، اذا كانت تناقض مفاهيمهم السياسية .

الفصل الثانى

عصر الاقطاعية المتطورة

١ ـ نمو الحرفة والتجارة

ان السمة المميزة للاقطاعيـــة المتطورة هى نشوء ونمو المدن كمراكز للحرف والتجارة ، كمراكز للانتاج البضاعى . وكانت قد توقفت عملية انفصال الحرف عن الزراعة التى بدأت فى العصر البدائى وتطورت بصورة ملحوظة فى العصر العبودى . وارتبط انحطاط الدول العبودية وثيق الارتباط بالانحطاط الاقتصادى . ولم تبق المدن كمراكز تجارية وحرفية . الا ان بعض المدن فى آسيا وشمال افريقيا كان يشكل بعض الاستثناء .

والمرحلة الجديدة فى انفصـــال الحرف عن الزراعـــة فى ظروف الاقطاعية لم تحدث دفعة واحدة بل كانت نتيجة لعملية معقدة من التطور . واساس هذه العملية هو نمو القوى المنتجة فى المجتمع الاقطاعى .

تخصص الحرفيين

جرت عملية انفصال الحرف عن الزراعة بمزيد من الوضوح فى اوروبا الغربية ، وعلى الاخص فى فرنسا . فهنا كان عدد كبير من الفلاحين يدفعون للسيد ريعا عينيا ليس فقط من المنتوجات الزراعية ، بل ايضا من المصنوعـــات الحرفية ، وفى الغالب من المنسوجات ـ اقمشة الجوخ والكتان . ومع مرور

الوقت تحسنت الادوات الزراعية ، وبالدرجة الاولى انتشر انتشارا واسعا المحراث ذو السكة الحديدية ؛ واستعيض نهائيا عن انظمة الزراعة القائمة على تقطيع الغابات وتبوير الارض لترتاح بالدورة الثنائية والثلاثية فى الزراعة ، وتطورت زراعة الحواكير والبساتين والكروم . واخذت الاسرة الفلاحية تخصص مزيدا من الوقت للانصراف الى الحرفة . وراح بعض اعضائها يتخصصون بفرع ما من العمل الحرفى .

وقد انفصل وبرز قبل غيرهما اختصاصا الحداد وصانع الآنية الفخارية ، وتطور تكنيك البناء . ولعب انتشار طواحين الماء دورا هاما فى تطوير الانتاج . ومن حين لآخر اخذوا يبنون المبانى الحجرية الكبيرة . واصبح ممثلو الطبقة السائدة يفضلون الملابس الصوفية على الكتانية ، الامر الذى ادى الى تنامى انتاج الانسجة الصوفية . وتزايد باستمرار عدد الفلاحين الذين اضحوا حرفيين متخصصين .

كان بعض الفلاحين يدفع للسيد كل الريع مصنوعـــات حرفية . وغالبا ما كان هؤلاء الحرفيون يخدمون اهالى قريتهم مما اتاح لهم فرصة تكديس مبالغ معينة من النقود . وعلى الرغم من انهم بقوا فلاحين ، الا ان الزراعة لم تبق بالنسبة لهم المصدر الوحيد لمقومات حياتهم .

قيام صلة الحرفى بالسوق

ان المرحلة الجديدة فى تطور الحرف هى قيام صلة الحرفى بالسوق . فحتى فى مرحلة تثبيت اقدام الاقطاعية ، كان الفلاحون الذين يزاولون العمل الحرفى يبيعون ، بعد سماح السيد بذلك ، مصنوعاتهم فى الاسواق القريبة التى كانت تقام فى ايام الاعياد

قرب حصون الاقطاعيين والاديرة . غير ان مثل هذا البيع كان يحمل طابعا دوريا ولم يكن اساسا لانفصال الحرف عن الزراعة على صعيد المجتمع باسره . ولم يكن المنتوج الحرفي يصبح بضاعة آلا في بعض الاحيان .

في البدء كان انفصال الحرفة عن الزراعة يجرى فقط ضمن اطار هذه الاقطاعة او تلك . ولكن مع تطور التخصص صار الحرفي غالبا ما يبيع مصنوعاته في السوق ويشترى منها ما يلزمه . لقد اصبح الحرفي منتجا للبضائع . وعلى هذا النحو كان ينتج قسما من المنتوجات خصيصا للبيع ، اى كبضاعة .

التقسيم الاجتماعي للعمل بين المدينة والريف

لم يكن بامكان منتوج الحرفي ذى الكفاءة الرفيعة ان يجد في القرية طلبا كبيرا . وبالاضافة الى ذلك بدأ الاستثمار الاقطاعي يثقل كواهل الحرفيين . وظهر عند الفلاحين الحرفيين دافع يحثهم على مغادرة الاقطاعي الى اماكن يصبح بامكانهم فيها تصريف منتوجهم والتحرر من ظلم السيد .

كان بعض الفلاحين – الحرفيين يهربون من عند الاقطاعي سرا ، وآخرون يغادرون القرية باذن الاقطاعي ويتعهدون بأن يدفعوا له مبلغا نقديا معينا . وكان الاقطاعيون بحاجة الى النقود ولذا كانوا يخلون سبيل الفلاحين للعمل الكاسب . في بادئ الامر كان الاقطاعي يخلي الفلاحين لآجال قصيرة ، مثلا اثناء قيام السوق ، وفي فصل الشتاء ، اى عندما لم تكن هناك حاجة كبيرة الى اليد العاملة في اقتصاد الاقطاعي ؛ وفيما بعد صار يخليهم لمدد اطول .

بالاضافة الى الحرفيين الماهرين كان يغادر القرية ايضا

الفلاحون المزارعون الذين يزاولون العمل الحرفي لسد حاجاتهم الخاصة فقط . وهكذا خرج انفصال الحرف عن الزراعة من اطار الضيعة الاقطاعية والمشاعية الريفية وتطور على صعيد المجتمع برمته . وجرى التقسيم الاجتماعي للعمل الذى خلق المقدمات لنشوء التضاد بين المدينة والريف .

تكون البلدات والمدن

ان الفلاحين الهاربين من القرية او الذين غادروها بموافقة السيد سعوا جاهدين لايجاد اماكن مريحة لتصريف المصنوعات الحرفية قرب مصادر المواد الخام ، ويكونون فيها فى حالة من الامن النسبى . وقد توفرت هذه الشروط قرب المقرات المحصنة للملوك والامراء والاساقفة ، وحول مراكز المقاطعات الادارية . كذلك سكن الاقنان الهاربون عن طيب خاطر حول الاديرة الضخمة التى كانت ايضا محصنة فى المعتاد .

وسعى الفلاحون الذين غادروا القرية الى التمركز فى اماكن توقف القوافل التجارية ، وفى نقاط ملتقى الطرق البرية والمائية . ففى هذه الاماكن غالبا ما كان يجرى تبادل البضائع بين التجار القادمين من مختلف الاماكن ، كما كانت تجرى عمليات شحن وتفريغ البضائع . وغالبا ما كان التجار القادمون يشترون مصنوعات عمل الحرفيين القاطنين هذه الاماكن ، ويستخدمون كذلك الفلاحين بصفة حمالين ونقالين على القوارب ، الخ ..

تحرر الفلاحين من التبعية الشخصية

فى الاماكن الجديدة كان الفلاحون (وهم كقاعدة من الاقنان) يتحررون تدريجيا من الظلم الاقطاعى ، اذ انه كانت

فى هذه الحالة للملك والاسياد الذين يقبلون الفلاحين مصلحة فى جذب الحرفيين واليد العاملة .

اما الفلاحون الذين تسنى لهم جمع مبالغ نقدية معينة فقد دفعوا بدل الفرائض المرتبطة بالتبعية الشخصية . وفى حالات اخرى كفّ الفلاح لاسباب مختلفة عن دفع الريع ، ولكنه لم يرجع الى الريف ، ولم يكن بوسع الاقطاعى ارجاعه بالقوة . ونتيجة لذلك اصبح امثال هؤلاء الفلاحين احرارا شخصيا .

مدن ايطاليا وجنوب فرنسا

ان صلات ايطاليا وجنوب فرنسا التجارية مع بيزنطية والمشرق (البلدان الواقعة على الساحل الشرقى من البحر الابيض المتوسط) اسهمت فى تطور المدن الايطالية : البندقية ، جنوا ، بيزا ، نابولى ؛ والفرنسية : مارسيليا ، ارل ، اربونة ، مونبيليه ، كما اسهمت فى تطور مدن كثيرة غيرها . ومنذ القرن الثامن اخذت المدن تظهر فى ايطاليا وفرنسا كمراكز للحرف والتجارة ؛ وظهرت المدن على امتداد نهر الدانوب ونهر الراين ، وفى انكلترا فى القرنين العاشر والحادى عشر .

المدن الروسية القديمة

كانت كييف ، كما بيّنا اعلاه ، مدينة روسية كبيرة فى القرنين العاشر والحادى عشر . وكانت نوفغورود ايضا فى ذلك الوقت مركزا تجاريا وحرفيا كبيرا . كذلك لعبت مدن تشيرنيغوف وسمولينسك وبولوتسك دورا كبيرا فى الحياة الاقتصادية بروسيا القديمة .

والى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر يرجع زمن نشوء موسكو كمدينة لها صلات تجارية بالمناطق النائية . وقد اخذت موسكو تتطور تطورا سريعا جدا منذ اواسط القرن الثاني عشر ، متحولة في بداية القرن التالى الى عاصمة امارة موسكو .

كانت المدن الروسية تبنى بمعظمها حسب المخطط التالى تقريبا : كان الكرملين يقع فى مركز المدينة ، وهو عبارة عن بقعة محصنة محاطة بالاسوار السميكة والخنادق يسكنه الامير او حاكم المديرية مع حاشيته وعصبته العسكرية . وكانت تقع حول الكرملين بلدات يقطنها التجار والحرفيون .

وكانت المدن الروسية القديمة تتاجر مع منطقة الفولغا والقفقاس وبيزنطية وآسيا الوسطى وايران والبلدان العربية وحوض البحر الابيض المتوسط . وقامت صلات تجارية واسعة بين روسيا والمناطق الساحلية السلافية واسكنديناڤيا وبلاد التشيك ومورافيا وبولونيا والمجر والمانيا وغيرها .

الانتاج البضاعي . التجار

مع مرور الوقت اخذ الاقطاعيون يلجأون اكثر فاكثر الى معونة السوق . ففى السوق كانوا يشترون المصنوعات الحرفية ويبيعون المنتوجات الزراعية . واخذ الفلاحون انفسهم كذلك يشترون بعض البضائع من السوق .

وغالبا ما كان تفاقم الظلم الاقطاعى يدفع الفلاحين الى مغادرة الريف ، الامر الذى ساعد على اطراد نمو البلدات الحرفية التجارية التى اصبحت مع مرور الوقت مراكز للحرف والانتاج البضاعي . وبسبب من حاجة اهالى هذه البلدات الى

الحبوب وغيره من المنتوجات الزراعية ، ظهر التبادل البضاعى بين المدينة والريف . وهكذا فان التقسيم الاجتماعى للعمل الذى ظهرت بوادره منذ بداية هروب الفلاحين من تحت سلطان الاسياد واصل تطوره .

وانقسم المجال الواحد للانتاج الاجتماعى الى مجالين : زراعى وصناعى . واضحت المنتوجات بضائع . وفى هذا الوقت بالذات تكونت فئة اجتماعية جديدة هى فئة التجار الذين انصرفوا خصيصا الى ممارسة التجارة . فكانوا يشترون من الحرفيين مصنوعاتهم ويبيعونها ثانية فى السوق . فى السابق كان الحرفى يبيع بنفسه مصنوعاته فى السوق ؛ وبعد ذاك اخذ التاجر يقوم بهذا بدلا منه .

تكون المنظمة النقابية الحرفية

ان التقسيم الاجتماعى للعمل لم يؤد فقط الى تكوين البلدات الحرفية التجارية (التى تحولت الى مدن) والى انشاء السوق الداخلية فحسب ، انما استتبع ايضا تغيرات فى العلاقات الاجتماعية والسياسية .

لقد جلب الفلاحون الفارون من القرية معهم عادات وتجارب العلاقات المشاعية . وعلى هذا الاساس نشأت المشاعيات الجديدة فى المدن المقبلة التى كانت تنظم اهم جوانب نشاطها : الزراعة التى واصل قسم من السكان مزاولتها فى الآونة الاولى ، الحرفة ، التجارة ، المسائل المتعلقة بالدفاع ضد الاقطاعيين المجاورين وهلمجرا . وقدمت المشاعيات مساعدة فعالة للفلاحين الاقنان الذين يعيشون فيها . فقد ساعدتهم على التحرر من سلطان اسيادهم السابقين وعلى نيل الحقوق الشخصية

وحقوق التملك العائدة للانسان الحر . وتدريجيا نشأت دعائم النقابة (Corporation) أهل حرفة واحدة) اى المنظمة الحرفية التى تربطها مبادئ الادارة المشاعية والمطابقة فى الوقت نفسه للطابع ألاقتصادى فى المجتمع الذى ما زال الانتاج البضاعى فيه ضعيف التطور .

تطور التجارة ودور النقد فى الاقطاعية

رفعت التجارة النامية اهمية النقد والرأسمال النقدى ، وعلى الاخص الرأسمال التجارى . ولكن هذا لم يعن بعد ظهور العلاقات الرأسمالية التى ينبغى من اجلها ان تصبح القوة العاملة بضاعة . وتدريجيا اخذت النقود فى العصر الاقطاعى تقوم بجميع وظائفها التى لازمتها فى عصر العبودية وبقيت كذلك فى المجتمع الرأسمالى .

فى مرحلة القرون الوسطى المبكرة كانت التجارة الخارجية تتفوق على التجارة الداخلية . ولذا اخذت تظهر فى بادئ الامر وظيفة النقد العالميـــة (بالمعنى الاصطلاحى لهذا التعبير) . وعنى تطور التجارة ان التجار اصبحوا ينظرون الى النقود كوسيلة للحصول على مبلغ اضافى عن طريق اعادة بيع البضاعة المشتراة على اســـاس غير متكافئ . ويمكن التعبير عن هذه العملية بالمعادلة التالية : ن ــ ب ــ ن^{1} (نقد ــ بضاعة ــ نقد) : حيث ن^{1} اكثر من ن . وكانت مثل هذه العمليات ممكنة نظرا للوضع الاحتكارى الذى يشغله التجار فى السوق ولمعرفتهم بالاسعار فى مختلف الاماكن . وهنا قام النقد بدور الراسمال النقدى .

كانت النقود ما تزال تبدو شيئا ما مجلوبا من الخارج ، من مناطق الغير ؛ ولكنها اخذت تساعد على تكديس المال والقيم

عند الاقطاعيين . وبدات النقود تقوم بوظيفة وسيلة للتكديس (وظيفة خزن الكنوز) .

وفي ظروف تطور الروابط السوقية غير الكافي ساعد ازدياد استثمار الشغيلة الذي تجلّى على الاخص في زيادة مختلف الضرائب والغرامات ، على ظهور وظيفة النقد كوسيلة للدفع .

ان تعمق التقسيم الاجتماعي للعمل قد ادى الى نمو العلاقات البضاعية النقدية . وهذا ما سهله ايضا تطور وظائف النقد نفسه . فقد شرع النقد يقوم اكثر فاكثر بدور وسيلة للتداول . كذلك انتشر سك العملة .

واخيرا ، من جرّاء نمو العلاقات البضاعية النقدية وانجذاب المنتجين المباشرين - الفلاحين والحرفيين - الى دوامة العلاقات السوقية اخذ النقد شيئا فشيئا يقوم بدور مقياس القيمة . فقد وصل الفلاح والحرفي تدريجيا ، لدى الحسابات المتبادلة ، الى الاستنتاج القائل بضرورة حساب نفقات العمل . وفي هذه الحالة لم تقم النقود دوما بدور العيار الوزني للمعادن الكريمة . ومن جديد ، يمكن التعبير عن العلاقات البضاعية النقدية ، كما في عصر العبودية ، بالمعادلة التالية : ب - ن - ب (بضاعة - نقد - بضاعة) .

نضال المدن ضد الاسياد الاقطاعيين

كانت مدن القرون الوسطى تقع على اراضي الاقطاعيين وكانت ملزمة حتما بالخضوع للسيد الذي تركزت في يديه في البدء كل السلطة في المدينة . وبذل الاقطاعيون جهدهم لابتزاز اكثر ما يمكن من المداخيل من المدن . ولذا تأتّى على الادارة الذاتية المتكونة في المدينة ان تخوض النضال ضد الاسياد الاقطاعيين .

وقد خاض سكان المدينة بأسرهم النضال ضد السيد الاقطاعي جبهة موحدة فى سبيل حقوق مشاعية المدينة . وعلى مآل هذا النضال كان يتوقف التنظيم السياسي فى المدينة ودرجة تبعيتها للسيد الاقطاعي : من حق سكان المدينة بان يجمعوا الضرائب بانفسهم الى حق الادارة الذاتية التامة . وكانت للمدن ذات الادارة الذاتية التى أصبحت وحدات سياسية مستقلة (وكانت تسمى فى فرنسا الكوموناتات) محكمتها وقواتها الشعبية المسلحة وماليتها وهلمجرا . وقد تحرر سكان المدن – الكوموناتات من التزامات الدفع العادية للسيد الاقطاعى .

ان المدن – الجمهوريات ذات الادارة الذاتية فى اوروبا الغربية (فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر) تكونت بادئ الامر فى ايطاليا وفرنسا وهولندا ، وثم فى المانيا . وفى روسيا كانت نوفغورود جمهورية اصيلة فى القرن الحادى عشر .

وكانت ثمة مدن كثيرة ، ولا سيما بين المدن التى نشأت على اراضى الملوك ، لم تنل حقوق الكومونة ذات الادارة الذاتية ، الا انها اخذت تتمتع بعدة امتيازات وحريات . فالهيئات المنتخبة لادارة المدينة كانت تمارس اعمالها مع ممثل السيد او موظف الملك .

كان المجلس البلدى هو الهيئة العليا المنتخبة فى المدن ، فهو الذى كان يقوم بجمع الضرائب ويشرف على النقابات الحرفية ويسن المراسيم الالزامية لسكان المدن . وكان على رأس المجلس شخص منتخب ، هو رئيس البلدية . اما المدن الصغيرة التى لم تكن لديها القوى الضرورية والوسائل النقدية للنضال ضد الاسياد ، فقد بقيت تحت سلطتهم القضائية .

وكان بين جميع المدن شيء مشترك هو ان سكانها تحرروا من التبعية الشخصية . وكل فلاح يعيش فى المدينة سنة واحدة ويوما واحدا كان يصبح حرا .

وفى بلدان آسيا ناضلت المدن كذلك ضد الأقطاعيين . ولكن الصراع العنيف كان ينتهى هنا ، كقاعدة ، بهزيمة سكان المدن الذين لم يتمكنوا من احراز الادارة الذاتية .

الصراع بين اريستقراطية المدينة والحرفيين

بعد انتهاء نضال سكان المدن ضد الاقطاعيين واقامة كيان معين للمدن احتدمت التناقضات الاجتماعية فى صفوف سكان المدن .

فقد استولى على مركز الصدارة فى هيئات الادارة فى المدن اغنى الناس من السكان الذين اطلق عليهم فيما بعد اسما مستعارا من التاريخ القديم وهو باتريسيات المدينة (اى اريستقراطية المدينة) . وقد تكونت الاريستقراطية من مالكى الاراضى فى المدينة ، وكذلك من كبار التجار والمرابين وعدد قليل من الاقطاعيين الصغار العائشين فى المدينة . اما سواد السكان فكان من الحرفيين واعضاء عائلاتهم .

وبمقدار تطور الحرفة فى المدن اشتدت اهمية النقابات الحرفية فى الحياة السياسية . فقد خاضت النضال ضد الاريستقراطية من أجل السلطة . وفى مدن مثل كولونيا وفيرنزة (فلورنسيا) انتهى النضال بانتصار النقابات التام فشغلت المواقع القيادية فى ادارة المدينة ؛ وانتهى فى مدن اخرى ، مثلا فى المدن التجارية الكبرى فى شمال المانيا ، بانتصار الاريستقراطية . وغالبا ما كان ينتهى الصراع بحل وسط ، وعندئذ يسمح لممثلى اغنى واقوى النقابات الحرفية بالاشتراك فى ادارة المدينة على قدم المساواة مع الاريستقراطية . والحال ان معلمى الورش الذين وصلوا الى السلطة سعوا جاهدين لتكوين فئة مميزة لتعرقل اطراد اشاعة الديموقراطية فى ادارة المدينة ، وبالاجمال اندمجوا مع اريستقراطيى المدينة .

كانت الحرفة تؤلف الاساس الانتاجى لمدينة القرون الوسطى . فالانتاج الصغير فى عصر الاقطاعية كان يميّز الريف والمدينة على حد سواء . وكان الحرفى ، مثله مثل الفلاح ، منتجاً صغيرا ؛ فقد كان يملك ادوات الانتاج الخاصة ويمارس الاقتصاد القائم على العمل الشخصى ، ويسعى جاهدا للفوز بمقومات الحياة ، وليس للحصول على الارباح .

كان حرفيو القرون الوسطى موحدين فى نقابات حرفية . وفى كل نقابة كان يدخل فقط اشخاص المهنة ذاتها . وكانت النقابة تسعى لضبط الانتاج ، فكانت تحدد ، مثلا ، مقاييس قطعة الجوخ ونوعية الخامات ، وتعيّن مقادير الانتاج . وكقاعدة ، لم يكن بالامكان ان يعمل تحت اشراف المعلم الحرفى اكثر من صانعين (معاونين) ومتدربين .

وكان النظـام الداخلى فى النقابة يحدد اجرة الصنـاع ، وكذلك قواعد تصريف المصنوعات الحرفية ووضع اسعار البضائع المنتجة .

كانت النقابات اتحادات انتاجية للعون المتبادل بين اعضائها . وكانت تقوم ايضا بوظائف دينية وتملك معابدها الصغيرة وقديسيها الذين كانوا وكانهم يحمونها ، واعيادها الدينية ، الخ . . وفى الوقت نفسه كانت كل نقابة وحدة عسكرية لها قادتها وتشترك عند الاقتضاء فى العمليات الحربية .

وقد قامت فى اكثرية المدن قاعدة كان على حرفيى المدينة بموجبها ان ينتظموا فى النقابات بصورة الزامية . وما من احد فى المدينة كان له حق مزاولة هذه الحرفة او تلك ان لم يكن عضوا فى النقابة المعنية . وكان ممنوعا ان تباع فى المدينة اشياء صنعت خارجها ، بما فى ذلك ما صنع فى القرى المجاورة .

لم يكن داخل النقابة تقسيم واسع للعمل . اما نمو التكنيك والتخصص فلم يغير طابع الحرفة الصغير ، بل ادى الى تكوين نقابات جديدة . وكانت النقابات الحرفية فى كل مدينة تعد بالعشرات ، وفى المدن ألاكبر بالمئات . مثلا ، كان فى باريس فى بداية القرن الرابع عشر ٣٠٠ نقابة حرفية .

ان النقابات والاجراءات التى قامت بها لعبت دورا ايجابيا فى الآونة الاولى . فقد ساعدت الحرفيين فى تنظيم العمل وفى النضال من اجل حقوقهم . ولكن المنظمة النقابية الحرفية تحولت بالتدريج الى عقبة امام التطور الاقتصادى . واتخذ رؤساء النقابات تدابير ضد اى نوع من المستحدثات والتحسينات التكنيكية . مثلا ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر منع استخدام دولاب الغزل . وكذلك حرمت فى انتاج الجوخ آلة اخترعت فى القرن الحادى عشر واستمر تحريمها حتى القرن الخامس عشر . وفى الوقت نفسه كانت كل نقابة تحفظ بصرامة اسرارا انتاجها .

الصانع والمتدرب

كان فى المنظمة الحرفية سلم هرمى اقطاعى فريد من نوعه : المعلمون ، الصناع (معاونو المعلمين) ، المتدربون (التلاميذ) . وبالتدريج اخذ المعلمون يتحولون اكثر فاكثر الى فئة مميَّزة . ولم يكن بمستطاع كل صانع ان يصبح معلما . وكان على المنتمى الى النقابة ان يصنع شيئا فى غاية الجودة يسمى تحفة . وفقط بعد ان تقر لجنة خاصة بان هذا الشيء يرضى ارهف الاذواق ، كان من الممكن قبول الصانع فى عداد معلمى النقابة الحرفية . وعلاوة على هذا ، كان الصانع ملزما

بان يدفع مبلغا كبيرا من النقود لاقامة مأدبة لدى قبوله فى النقابة . ومع مرور الوقت كان صنع التحفة يغدو اصعب فاصعب ، ولم يكن يصبح معلمين عمليا غير ابناء المعلمين واقرب اقربائهم .

وفى نهاية الامر تكونت فئة دائمة من الصناع الذين فقدوا الامل بان يصبحوا معلمين . فاضطرهم هذا الى الانتظام فى اتحادات ، او اخويات للنضال دفاعا عن مصالحهم . وفى آن واحد جرى التمايز فى التملك سواء بين النقابات او داخل كل نقابة بين المعلمين . وتطور استثمار الحرفيين من قبل الراسمال التجارى . وظهر فى نقابات المراكز التجارية الكبرى اشخاص معينون هم شراء المصنوعات ومقدمو المواد الخام . لقد سعى هؤلاء الناس جهدهم حتى لا يقدم المعلمون ، الذين يشترون منهم الخامات ، بضائعهم الا لهم فقط . وكان ضعيفو الحال من المعلمين الحرفيين يستدينون الخامات ويسددون مصنوعات جاهزة . وبالتدريج وقعوا فى تبعية هؤلاء التجار الوسطاء الذين تحولوا الى تجار محترفين .

الراسمال الربوى

بمقدار تعاظم دور النقود ازدادت اكثر فاكثر الحاجة الى استدانتها ليس فقط عند الشغيلة ، بل عند الاقطاعيين كذلك . وقد استتبع هذا ظهور فئة كاملة من الاشخاص الذين يكدسون المبالغ النقدية ويدينونها بفائدة مئوية كبيرة . واخذت النقود تتحول هنا ايضا الى رأسمال نقدى ، غير انه ربوى . وقد ارتدت معادلة حركته شكل ن — ن^{1} ، حيث يزيد المبلغ النقدى الثانى كذلك على الاول .

وما كان بمستطاع التجار ايضا الاستغناء عن التسليفات والقروض . وهذا ادى الى تطوير عمليات التسليف والكمبيالات ، والى ظهور المصارف (البنوك) . ظهرت البنوك بادئ الامر فى مدن ايطاليا الشمالية حيث بلغ تطور العلاقات البضاعية النقدية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مدى كبيرا . ان انفس اصطلاح «بنك» (مصرف) نشأ من الكلمة الايطالية «بنكا» اى طاولة الصرافة .

كان المرابون الصيارفة يقدمون «خدماتهم» للحرفيين الضعيفى الحال مساعدين بذلك على املاق الكثيرين منهم .

النضال ضد الفئة المستثمرة

شيئا فشيئا كوّن المتدربون والصناع والحرفيون المفلسون ، وجماعات اخرى من فقراء المدينة ، فئة واحدة من فقراء مدينة القرون الوسطى كانت تقف فى وجه الفئة العليا فى المدينة : التجار والمرابين والحرفيين الاغنياء وارستقراطية الاقطاعيين العائشين فى المدينة .

وغالبا ما قامت النضالات العفوية من جانب الفئات الفقيرة ضد استثمارها . الا انها فى ذلك الوقت لم تستطع هزّ دعائم النظم الاجتماعية القائمة .

٢ ـ العلاقات البضاعية النقدية والريف. تبدل الريع

ان توسيع الانتاج بغية البيع فى السوق قد ترك اثره ايضا على تطور العلاقات الزراعية . فاخذ يهبط دور الريع ـ العمل او السخرة . ونحو اواسط القرن الثالث عشر اكتسب

الشكل العينى للريع الاقطاعى وعلى الاخص شكله النقدى الاهمية الغالبة فى معظم بلدان اوروبا .

فى عهد القرون الوسطى المبكرة كانت الاستعاضة عن الفرائض العينية بفرائض نقدية تحمل طابعا عرضيا نادرا ؛ اما فى المرحلة الجديدة ، فقد اصبح الحصول على النقد وتكديسه هدفا اساسيا للاسياد الاقطاعيين . وعلى نطاق واسع جرت الاستعاضة عن الريع – العمل .والريع العينى بالريع النقدى . فاضطر الفلاحون الى اللجوء. اكثر فاكثر لبيع منتوجات عملهم فى السوق .

وسعيا لزيادة الريع النقدى ، اخذ الاقطاعيون يمنحون الفلاحين بعض الاستقلال الاقتصادى . ولهذا السبب فقدت تبعية الفلاح الشخصية اهميتها فى عيون الاقطاعيين الذين كان من الافيد لهم الاستعاضة عن التزامات الدفع المرتبطة بتبعية الفلاح الشخصية بمبلغ نقدى كبير . ففرضوا مبالغ عالية لشراء الحرية لم يكن بمستطاع الفلاحين دفعها احيانا ، مما دفعهم للاحتجاج على هذا «التحرير» . وكثيرا ما كان الاقطاعيون يستخدمون القوة العسكرية لاكراه الفلاحين على «التحرر» .

زيادة التفاوت فى التملك بين الفلاحين

ان اشتراك الفلاحين فى العمليات التجارية ساعد على تطوير التفاوت فى التملك بينهم ، كما ساعدت على ذلك ايضا التغيرات فى نظام حق استخدام الارض . فقد تحولت نهائيا قطعة الارض التى كان الفلاح يضع يده عليها الى حق وراثى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكثرة الورثاء ادت الى تجزئة قطع ارض الفلاحين . وكان الفلاح يستطيع عقد اية صفقات

بقطعة ارضه – صفقات البيع والشراء والرهن ، الخ . . كان المقصود بذلك لا بيع الارض نفسها وانما بيع الحق والالتزامات المنبثقة من واقع استخدام قطعة الارض . كذلك اتسمت بنفس الطابع الصفقات المتعلقة بالارض والمعقودة بين الاقطاعيين الذين كانوا يبيعون ويشترون «حقوق» جبى الفرائض من الفلاحين .

لم يكن فى وسع جميع الفلاحين دفع الفرائض للاقطاعيين لقاء استخدام قطع الارض . ففقد الفلاحون الفقراء قطع ارضهم كليا او جزئيا . ووقع عدد كبير من استثمارات الفلاحين فى ايدى المرابين . وراح الرأسمال الربوى يتغلغل كذلك فى مجال علاقات ملكية الارض . فكان الفلاحون الفقراء يستدينون من المرابين المال مقابل رهن قطع ارضهم ، وكانوا فى معظم الحالات لا يتمكنون من افتكاكها بسبب الفوائد الباهظة . وكان الفلاحون الاكثر يسرا يشترون اراضى جيرانهم المعدمين . فقد كانت قطع الفلاحين الميسورين تفوق احيانا مقادير القطع العادية بضع مرات .

تطور التأجير الفلاحى الصغير

كان المالكون الاقطاعيون ينتزعون من الفلاحين قسما ملحوظا من نتاج عملهم ، ومع هذا سعوا جهدهم لكى يزيدوا اكثر من قبل الاتاوات التى يجبونها من الفلاحين . غير ان زيادة التزامات الدفع العادية كان من شانها ان تؤدى الى هزات اجتماعية خطيرة .

ان طبقة الاقطاعيين السائدة ، ولا سيما فى فرنسا وجنوب هولندا ، لم تستطع دفعة واحدة وضع النظام الذى يرضيها لجباية الريع النقدى . وقد لجأ مالكون اقطاعيون كثيرون ، سواء الدينيون والدنيويون ، بغية التخلص من الصعوبات المالية

الى الاستدانة من كبار اقطاعيى الكنيسة والمرابين ، الا انهم اصبحوا فى هذه الحالة تابعين لهم .

وكان الاقطاعيون يجبون من الفلاحين (والتجار) العديد من الرسوم المحليـــة ورسوم المرور عبر اراضيهم . ان هذه الضرائب لم تكن بالنسبة للاقطاعيين مصدرا هاما للمداخيل الاضافية وحسب ، وانما ايضا وسيلة للضغط على الفلاحين . فكان الفلاح يدفع مقابل المرور فى طرق الاقطاعى ، مقابل المرور عبر الجسر ، مقابل نقل الماشية من مكان لآخر (ومن البديهى ان هذا لم يكن مرتبطا فى الغالب بالاشتراك فى عمليات تجارية) . وكان يدفع مقابل حق البيع فى السوق ، ومقابل عقد آية صفقة تجارية كانت ، الخ . .

ان التزامات الدفع الآنفة الذكر لم تشبع شهية المالكين الاقطاعيين . فبدأ كثيرون من كبار المالكين العقاريين يؤجرون اراضيهم لأجل محدد ، طالبين مدفوعات اعلى بكثير من المدفوعات العادية التى يدفعها الفلاحون مقابل قطع الارض التى يستخدمونها . وشيئا فشيئا اصبح هذا النظام المربح للاقطاعيين ، المسمى بالتاجير الفلاحى الصغير ، ينتشر اكثر فاكثر . وكثيرا ما كانت تؤجر الارض بشروط دفع حصة من المحصول تصل احيانا آلى نصفه (مثلا فى فرنسا) .

كان الفلاحون الميسورون يستأجرون من الاقطاعيين قطعات كبيرة من الارض ، ويؤجرونها بدورهم الى الفلاحين الفقراء قطعا صغيرة .

ان انتشار التأجير الفلاحى دل على اطراد تطور علاقات الانتاج الاقطاعية . وقلّت اهمية استثمارة السيد . اما دور الاستثمارة الفلاحية فى الحياة الاقتصادية لقرية القرون الوسطى فقد تعاظم .

كانت الاساليب المشددة لاستثمار الفلاحين من قبل الاسياد الاقطاعيين هى الوسائل الرئيسية ، ولكن ليست الوحيدة التى حرمت الفلاحين من منتوجات عملهم . وكثيرا ما كان الفلاحون المضطرون للاشتراك فى العمليات التجارية ، باستثناء الاغنياء منهم ، يتكبدون الخسائر نتيجة للاسعار الاحتكارية التى يقررها التجار ، واحتكار نظام النقابة الحرفية .

وهكذا زاد انخراط الفلاحين فى الملاقات البضاعية النقدية من شدة تعرضهم للاستثمار ، ولا سيما الفقراء منهم .

النمو الاقتصادى للمدن وتطور الاسواق المحلية

ان تطور التجارة وقيام الاسواق الدائمة عززا مركز المدن وزادا من اهميتها فى الحياة الاقتصادية للدولة الاقطاعية . فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تكن قد تكونت بعد فى اوروبا الاسواق الداخلية على صعيد هذا البلد او ذاك . غير انه كانت فى جميع المدن وفى كثير من مراكز السكن الاخرى اسواق خاصة بها .

لقد ارتبط نمو الصلات التجارية الخارجية ارتباطا وثيقا بتطور العلاقات البضاعية النقدية . وكان دور هام يعود على الاخص ، الى الاسواق الدورية التى كانت تتم فيها تجارة الجملة بالبضائع التى تتمتع بالطلب الكبير فى بلدان كثيرة . وكانت المقاطعة الفرنسية شامبانيا مركزا من اكبر المراكز التجارية فى اوروبا . فقد كان يلتقى فى اسواق شامبانيا الدورية تجار من مختلف بلدان اوروبا . وكانت سواحل بحر البلطيق والبحر الابيض المتوسط اماكن ازدحام تجارى . ولعبت دورا كبيرا فى تطوير الصلات التجارية فى حوض بحر البلطيق المدن السلافية الساحلية :

فولين ، اركونا ، شيتسين ، غدانسك وغيرها . وكانت تجارة البحر الابيض المتوسط تربط اوروبا ومختلف بلدان آسيا وشمال افريقيا .

مشكلة المدينة وعلم التاريخ البرجوازي

ان علم التاريخ البرجوازي يشوه جوهر مشكلة منشأ وتطور المدينة . فالكتاب البرجوازيون لا يعيرون الاهمية اللازمة لمشكلة انفصال الحرفة عن الزراعة وتحولها الى فرع مستقل في الانتاج الاجتماعي ارتبط فيما بعد بالزراعة عن طريق السوق . ولا يرون الصلة بين نشوء وتطور مدينة القرون الوسطى ونشوء وتطور الانتاج البضاعي والسوق الداخلية في المجتمع الاقطاعي . ان المؤلفين البرجوازيين يوضحون بصورة رئيسية الجانب الحقوقي الشكلي من المسالة . ويهتمون في الغالب بتوضيح طراز نقطة السكن التي نشات مكانها مدينة القرون الوسطى ، وبالكيفية التي تطورت فيها المؤسسات السابقة لنقطة السكن هذه الى مؤسسات مدينة القرون الوسطى . وعندما يتطرق علم التاريخ البرجوازي الى المشاكل الاقتصادية ، ينظر اليها في معزل عن الحياة الاقتصادية العامة للمدينة والمجتمع الاقطاعي .

وطبقا لما يسمى بـ«النظرية الرومانية» ، التي كان المؤرخ الفرنسي رينوار احد انصارها في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، نشات مدينة القرون الوسطى مباشرة من مدن روما المتاخرة . ان انصار هذه النظرية يؤكدون على فكرة استمرار تطور المدينة من عصر امبراطورية روما حتى الزمن الحديث .

ويزعم انصار «نظرية الاقطاعة» التي برزت في اواسط القرن التاسع عشر في المانيا ، مثلا ، ان المدينة تطورت من اقطاعة الاقطاعي . وبرأيهم ان كل الفئات الاساسية من سكان المدينة

انحدرت من سكان الاقطاعة ؛ اما مؤسسات المدينة فليست الا نتيجة لتطور هيئات ادارتها .

وظهرت فى المانيـــا «نظرية القلعة» (فيلدى ، غيركى ، كييتغن) القائلة بان اساس كومونة المدينة هو اتحاد الالمان العسكرى ، الذى تكون ، على حد زعمها ، للدفاع عن اعضائه القاطنين حول اسوار القلعة (بورغ) .

وتنضم الى هذه النظرية ايضا «نظرية الحامية» للمؤرخ الانكيزى متلاند الذى تقدم بها فى نهاية القرن الماضى . يزعم متلاند ان كبار الملاكين العقاريين الانكليز اسكنوا اتباعهم فى اماكن معينة لبناء التحصينات وتموين الحاميات المرابطة فيها . وهذه التحصينات هى التى اصبحت مدنا . وبرأى متلاند ان الفرق بين المدينة والقرية هو أن بيوت المدينة وقطع الارض فيها ، خلافا للقرية ، هى ملكية لمالكين مختلفين .

اما ماورير فقد عمم نظريته عن المشاعية ـ ماركا على مشكلة منشأ المدينة ايضا . فهو يزعم ان لسكان وتنظيم مدينة القرون الوسطى صلة مباشرة بالمشاعية القبلية الالمانية .

ان ممثلى ما يسمى ب«النظرية السوقية» (بالدرجة الاولى المؤرخ الالمانى زوم) يركزون كل اهتمامهم ايضا على الجانب الحقوقى من المسألة . فهم يزعمون بان الخصائص المميزة للمدينة قد انعكست فى حق المدينــة الذى يقوم ، برأيهم ، على تلك الامتيازات التى أثرت فى اماكن التجارة السوقية .

لقد تطورت «النظرية السوقية» تطورا لاحقا فى آراء بيرين التى اثرت ولا زالت تؤثر بشدة على علم التاريخ البرجوازى لغاية الآن . ان مفهوم بيرين ينطلق من المغالاة فى تقدير اهمية التجارة . فهو يرى فى التجارة المصدر الاساسى لمنشأ مدينة القرون الوسطى ، والعامل الاساسى ايضا للتطور الاقتصادى فى

المجتمع الاقطاعى ككل . وفئة التجار هى خالقة المدينة طبقا لنظريته . وقد رأى فى تطور «تجارة عالمية» ما العامل الذى وحد فى كل واحد التاريخ القديم والقرون الوسطى . ان الكثيرين من المؤرخين البرجوازيين المعاصرين يستغلون نظرية بيرين للبرهنة على مفاهيمهم البعيدة كل البعد عن التحليل العلمى الحقيقى .

وهكذا لا يعير المؤرخون والاقتصاديون البرجوازيون الانتباه الا للعوامل الخارجية التى رافقت عملية التطور العميقة ، ويتجاهلون جوهر الظاهرات الاجتماعية والاقتصادية .

٣ ـ سياسة طبقة الاقطاعيين السائدة. اشكال جديدة للدولة

تطور المركزية

ان تغير الظروف الاجتماعية ، المرتبطة بتطور العلاقات البضاعية النقدية ، وضع امام طبقة الاقطاعيين السائدة ضرورة تغيير شكل السلطة السياسية ايضا .

وكان الشكل الجديد للدولة الاقطاعية مرتبطا بالميل نحو المركزية القائمة على الوحدة الاقتصادية لاقاليم كبيرة . لقد كان التوحيد السياسى وتكوّن الدول المركزية اهم عملية تاريخية فى عصر الاقطاعية المتطورة .

ان المركزية وكذلك التبديل اللاحق لاشكال التنظيم السياسى للبلاد وجدا أتم تعبير لهما فى انكلترا وفرنسا . فقبل القرن العشرين وفى فرنسا بالذات اكثر من اى بلد آخر ، كان الصراع التاريخى بين الطبقات يصل كل مرة الى نهاية حاسمة . وتحددت هنا بحدة بالغة الاشكال السياسية المتغيرة التى كان هذا الصراع يتطور داخلها .

وارتبطت عملية التمركز فى فرنسا بالتقوية التدريجية للسلطة الملكية التى بدأت فى القرن الثانى عشر فى عهد سلالة الكابيتيين وانتهت فى نهاية القرن الخامس عشر فى عهد سلالة فالوا . كان ملوك فرنسا يخضعون واحدا بعد آخر الاقطاعيين الكبار فى البلاد . وقد اعتمدوا فى عملهم هذا على الاقطاعيين الصغار والمتوسطين الذين كانوا يتعرضون للتضييقات من جانب الاقطاعيين الكبار .

وقد لعبت المدن وسكانها دورا بالغ الاهمية فى توحيد فرنسا سياسيا وفى تعزيز سلطة الملك . فالحرفيون والتجار كانوا معنيين بضمان امن الطرق التجارية واقامة صلات سوقية ثابتة داخل الدولة . وكانوا مستعدين لدعم قوة سلطة الملك المتعاظمة ضد الاقطاعيين المنفردين المخلين بالنظام فى البلاد بغزواتهم وحروبهم واعمال النهب التى يقومون بها .

اما سلطة الملك ، بوصفها المعبر عن المصالح الجماعية لطبقة الاقطاعيين ، فقد وجدت من المربح دعم التجارة والصناعة الحرفية فى المدن وبهذا قامت فى تلك الفترة بدور تقدمى .

تكون الحكم الملكى الاقطاعى المراتبى

بغض النظر عن تعزيز السلطة المركزية كان ملوك فرنسا يعقدون ، من وقت لآخر ، المجلس الاقطاعى الذى وجد منذ زمن بعيد . وكان هذا يجرى فى الحالات التى تكون فيها سلطة الملك بحاجة الى موافقة كبار الاقطاعيين ورجال الدين على القيام ببعض الاجراءات الهامة .

وفى القرن الثانى عشر اخذ الملوك يدعون الى هذا المجلس ممثلى الاوساط الغنية فى المدن الكبيرة . وابتداء من القرن

الرابع عشر ، فى عهد حكم الملك فيليب الرابع ، اصبحت اجتماعات هذا المجلس دائمة وسميت «المجالس العامة» (مجلس طبقات الامة – « Les Etats généraux ») ، خلافا لمجالس المقاطعات التى كانت تعقد على انفراد بالنسبة للمناطق الشمالية والجنوبية فى البلاد .

لقد دعم ممثلو المراتب ، اى رجال الدين والاقطاعيين وسكان المدن ، اجراءات سلطة الملك ، ولكنهم طالبوا بتنازلات معينة مقابل ذلك . وبذلك اثروا تأثيرا مباشرا على ادارة الدولة .

وكان ممثلو المراتب يجتمعون على انفراد لحل المسائل . وفى المعتاد كانت آراء ممثلى المرتبتين «العليين» ، اى رجال الدين (الذين كانوا يعتبرون المرتبة الاولى) والاقطاعيين الدنيويين – تختلف اختلافا حادا عن آراء ممثلى اصحاب الشان من سكان المدن .

ان التمثيل المراتبى الذى ظهر فى ذلك الوقت فى بلدان اخرى ايضا من اوروبا ، مثلا ، البرلمان فى انكلترا ، كان درجة جديدة فى تطور الدولة الاقطاعية . كانت الدولة الاقطاعية المراتبية او «الحكم الملكى المراتبى» شكلا سياسيا لسيادة طبقة الاقطاعيين . وقد طابقت المرحلة الجديدة من تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج فى المجتمع الاقطاعى ، المرحلة المرتبطة بنمو المدن وتطور الحرف والتجارة . ان ظهور هذا الشكل من الدولة الاقطاعية عكس كذلك طموح الطبقة السائدة الى تشديد استثمارها للجماهير الشعبية .

٤ ـ الدولة الروسية المركزية

توحيد الاراضى الروسية

نحو نهاية القرن الخامس عشر تكونت الدولة الروسية المركزية . وجرت عملية التوحيد الداخلى للاراضى الروسية فى آن واحد مع تصفية النير التترى والمغولى الذى اثقل كاهل روسيا منذ القرن الثالث عشر . وكانت موسكو مركز الدولة . وقد خلق التغلب على التجزئة الاقطاعية المقدمات لاطراد النمو الاقتصادى والثقافى فى البلاد .

ادى انجاز توحيد الاراضى الروسية الى حدوث تغيرات فى تركيب هيئات ادارة الدولة . فى السابق كان لدى الامير مجلس من البويار (الاقطاعيين الكبار) يسمى دوما البويار . وكان يدخل فى الدوما ايضا قائد القوات المسلحة الشعبية فى المدينة ـ قائد الألف ، وحارس خزينة الامير ـ امين الخزينة . وكان يرسل الى ادارة المدن والنواحى (لمدة سنة عادة) حكام محليون من البويار والاقطاعيين الاصغر منهم . وبدلا عن الراتب ، كان هؤلاء يحصلون على حق جباية الاتاوات من السكان ، او على حق « الاعتياش » كما كانوا يقولون آنذاك . ولم يكن فى نظام هيئات ادارة الدولة تحديد بيّن المعالم لوظائف جهاز الدولة وجهاز ادارة املاك الامير الشخصية .

ان توحيد الاراضى الروسية افضى الى قيام الحكم الملكى الاقطاعى الروسى برئاسة الامير الاكبر . واكتسب دوما البويار تدريجيا طابع مؤسسة دائمة . وظهرت هيئات للادارة تحولت فى القرن السادس عشر الى نوع من الوزارات ، سميت « بريكازات » . اما امتيازات الاقطاعيين الكبار فتقلّصت ؛ اذ حرموا من حق النظر فى الشؤون الهامة التى انتقلت الى الحكام المحليين نواب الامير الاكبر الخاضعين لاشراف « البريكازات » .

كان بمستطاع البويار وغيرهم من الاقطاعيين ممن يملكون فصائل عسكرية خاصة رفض القيام بخدمة الامير فى عهد التجزئة الاقطاعية . اما بعد قيام الدولة المركزية فصار الامراء الكبار ياخذون من البويار عهدا «بالبقاء» و «الوفاء» . فتطور نظام تمليك الاطيان اى منح الاقطاعيين الصغار والمتوسطين الذين يقومون بالخدمة العسكرية عند الامير اطيانا . وتزايد عدد افراد القوات العسكرية فى المدن والارياف . والغيت وظيفة قائد الألف لان القوات المتطوعة اصبحت تخضع مباشرة للامير الاكبر . وتقوّت كذلك الهيئات المركزية لادارة المالية والضرائب . وتقلّصت امتيازات كبار الاقطاعيين الذين يجبون ضرائب الدولة فى املاكهم وينتزعون قسمها الاكبر لمصلحتهم .

ان الهجوم على مواقع الاقطاعيين الكبار لم يؤد الى تخفيف الوطاة عن الفلاحين . بل بالعكس ، فقد جهد الاقطاعيون لكى يعتصروا منهم اكثر ما يمكن . لقد ازداد استثمار الفلاحين تفاقما .

تعززت الدولة الروسية ، على الاخص ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، فى عهد حكم ايفان الرابع ، المسمى ايفان الرهيب (١٥٣٠ ـ ١٥٨٤) . فبعد بداية حكمه بفترة وجيزة اصبح يسمى «قيصر عامة الروسيا» .

تطور الصلات التجارية

ان اساس قيام الدولة الروسية المركزية هو تطور العلاقات البضاعية النقدية . لقد تكوّنت السوق الواحدة فى عامة روسيا فى القرن الثامن عشر . ولكن مقدمات نشوئها ترجع الى القرن السادس عشر . ففى هذا الوقت بالذات لوحظ اشتداد نمو

الانتاج الحرفي في المدن الروسية ، وتطور الاسواق المحلية .
وفي بداية العقد التاسع من القرن السادس عشر كان في نوفغورود زهاء مائتي حرفة وصناعة مختلفة ، وفي كازان حوالي مائة .
وكان الانتاج الحرفي يتصف بتنوع كبير . فقد تخصص في صناعة تكييف الحديد ، مثلا ، صانعو الدبابيس وصانعو الازرار ، الخ . ، وفي صناعة الاسلحة صانعو الاقواس وصانعو السيوف ، وصانعو بلطات الحرب ، الخ . ، وقامت في انتاج الملابس اختصاصات في خياطة الالبسة القومية المتنوعة وما الى ذلك .
وقد ادى تطور التقسيم الاجتماعي للعمل الى نمو التجارة .
فكانت مدن روسيـــة كثيرة في القـرن السادس عشر مراكز تجارية كبرى . ففي العقدين السابع والثامن من هذا القرن كان في بسكوف ، علاوة على «دار الضيافة» ، اي حوش التجارة حيث كانت تتم اكثرية الصفقات التجارية ، ١٣٠٠ محل تجاري من مختلف الاحجام ، وفي كازان ٦٤٤ ، وفي كولومنا في ضواحي موسكو حوالي ٤٥٠ .

وكان الفلاحون يجلبون الى سوق المدينة المنتوجات الزراعية .

وشيئا فشيئا اخذت الاسواق المحلية المتفرقة تقيم فيما بينها صلات . ففي القرن السادس عشر كان في نوفغورود مثلا داران للضيافة تخصان مدينتي تفير وبسكوف . وكان تقام في بعض الاماكن اسواق دورية كبيرة . لقد كانت موسكو حلقة الوصل في التجارة بين المدن واصبحت منذ القرن الخامس عشر مركزا كبيرا للتجارة والحرف . وقد اعتبرها الانكليز مدينة اكبر من لندن .

كذلك تطورت التجارة الخارجية ، وقامت صلات تجارية واسعة مع مناطق البلطيق . اما طريق الفولغا فكانت تربط الاسواق الاوروبية باسواق حوض بحر قزوين وآسيا الوسطى .

ان تطور العلاقات البضاعية النقدية قد أدى الى تعقيد التركيب الاجتماعى فى المجتمع ، الى زيادة التمايز بين السكان الذين يزاولون التجارة والحرف والزراعة . اما فئة التجار العليا فاصبحت هيئة مميزة ، مكونة بذلك جماعة «الضيوف» الخاصة . وورد فى مخطوطات ذلك الوقت ذكر «المتوسطين» من التجار والحرفيين ، وكذلك «الناس السود» اى القسم الافقر من السكان . وظهر فى الريف بين الفلاحين الاقنان فلاحون ميسورون كانوا يشترون حريتهم من الاسياد وينتقلون احيانا الى صفوف الحرفيين والتجار .

الحكم الملكى الاقطاعى المراتبى

اخذ يتكون فى روسيا فى اراسط القرن السادس عشر حكم ملكى اقطاعى مراتبى . وفى عام ١٥٤٩ عقد لاول مرة مجمع الاقاليم ، وهو جمعية لممثلى الاوساط العليا من الطبقة السائدة : البويار ، كبار رجال الدين ، نبلاء موسكو . واشترك ايضا فى جلسات مجمع الاقاليم فى عام ١٥٦٦ ممثلو التجار والحرفيين .

فى العقد السادس من القرن السادس عشر اجرت الحكومة القيصرية بعض الاصلاحات فى ميدان ادارة الدولة ونظامها بغية توطيد مركزها واضعاف نفوذ الاريستقراطية القديمة .

فحتى فى انهاية القرن الخامس عشر جرى سن دستور قضائى خاص على اساس تشريع اصول القانون الروسى وتنظيم القضاء . وفى عام ١٥٥٠ سن دستور قضائى جديد انعكس فيه اطراد تركيز جهاز سلطة الدولة . وتعاظم دور هيئات الادارة المركزية فى القضاء . اما الوظائف القضائية التى يمارسها نواب القيصر ، الحكام المحليون ، فقد تقلصت نتيجة للمساهمة

الواسعة فى القضاء من قبل ممثلى الاوساط الميسورة من سكان المدن والفلاحين الاحرار شخصيا الذين يعملون فى اراضى الدولة . وقد ادى تغيير نظام فرض الضرائب الى فرض اتاوات على الفلاحين وسكان المدن اشد وطأة من ذى قبل .

واعيد تنظيم هيئات الادارة المركزية ، فاصبح كل «بريكاز» يصرف شؤون فرع معين . مثلا ، كان ثمة «بريكاز» يدير الامور العسكرية ، و «بريكاز» يدير شؤون السياسة الخارجية .

واتسمت باهمية كبيرة اصلاحات التقسيمات الادارية . ولم يعد نواب القيصر هم الذين ينظرون فى القضايا الجنائية الهامة فى الاقضية ، بل اصبح ينظر فيها المتصرفون المنتخبون من النبلاء المحليين . وفى العديد من المقاطعات ، وعلى الاخص فى شمال البلاد حيث كان معظم الفلاحين يدخل فى عداد دافعى الضرائب ، الاحرار ، استعيض عن نواب القيصر بهيئات للادارة الاقليمية . وكان اعضاء هذه الادارة ينتخبون من بين سكان المدن والفلاحين الميسورين .

ان اصلاحات الادارة المحلية ساعدت على تصفية بقايا التجزئة الاقطاعية .

ولرفع كفاءة القوات من الناحية العسكرية ادخل فى الجيش نظام القيادة الموحدة . وبوشر بانشاء نواة قوات دائمة لا تتبع الا للسلطة المركزية .

وبغية تصفية امتيازات الاريستقراطية الاقطاعية وضع على صعيد واحد مالكو الاقطاعات ومالكو الاطيان فيما يتعلق بالخدمة العسكرية . فبموجب نظام الخدمة لعام ١٥٥٦ كان على كل اقطاعى من غير رجال الدين ان يقدم وفقا لمساحة الاراضى التى يملكها عددا معينا من الفرسان بكامل اسلحتهم . ومن يخل

بهذا النظام كان يعاقب بدفع غرامة نقدية . ان اقامة ما يسمى «اوبريشنينا» فى العقد السابع من القرن السادس عشر قد سددت ضربة شديدة الى آلاريستقراطيين البويار والامراء مالكى الاقطاعات . فقد قسمت اراضى الدولة الى قسمين : «الزيمشينا» وهى اراضى الدولة و «الاوبريشنينا» وهى الممتلكات الخاصة العائدة شخصيا للقيصر .

وقد ادخلت فى «الزيمشينا» بصورة رئيسية الاراضى الواقعة على اطراف الدولة . ودخلت فى «الاوبريشنينا» المناطق ذات التجارة المتطورة والانتاج الحرفى المتطور ، والاراضى التى انتشرت فيها ملكية النبلاء العقارية التى كانت دعامة للسلطة المركزية ، وكذلك المناطق التى كانت فيها ممتلكات عائلات البويار والامراء القديمة .

ان الاراضى المنتزعة والداخلة فى «الاوبريشنينا» شكلت حوالى نصف مجموع مساحة الدولة الروسية . وعوضا عن الاراضى المنتزعة من الامراء والبويار قدم القيصر لبعضهم ممتلكات عقارية فى مناطق اخرى . ووزع قسما من الاراضى المنتزعة على «القائمين على خدمة الاوبريشنينا» . ومن هؤلاء تشكلت مفارز الفرسان . ان انشاء «الاوبريشنينا» ادى الى زعزعة القوة الاقتصادية عند كبار الاقطاعيين الامراء والبويار ، والى اضعاف نفوذهم السياسى بصورة حادة . وفى الغالب كان يجند فى قوات «الاوبريشنينا» النبلاء ممن يملكون قليلا من الارض وكان بمستطاع القيصر الاعتماد على وفائهم .

بعد مرور بعض الوقت جرت اعادة تنظيم «الاوبريشنينا» . فبقى النظام بمجمله ، ولكنه استعيض عن التسمية الرسمية «للاوبريشنينا» باصطلاح «بلاط القيصر» . فكان الاوبريشنينا تحولت الى ما يشبه دائرة تابعة للبلاط .

وبعد مرور فترة اخرى ، فى عام ١٥٧٦ ، صفيت الاوبريشنينا نهائيا . فقد تم بلوغ الهدف الاساسى من قيامها : انجاز تجزئة الملكية العقارية الكبيرة وابادة او اضعاف اقوى الاسر الاقطاعية . ان الاوبريشنينا ، بالرغم من بعض نواحيها السلبية ، ساعدت على تعزيز الدولة الاقطاعية الروسية المركزية

نفوذ الدولة الروسية الدولى

ان توطيد الدولة الروسية فى عهد حكم ايفان الرهيب قد انعكس ايضا فى نمو مكانتها الدولية . فحكومات بلدان كثيرة سعت الى اقامة ، وثم الى تطوير العلاقات الديبلوماسية والتجارية مع روسيا . وبين هذه الدول تنبغى الاشارة الى انكلترا وهولندا واسبانيا والدانمارك والسويد والمجر والامبراطورية العثمانية (تركيا) وايران .

وبلغت الثقافة الروسية مستوى رفيعا من التطور فى اواسط القرن السادس عشر . وفى العقد السادس على الاخص ظهرت دور الطباعة الوطنية للكتب ، وتطور العلم والادب الوطنيين . وفى ميدان الفن المعمارى تكوّن الطراز الروسى القومى الذى يتسم بنضوج كبير ومهارة رفيعة . كذلك ساعد ارتقاء الثقافة الروسية على زيادة الاهتمام بالدولة الروسية فى البلدان الاخرى .

وقامت الصلات الاقتصادية والثقافية والسياسية بين الدولة الروسية والشعبين الشقيقين الاوكرانى والبيلوروسى اللذين رأيا فيها القوة القادرة على مساعدتهما فى النضال ضد الظالمين الاجانب . وقامت الدولة الروسية بدور المدافع عن البلغار والصرب واليونان وغيرهم من الشعوب التى استعبدها الاتراك .

٥ ـ تطور الاقطاعية فى بلدان آسيا وافريقيا

الصين فى عصر الاقطاعية المتطورة

ابتدأت مرحلة الاقطاعية المتطورة فى الصين ، فى القرن الثامن ، فى عهد امبراطورية تان . وفى هذا الوقت ارتسمت معالم استبدال شكل للملكية العقارية الاقطاعية بآخر . فقد أخذ نظام اقطاع الدولة للارض يحل محل اقتصاد الاقطاعيين القائم على امتلاك الاطيان . وكان الاقطاعيون الكبار ، ومن بعدهم المتوسطون والصغار يستولون على قطع جديدة وجديدة من الارض التى يفلحها الفلاحون .

ان سيطرة الاقتصاد الطبيعى التى يتصف بها نظام الاقطاعات ، واندماج الزراعة بالحرفة قد تقوضا . وتطور الانتاج البضاعى ، وتحولت المدن القديمة الى مراكز للحرف والتجارة . وتفاقم التباين فى التملك داخل المشاعية الفلاحية . الامر الذى قوض كذلك نظام الاقطاعات . وفى نهاية القرن الثامن اعترف رسميا بالملكية العقارية التى استولى عليها الاقطاعيون على انها ملكية لهم .

كان مقر السيد وما يحيط به من مبان مركز الضيعة الاقطاعية . وحول هذا المركز كانت تقع بيوت الفلاحين . وكان الفلاحون ينقسمون الى صنفين : «ارباب بيت» وهم اعضاء فى المشاعية يتمتعون بكامل الحقوق و«ضيوف» وهم فلاحون غرباء . وقد الّف الاخيرون الاكثرية ولم تكن لديهم ادوات الانتاج والبذار والماشية وكانوا ينالون كل هذا من مالك الضيعة . وكان الفلاحون يمارسون اقتصادهم المستقل ويقدمون للاقطاعى قسما من الغلال لا يقل عادة عن النصف .

كانت الكنيسة البوذية اكبر مالك عقارى فى الصين . ففى اواسط القرن التاسع كانت الاديرة البوذية تملك ٦٠ مليون هكتار من الارض .

ان الانتقال الى اشكال جديدة للملكية العقارية الاقطاعية قد ادى الى اشتداد التجزئة السياسية فى البلاد . فكان حكام المناطق الشاسعة يخضعون شكليا فقط للسلطة الامبراطورية المركزية ، اما عمليا فكانوا ينتهجون سياسة مستقلة . وفى ظروف التجزئة الاقطاعية وازدياد تجريد الفلاحين من الارض نما نضالهم الطبقى المعادى للاقطاعية .

وتفاقمت التجزئة الاقطاعية فى البلاد بعد سقوط امبراطورية تان فى بداية القرن العاشر . الا انه بقيت فى نظام الدولة فى الصين عناصر المركزية التى جعلت الوحدة السياسية اكثر متانة منها فى دول اوروبا آنذاك . وعلى هذا ساعد عامل كان قد لعب دورا مماثلا فى العصر العبودى ، وهو ضرورة القيام بالاشغال العامة لتصليح وتوسيع السدود والخزانات ، ومنظومة الرى والاعمال . ذلك ان تحقيقها على صعيد مقاطعات صغيرة كان مستحيلا .

ولعب دورا هاما فى تعزيز المركزية ما كان متطورا نسبيا فى البلاد من تداول للبضائع وصلات اقتصادية بين مختلف المناطق . وكان الاقطاعيون معنيين بالمحافظة على السلطة المركزية نظرا للخطر الذى كانت تمثله بالنسبة لهم الحركات الشعبية ، وكذلك غارات الرحل .

فى بداية القرن العاشر استولت جماعة قوية من الرحل — الكيدانيون — على قسم كبير من شمال الصين . وكانت السلطة السياسية الامبراطورية العامة فى الصين فى ذلك الوقت قد ضعفت . ولكنها تقوّت ثانية فى اواسط القرن العاشر بنتيجة طرد الكيداتيين ومجئ سلالة سون الى الحكم التى دامت حتى نهاية القرن الثالث عشر ، اى حتى نهاية مرحلة الاقطاعية المتطورة فى الصين .

كمبوديا فى القرون الوسطى

منذ نهاية القرن التاسع بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ قوم الخمير . وكانت مرتبطة ، على ما يبدو ، بتطور العلاقات الاقطاعية فى مملكة الخمير . وقد تميزت المرحلة الجديدة باشتداد ساعد دولة خمير التى وسعت اراضيها بصورة ملحوظة . فقد اصبحت اكبر واقوى دولة فى شبه جزيرة الهند الصينية . وصارت هذه المرحلة تسمى مرحلة انغكور على اسم العاصمة الجديدة لدولة خمير مدينة انغزرا (انكورا) .

الهند

تكونت العلاقات الاقطاعية المتطورة فى الهند ، كما فى الصين ، فى فترة مبكرة نسبيا (فى القرن السابع) . كانت الممتلكات الاقطاعية تنقسم الى قسمين . قسم يعود للاقطاعيين الذين كانوا ملزمين لقاء حق التملك بالخدمة العسكرية لمصلحة الامراء (مهرجا) . وكقاعدة كانت هذه الممتلكات تصبح وراثية . والقسم الآخر من الاراضى كان ملكا للاقطاعيين بدون اية شروط او تحديدات . وكان الامراء كذلك مالكين مباشرين لمساحات كبيرة من الارض .

وغالبا ما كان الامراء ينتزعون الاراضى من المشاعيات الريفية ويوزعونها على الاقطاعيين ، وليس هذا فحسب بل كثيرا ما كانوا يحولون المشاعيات نفسها الى ممتلكات خاصة .

كانت المشاعيات تتالف من عائلات ابوية (بطريركية) كبيرة وصغيرة تقوم بفلاحة قطع الارض الموزعة عليها . وكان يعاد توزيع الارض بصورة دورية . ومع نمو عدم المساواة

فى التملك داخل المشاعية وتكوّن العائلات الفردية اخذت اعادة التوزيعات هذه تقل .

وكان لكل مشاعية حرفيوها وما يسمى بخدم المشاعية الذين يقومون بمختلف الاعمال . وكان هؤلاء يحصلون على ما يعيلهم بشكل حصة معينة من المحصول ، وكانوا يمارسون كذلك اقتصادهم الصغير المستقل . وكان الحرفيون يسدون بصورة سهلة نسبيا حاجات المشاعيين المحدودة ، وهذا ما كان يحرمهم من الحافز لزيادة انتاج المصنوعات الحرفية ورفع انتاجية عملهم .

كان يرأس المشاعية عمدة (شيخ) مع جماعة من الاشخاص الخاضعين له . وكانت تتوافر للعمد بحكم مركزهم ، فرص كبيرة للاغتناء . وغالبا ما كانوا يتحولون الى اقطاعيين صغار .

ان ركود المشاعية الهندية ساعد على تشديد الاستثمار الاقطاعى . وكان شكله الاساسى دفع الريع العينى . وعلاوة على هذا ، كان الفلاحون يقومون بعدد من اعمال السخرة لمصلحة الاقطاعيين والمعابد ، ويشاركون فى الاشغال الحكومية لبناء وصيانة منظومة الرى . وكانت تجبى من الفلاحين كثرة من الضرائب النقدية لدفع رواتب الجهاز الادارى وللاعياد الدينية ، الخ . .

ان تقسيم العمل الذى ظهر على صعيد مناطق واسعة ، ساعد على تطوير العلاقات البضاعية النقدية . وهذا ما اتاح الفرصة لجباية الريع النقدى والضرائب وادى بالنتيجة الى تشديد استثمار الفلاحين من قبل الاقطاعيين .

وتحولت المدن الباقية من عصر العبودية بصورة تدريجية الى مراكز حرفية تجارية . لقد كان الحرفيون الهنود الماهرون

ينتجون الانسجة القطنية والحريرية المتقنة للغاية والسجاد والمجوهرات والتحف الفنية ، وكذلك الاسلحة . غير انهم لم يقطعوا صلتهم نهائيا بالزراعة . ولقد ترك هذا اثرا معينا على تطور المدينة الهندية في عصر الاقطاعية .

ان الخاصة المميزة للمجتمع الهندي التي كانت قد نشأت في عصر العبودية والتي لا تزال قائمة في ايامنا هذه هي التقسيم الى ما يسمى بالجاتيات . وهذه التسمية تترجم عادة بالكلمة البرتغالية «كاستا» التي تعني طائفة (قبيلة ، منشأ) . كانت الطوائف تضم جماعات مختلفة من الناس حسب منشئهم ومهنتهم . وكانت الطائفة شكلا للتقسيم الاجتماعي للعمل . ان نظام الطوائف قد استهدف ولا يزال يستهدف ترسيخ استثمار الجماهير الكادحة .

ما من انسان كان بوسعه ان يكون خارج هذه الطائفة او تلك . ولم يكن يسمح بالانتقال من طائفة الى اخرى . وقام السلم الهرمي للطوائف ، فكانت طوائف البرهميين والكشاتريين ، او الراجبوتيين التي تضم فئات الاقطاعيين الدينيين والدنيويين ، اعلى الطوائف . وتأتي بعدها طوائف المرابين والتجار .

ويرجع القسم الاكبر من بقية السكان الى ما يسمى بطوائف الشودريين . كذلك قام السلم الهرمي داخل هذه الطوائف ، وهو يتغير في بعض النواحي من منطقة لاخرى ومن قوم لآخر ، الا انه في كل مكان كانت توجد في اعلى درجات هذا السلم فئات مميزة . وفي قاعدة هذا السلم الهرمي قامت الطوائف التي تضم افقر الناس المعدمين المضطرين الى القيام بالاعمال التي تعتبر «غير نظيفة» .

ان التقسيم الى طوائف قد فرق الشغيلة وحال دون نضالهم المشترك ضد المستثمرين ، ضد الدولة الاقطاعية .

لم تبق اشكال الدولة الهندية دون تغير على امتداد القرون الوسطى .

فان امبراطورية الغوبتيين التى تكونت فى بداية القرن الرابع فى شمال الهند قد انهارت فى نهاية القرن الخامس تحت ضربات قبائل الرحل الهونيين-الايفتاليتيين . واصبح شمال الهند مجزئا الى كثرة من الامارات الصغيرة . كذلك لم تقم دولة موحدة على بقية اراضى الهند . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر جرى فتح شمال الهند من قبل القبائل التى كانت تقطن اراضى شرقى ايران والتى كانت القبائل التركية تؤلف نواتها . وقد انشأ الفاتحون فى شمال الهند دولة اقطاعية سميت سلطنة دلهى ، وتحولوا الى فئة اقطاعية سائدة . وكان هؤلاء من المسلمين ، الامر الذى شدّد التناقضات ايضا بينهم وبين السكان الاصليين .

وشرع الاقطاعيون المسلمون يتخذون اجراءات من شأنها تعزيز الدولة الاقطاعية المركزية ، سعيا منهم لضمان انفسهم من نضالات الفلاحين المعادية للاقطاعية ، وكذلك من هجوم القبائل المغولية التى ظهرت عند حدود الهند .

تطور الاقطاعية فى جزيرة العرب

ان السمة المميزة لتكون الدولة الاقطاعية فى بلاد العرب هى أن الطائفة الدينية كانت نواة التوحيد السياسى . ومؤسس الاسلام هو محمد من آل هاشم المتحدرين من قبيلة قريش فى مكة (حوالى ٥٧٠-٦٣٢) .

لقد خشيت اريستقراطيــة مكة من ان يؤدى التبشير بالدين الجديد الى سقوط عبادة الكعبة المقدسة وتقويض نفوذ

مكة السياسي وصلاتها التجارية مع القبائل العربية . لذا تمكنوا في عام ٦٢٢ من حمل محمد واتباعه على الهجرة الى المدينة . ومن هذه السنة بدأ التقويم الاسلامي الجديد على اساس السنين القمرية .

وفي المدينة تحالف المسلمون مع زعماء القبيلتين العربيتين الأوس وخزرج . وقد ناضل محمد ضد مكة طيلة ثمانية اعوام . وانتهى النضال بانتصار اتباع محمد الذين جذبوا الى جانبهم القبائل البدوية في الحجاز التي كانت حليفة مكة . وفي عام ٦٣٠ استسلمت مكة دون ان تبدى مقاومة امام قوات محمد . فاعتنق القريشيون الاسلام ، اما مكة والكعبة فاصبحتا مركزا للاسلام ومكانا يحج اليه المسلمون في كل سنة . واعتبر محمد نبيا ورسولا لله .

بعد ان احتل محمد مكة ، انتقلت السلطة على قسم كبير من جزيرة العرب الى قادة الطائفة الاسلامية . وحصرت في يدى محمد رئيس الطائفة السلطة العليا الدينية والمدنية والقضائية والحربية .

بعد وفاة محمد ، اصبح قريبه ابو بكر اول خليفة للنبي محمد . وبوصفه رئيسا للطائفة الاسلامية ، جمع في شخصه مهمتي الامام (القائد الروحي) والامير (الحاكم الدنيوى) . وفي عهد ابى بكر (٦٣٢-٦٣٤) والخليفة الثاني عمر (٦٣٤-٦٤٤) تم توحيد جزيرة العرب ودخول سكانها في الاسلام .

وفي الوقت نفسه بدأ العرب بحملات الفتح باتجاه بلدان البحر الابيض المتوسط وآسيا الصغرى والوسطى . وفي عام ٦٣٦ هزمت القوات العربية جيش الروم (بيزنطية) واقام العرب سيطرتهم في سوريا وفلسطين . وفي الوقت ذاته هجم العرب على العراق واحرزوا عدة انتصارات على الفرس . وقد فتحت مصر في سنوات ٦٤١-٦٤٥ ، وفي بداية العقد السادس

من القرن السابع فتحت ايران . وفي نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن فتح العرب شمال افريقيا وقسما كبيرا من شبه جزيرة البيرنيـــة . وقد دخلت البلدان التى فتحهـــا العرب ضمن الخلافة العربية التى كانت على راسها سلالة الامويين (٦٦١ـ٧٥٠) . وانتقلت عاصمة الخلافة من مكة الى دمشق . لقد كانت الخلافة العربية دولة اقطاعية مبكرة بقيت فيها مخلفات ملحوظة من العلاقات العبودية . ان العرب الفاتحين لم يشتركوا ، كقاعدة ، فى الانتاج الاجتماعى فى البلدان المفتوحة . وكان السكان الخاضعون ملزمين بان يدفعوا الى خزينة الخليفة ضريبة الارض ـ الخراج وضريبة الرأس او النفس ـ الجزية عينا ونقدا .

وتعرض الفاتحون احيانـــا لتاثير الاقتصـــاد والثقافة والعلاقات الاجتماعية التى كانت اكثر تطورا عند الشعوب الخاضعة . ان العلاقات الاقطاعية النامية فى البلدان التى فتحها العرب قد وجدت اتم تعبير لها فى خلافة بغداد (٧٥٠ـ١٢٥٨) فى عهد العباسيين . وقد انتقل مركز الخلافة الى بغداد التى بناها الخليفة المنصور فى عام ٧٦٢ على نهر دجلة . وفقدت الاريستقراطية العربية فى خلافة بغداد وضعها المميّز ، اذ اخذ يلعب الدور الحاسم بدلا منها الاقطاعيون الفرس الذين بمعونتهم وصل العباسيون الى السلطة .

كانت الملكية الاقطاعية للدولة هى السائدة فى معظم بلدان الخلافة ، كما كان الامر فى المرحلة الابكر . وكان قسم من الارض يخص اسرة الخليفة . وكانت بعض الاراضى ملكية خاصة ، وتسمى الاراضي المملوكة .

وفى الدولة العربية تطور بسرعة شكل الملكية الاقطاعية للارض المسمى اقطاع ، وكانت هذه الارض تمنح للتمتع مدى الحياة او بصورة موقتة لقاء اداء الخدمة العسكرية . كذلك

وجدت ممتلكات عقارية لا تنقل ملكيتها وتخص المؤسسات الاسلامية الدينية وهى الاوقاف .

وخلافا لاوروبا الغربية قامت فى خلافة بغداد فى القرن الحادى عشر علاقات بضاعية نقدية اكثر تطورا . وهذا ما يفسره لدرجة كبيرة التطور الواسع للتبادل والتجارة الداخلية والخارجية الرائجة التى ساعدت كذلك على نمو المدن التى كانت اماكن تجمع الانتاج الحرفى .

ولعب القطاع العبودى دورا هاما فى خلافة بغداد . فكان العبيد يستخدمون فى اكثر الاعمال مشقة : فى منظومة الرى الاصطناعى ، وفى مزارع القطن ، وفى المناجم . وكان العبيد بمعظمهم من اصل افريقى (الزنج) .

لقد ادت وطأة الاستثمار الاقطاعى الى ثورات الجماهير الشعبية . ففى القرن التاسع اهتزت خلافة بغداد بكل معنى الكلمة بسبب ثورة الفلاحين تحت قيادة بابك (٨١٥-٨٣٧) وثورة العبيد الزنج (٨٦٩-٨٨٣) .

ان نضال الشعوب الخاضعة ضد السيطرة العربية ، وتطور العلاقات الاقطاعية واشتداد ساعد الاقطاعيين المحليين ، كل هذا أدى فى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الى انقسام خلافة بغداد الى عدة دول مستقلة . وتحول الخلفاء العباسيون بعد ان فقدوا املاكهم وسلطتهم السياسية الى أئمة مسلمين . واصبحت مصر دولة مستقلة يحكمها الطولونيون ومن بعدهم الفاطميون . وفى عام ٩٦٩ فتحت بيزنطية القسم الشمالى من سوريا مع مدينة انطاكية التى بقيت ، كما فى العهد القديم ، احدى المدن الكبيرة على الساحل الشرقى من البحر الابيض المتوسط . وتكونت فى القسم الباقى من سوريا ، وكذلك فى اراضى لبنان وفلسطين دولة مستقلة للحمدانيين (٦٢٩-١٠٠٣) استولت عليها فيما بعد مصر الفاطمية .

كذلك تكونت دول مستقلة فى ايران وآسيا الوسطى واقاليم اخرى . ان حكام البلدان الاسلامية لم يعترفوا بخليفة بغداد الا كسيد روحى ، يقوم بتقليدهم حق الملك .

دول القارة الافريقية

وكذلك تطورت فى المناطق الافريقية الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى حضارات غنية جدا ، وظهرت فيها دول اقطاعية فى العصر الذى نحن بصدده .

وفى القرن الثالث عشر ونتيجة لغزوات قبائل سوسو ، فقدت دولة غانا اهميتها السابقة . وبالتدريج انتقل دورها الى مالى وهى دولة تقطنها شعوب مالينكى . وكانت امارة مالى الصغيرة قد قامت فى المنطقة الواقعة بين النيجر وباكون قبل القرن الحادى عشر . ان تطور الزراعة ، وعلى الاخص زراعة القطن ، وكذلك استغلال مناجم الذهب ، ونمو الحرف وانتشار الصلات التجارية ، كل هذا ساعد على تعزيز قوة دولة مالى . وفى عام ١٢٤٠ تمكن احد حكامها، سوندياتا (مارى جاتا) من هزم قوات غانا وتدمير عاصمتها .

فى نهاية القرن الثالث عشر اصبحت المدينة الرئيسية فى مالى ، التى تحمل الاسم نفسه ، مركزا تجاريا ضخما . وكان لدولة مالى صلات تجارية وثقافية واسعة مع بلدان جنوبى البحر الابيض المتوسط . وقد دامت هذه الدولة حتى بداية القرن السابع عشر رغم النزاعات بين الامراء التى اضعفتها ورغم غزوات القبائل المجاورة . وفى النصف الاول من القرن الثالث عشر ادت هجمات قبائل سونغاى وفولبى وبامبارا الى سقوط دولة مالى . وفى هذه الحقبة تطورت الدولة الاقطاعية التى انشاتها قبيلة سونغاى .

وكانت اراضيها تقع فى القسم الشرقى من السودان الغربية . وتتميز لغة سونغاى باصالة كبيرة وتختلف عن اللغات الافريقية الاخرى اختلافا كبيرا .

اخذت تظهر اولى تشكيلات الدولة فى سونغاى على تخوم القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفى القرن السادس عشر كانت ممتلكاتها تمتد من النيجر العليا الى شلالات بوسا ، ومن الصحراء الكبرى فى الشمال الى بلاد بوبو وموسى فى الجنوب . ولقد لعب عمل العبيد فى سونغاى ، كما فى غيرها من دول السودان ، دورا كبيرا فى الانتاج الاجتماعى . بيد انه غالبا ما كانت تقطع للعبيد قطع من الارض ويجبرون على دفع الريع العينى شانهم شان العديد من الفلاحين الاقنان . كان احفاد العبيد ، المسمون ديوغورانى ، يعتبرون عبيدا ولكنهم كانوا مع ذلك ، ينالون بعض الحقوق فى الجيل الثانى والاجيال التالية . مثلا ، لم يعد بالامكان بيع هؤلاء العبيد . وغالبا ما كان العبيد والديوغورانى والفلاحون الاقنان يقومون معا بانتفاضات ضد ظالميهم .

وفى بداية القرن السادس عشر بدأت اولى الاصطدامات بين حكام سونغاى وسلاطين مراكش ، واستمرت طيلة قرن . وخرج ملوك سونغاى من هذا الصراع منتصرين . غير ان دولة سونغاى اصبحت ضعيفة لدرجة انها انهارت فى نهاية القرن السابع عشر .

وكان القرن السابع عشر عهد ازدهار دولة بينين التى كانت تقع فى حدود جنوب نيجيريا الحالية . وقد انشأ شعبا يوروبا وايدو اللذان كانا يعيشان فى هذه المناطق حضارة عالية التطور ترجع الى مئات السنين .

وكانت دولة الكونغو اتحادا اقطاعيا كبيرا . فمن القرن الخامس عشر الى الثامن عشر ، اى فى عصر ازدهار دولة الكونغو ، كانت اراضيها تمتد حتى نهر كونغو فى الشرق ونهر كوانزا فى

الجنوب ، وحتى المحيط الاطلسى فى الغرب وحتى ٥٠٠–٦٠٠ كيلومتر الى الشمال من نهر كونغو . وكل هذه المناطق كانت تسكنها قبائل باكونغو وباسوندى ومايومبى وغيرها من القبائل التى تربطها رابطة الدم . وكانت لغة الدولة لغة كيشيكونغو .

كان عمل العبيد يقوم بدور كبير فى الأنتاج الاجتماعى فى هذه الدولة . فقد كان العبيد يقومون باكثر الاعمال مشقة ومهانة . ووجد حرفيون من مختلف التخصصات ، وتطورت التجارة . وقد اتسمت بنفس الطابع تقريبا العلاقات الاجتماعية فى دولتى انغولا ومونوموتابا المجاورتين للكونغو (من الجنوب والجنوب الشرقى) .

الحركات الحربية الاستعمارية (الحروب الصليبية)
ضد بلدان شرقى البحر الابيض المتوسط

ان تطور المدن والتجارة قد أثر على مختلف جوانب الحياة فى مجتمع اوروبا الغربية . بل ان هذا التأثير قد تعدى اطارات المجتمع الاوروبى . كذلك ترك العصر الجديد اثره على طابع العلاقات بين بلدان اوروبا الغربية والمناطق الاخرى ، وقبل كل شىء البلدان الاسلامية على ساحل البحر الابيض المتوسط . وكان هذا مرتبطا بمواقع مختلف طبقات وفئات السكان سواء فى أوروبا الغربية او فى بلدان المشرق (الشرق الادنى) .

لقد دشنت بداية الألف الثانى بعد الميلاد بالحملات العدوانية التى وجهها اقطاعيو اوروبا الغربية الى بلدان الساحل الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، والتى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية .

ان الاستثمار الأقطاعى المتفاقم فى اوروبا الغربية ، الذى تحدثنا عنه آنفا ، قد اضطر الفلاحين الى البحث عن فرص

لتحسين وضعهم . وكانت احدى هذه الفرص ما يسمى بالاستعمار الداخلي ، اى نزوح الفلاحين الى الاراضى غير المستصلحة حيث اصبح الفلاحون احرارا شخصيا وحيث كان ظلم الاقطاعيين اضعف بكثير . الا ان هذا النزوح لم يستطع اتخاذ مقاييس واسعة نوعا ما .

كانت القصص عن ثروات بلدان الشرق الاسطورية تستحوذ اكثر فاكثر على افكار الفلاحين . ومصدر هذه القصص يعود الى جولات التجار الاوروبيين ، وكذلك الى رحلات زوار «قبر السيد» فى القدس . كذلك استهوت بلدان الساحل الشرقى من البحر الابيض المتوسط الاقطاعيين ، ولكن لاسباب اخرى .

ان تعزيز نظام الاقطاعات الوراثية قد افضى الى اقامة نظام معين للوراثة – يسمى حق البكر . بموجب هذا الحق كان الارث ينتقل من الاب الى الابن البكر فقط . اما الابناء الآخرون فكانوا يبقون بلا ارض ويؤلفون جمهور الفرسان الصغار الذين يسعون الى اصلاح شانهم عن طريق نهب اراض جديدة . وكانت ثروة الشرق تستهوى على الدوام هؤلاء الفرسان . وطمح تجار العديد من مدن اوروبا والبحر الابيض المتوسط ، وعلى الاخص تجار المدن الايطالية ، الى تعزيز مواقعهم فى بلدان آسيا الصغرى وشمال افريقيا والاستيلاء على مكان الصدارة فى اسواقها . كذلك تطلع الى ثروات هذه البلدان كبار الملوك الاوروبيين الساعين للحصول على اراض جديدة وموالين جدد . وكان ممثلو مختلف فئات طبقة الاقطاعيين وفئة التجار الغنية موحدين فى اهدافهم الاغتصابية ، وقد ساهموا بنشاط فى اعداد مخططات الحملة الحربية الى البلدان الواقعة على ساحلى البحر الابيض المتوسط الجنوبى والشرقى .

ولعبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية انشط دور فى تحقيق هذه المخططات . فالسلطة الدينية فى روما لم تكن تعوّل فقط على زيادة مداخيلها زيادة كبيرة نتيجة لنشر المسيحية بالعنف فى

اراض جديدة ، بل طمحت كذلك الى ابتلاع الكنيسة المسيحية اليونانية الشرقية ، وهذا الطموح اصبح احدى النقاط الاساسية فى برنامج باباوات روما السياسى .

ولهذا الغرض ، استغلت السلطة الدينية فى روما شعار تحرير «قبر السيد» بمعونة الحملة الصليبية ضد المسلمين . ونال المشتركون فى هذه الحملات «عفوا من الخطايا» وحصلوا على تاجيل ايفاء الديون وغيرها من الالتزامات .

وأملت الكنيسة فى اقتناء ممتلكات عقارية جديدة . ثم ان توسيع اطيان الاقطاعيين المسيحيين مكّن الكنيسة من الحصول على مداخيل اضافية .

وغالبا ما كان الاقطاعيون المشتركون فى الحملات يتبرعون باملاكهم للكنيسة او يضعونها تحت رعايتها ، بما فى ذلك اراضيهم وهذا الواقع الهب ايضا اهتمام الاكليروس الكاثوليكى بالحروب الصليبية .

الحملة الصليبية الاولى

ادت فتوحات الترك السلاجقة الى انهيار خلافة العباسيين واضعاف بيزنطية بصورة حادة . ومن جراء ذلك كان يبدو ان فتح اراض جديدة لن يصادف صعوبات كبيرة .

جرت الحملة الصليبية الاولى – وهى حملة اقطاعية حربية استعمارية نموذجية – فى عام ١٠٩٦ . وقد اعلن عن تنظيمها فى عام ١٠٩٥ فى المجمع الكنسى الذى عقد فى مدينة كليرمون الصغيرة بجنوب فرنسا . وموّهت الاهداف الاغتصابية للحرب بالنداءات الداعية الى النضال ضد «الكفار» . وبتاجيج مشاعر التعصب الدينى أملت طبقة الاقطاعيين السائدة ان تلطف تناقضاتها مع الفلاحين وان تحول دون انفجار استيائهم المتوقع .

كان الفلاحون وفقراء المدن يطمحون بالغريزة الى التخلص من نفوذ الاقطاعيين ، والى التحرر ، قبل كل شيء ، في الحروب الصليبية من نير السيد ومن الخراب الناتج عن الحروب الداخلية بين الاقطاعيين . والبرهان القاطع على هذا ما سمي بحملة الفقراء التي سبقت الحملة الصليبية الاولى – حملة الاقطاعيين .

ففي ربيع عام ١٠٩٦ توجهت جماهير الفلاحين ، وفي الغالب من شمال فرنسا ، الى «الاراضي المقدسة» آملة بالتخلص من العوز والفاقة . ان جماهير الفلاحين غير المنظمين ، والعزل من السلاح والزاحفين مع النساء والاطفال والشيوخ ، والذين لم تكن لديهم اية مقومات للحياة ، اخذت تتعاطى التسول واعمال النهب . وبالنتيجة قام ضدهم سكان البلدان التي مروا فيها ، مما ادى الى مقتل الكثيرين من الفلاحين .

العواقب الاجتماعية والاقتصادية للحملات الصليبية

في الفترة الواقعة ما بين عام ١٠٩٦ وعام ١٢٧٠ جرى تنظيم ثماني حملات صليبية كبرى . في بادئ الامر اسس الصليبيون في الاراضي المفتوحة في منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط عدة دول ذات انظمة اقطاعية نموذجية . اما الفلاحون المشتركون في الحملات فلم يحصلوا هنا ايضا على ارض . وتعرض السكان المسلمون المحليون الى استثمار لا رحمة فيه . ومن اجل الابقاء على السكان في حالة الاذعان والخضوع ، تاسست فرق دينية من الفرسان – فرق الهيكليين والاوسبيتاليين والتوتونيين .

اثناء الحملات الحربية الاستعمارية نزل ضرر كبير ليس فقط بسكان وحضارة البلدان الاسلامية في آسيا وشمال افريقيا التي احتلها الصليبيون ، بل ايضا بدول مسيحية ، مثل بيزنطية .

وفى نهاية الامر اضطر الصليبيون تحت ضغط الشعوب الثائرة الى الانسحاب من منطقة البحر الابيض المتوسط الشرقية .

غير ان الحملات الصليبية لم تمر دون ان تترك اثرا بالنسبة لاوروبا الغربية . فقد ساعدت على تنظيم الصلات التجارية بين المناطق الغربية والشرقية من البحر الابيض المتوسط ، وبالاجمال على تطوير العلاقات البضاعية النقدية فى اوروبا .

لقد اقتبس الصليبيون اثناء الحملات على الشرق جملة من المنجزات الثقافية والتكنيكية الهامة لم تكن معروفة فى أوروبا الغربية . فاخذت تتطور فيها فروع انتاجية جديدة كصناعة الحرير مثلا ، وترقى تكنيك صناعة الاسلحة وغيرها من المنتوجات المعدنية ، وتحسن انتاج الانسجة وما الى ذلك . وظهرت فى الحقول مزروعات جديدة : الارز ، الحنطة السوداء ، البطيخ ، الخ ..

ان احتكاك الاقطاعيين بحضارة مادية اعلى فى شرقى البحر الابيض المتوسط قد وسع حاجاتهم وادى بالنتيجة الى تشديد استثمار الجماهير الشعبية . وكان هذا احد العوامل التى عجلت تفاقم التناقضات الاجتماعية فى اوروبا الغربية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

٦ ـ ايديولوجية وثقافة المجتمع الاقطاعى . دور الدين والكنيسة

ان طبقة الاقطاعيين لم تعزز سيطرتها على الجماهير الكادحة عن طريق الاستغلال الاقتصادى والظلم السياسى فقط . فقد كان التاثير الايديولوجى فى يديها احدى الوسائل الجبارة . ولعب الدين والكنيسة دورا حاسما فى ايديولوجية المجتمع الاقطاعى . فالكنيسة ، اذ وعدت بنعمة السموات كثواب عن آلام الارض ،

الهت الجماهير الشعبية عن النضال ضد الاقطاعيين ، ساعية بدأب الى تربية الشغيلة بروح الاذعان التام للاسياد . وفى العصر الذى كان فيه الدين يتغلغل فى حياة الناس الروحية بجميع جوانبها ، اصبحت الكنيسة تبارك ، بما لها من مكانة ، النظم الاجتماعية السائدة والاستثمار المتناهى للشغيلة ، الفلاحين والحرفيين .

ان التأثير الجبار للدين والكنيسة قد انعكس فى مجمل الثقافة الروحية لمجتمع القرون الوسطى .

الكاثوليكية

ان بامكان الكاثوليكية أن تكون المثل الكلاسيكى على دور الكنيسة والدين فى المجتمع الاقطاعى . فان المسيحية ، كما هو معلوم ، اصبحت الدين الرسمى لاسياد العبيد فى عصر الاباطرة الرومان . وفى القرون الوسطى حولت طبقة الاقطاعيين السائدة الدين المسيحى الى سندها الايديولوجى . وفى القرن الحادى عشر ، بعد انقسام الكنيسة المسيحية نهائيا الى غربية وشرقية ، غدت الكاثوليكية الاساس الايديولوجي للنظام الاقطاعى فى اوروبا الغربية .

بل ان الكنيسة الكاثوليكية قد كررت من حيث تركيبها السلم الاقطاعى الهرمى العادى . فقد كان البابا ، السلطة الدينية فى روما ، على رأس الكنيسة الكاثوليكية . ومن ثم الكرادلة والاساقفة ورؤساء الاديرة وهكذا دواليك . واخيرا خوارنة الرعية الذين يحتكون مباشرة بالسكان .

كانت الكنيسة الكاثوليكية مالكا اقطاعيا كبيرا . ومن اكبر المالكين الاقطاعيين فى اوروبا كان دير الرهبان سان – ترون فى جنوب هولندا وكاتدرائية نوتر دام (سيدتنا ، والدة الاله) فى

باريس . فقد كانا يملكان الاراضى الزراعية والكروم والغابات والمراعى ، بالاضافة الى العديد من قطعان الخيل والابقار والماعز والخنازير والاغنام . وكانت الكنائس المالكة تاخذ كذلك العشر ، اى عشر المنتوج الذى ينتجه الفلاحون . كان استثمار الفلاحين والحرفيين الذى لا حد له مصدر ثروات الكنيسة .

احتكار الكنيسة الكاثوليكية في ميدان الحياة الروحية

ارتدت ثقافة اوروبا الغربية فى عصر القرون الوسطى المبكرة والاقطاعية المتطورة صبغة دينية (كاثوليكية) ساطعة .

فقد حل اللاهوت الكاثوليكى محل الفلسفة القديمة . وزالت فروع الرياضيات والطبيعيات التى كانت فى العهد القديم ترتبط بالفلسفة ارتباطا وثيقا . واقتصر الادب على وصف سيرة «القديسين» ، والتاريخ على تدوين ما يدور فى الاديرة . ووضعت فى خدمة الكنيسة الموسيقى والشعر وكل اشكال الفنون الجميلة . واحتكر الاكليروس بصورة تامة التعليم باكمله .

ان احتكار الكنيسة فى ميدان الثقافة الروحية لم يكن نتيجة تطور سلمى . فقد رسخ هذا الاحتكار بنتيجة الصراع العنيف بين الاقطاعيين وانصار التفكير الحر ، بين الاقطاعيين والجماهير الشعبية . وقد عرّضت الكنيسة الكاثوليكية (شانها فى ذلك شان الكنيسة فى جميع البلدان الاخرى) ممثلى الابداع الشعبى والعقائد الشعبية المضادة للكنيسة لاشد اشكال الاضطهاد الوحشى .

الاسلام

كان الاسلام فى العصر الاقطاعى واحدة من اكثر الديانات انتشارا . ان الطائفة الدينية الاسلامية اصبحت نقطة الانطلاق ، كما رأينا ، لتكوّن الدولة الاقطاعية فى جزيرة العرب . واصبح

الاسلام الاســاس الايديولوجى للمجتمع الاقطاعى المتكـون فى الاراضى التى فتحها العرب . وفيما بعد انتشر بصورة واسعة فى العديد من بلدان آسيا وافريقيا ، وكذلك فى اوروبا جزئيا .

البوذية

يمكن اعتبار البوذية من حيث انتشارها وتأثيرها فى عداد الإديان العالمية . وكلمة بوذية نفسها جاءت من اسم مؤسسها الاسطورى بوذا .

ان البوذية التى ظهرت فى الهند القديمة على اساس بعض أحكام البراهمنية كانت فى بادئ الامر الدين الرسمى لطبقة مالكى العبيد .

اما فى العصر الاقطاعى فاخذت البوذية فى الهند تخلى المكان تدريجيا للهندوسية ، الا انها كانت قد انتشرت فى ذلك الوقت فى البلدان المجاورة . ففى الصين أخذت تنتشر البوذية منذ القرن الاول ميلادى ، واشتدت على الاخص من القرن الرابع الى القرن السابع . بعد ذلك اصبح المذهب الكونفوشيانى يلعب دور الدين السائد فى الصين ، غير انه لم يزحزح البوذية نهائيا . ومن الصين نفذت البوذية الى كوريا واليابان وتايلاند وبورما وكمبوديـا القديمة وغيرها من بلدان شبه جزيرة الهند الصينية ، والى سيلان ونيبال ومنغوليا .

ان الديانة البوذية ترى ان العالم المنظور ليس الا مظهرا وهميا لبداية روحية ما صوفية ، توجد فى سكون مطلق ـ الراحة الابدية . وهذه البداية تطابق تصوير «الله» على صورة انسان فى الاديان الاخرى . الحياة انما هى شر وآلام . ولا يمكن التخلص من هذه الآلام الا عن طريق رفض كل مباهج الحياة وبلوغ الراحة

الابدية بالتدريج . وفيما بعد أدخل فى المذهب البوذى ايضا مفهوم الجنة والجحيم . وهذا مــا جعل البوذية اقرب للفهم بالنسبة للجماهير الشعبية ، ووسع تاثيرها عليها وبذلك عزز مركز البوذية كدين رسمى للطبقة الاقطاعية مدعو لتبرير التفاوت الاجتماعى .

تطور الايديولوجية المعادية للاقطاعية

ان سيطرة الافكار المثالية والدينية فى ميدان الايديولوجية (فى اوروبا – المسيحية ، فى بلدان آسيا وافريقيا – الاسلام ، والبوذية ، الخ .) لم تنف وجود تيارات مضادة لها .

فقد سعت العناصر التقدمية فى المجتمع الاقطاعى ، برغم الملاحقات والاضطهادات ، الى الاستفادة من الافكار المادية . وكان العصر الاقطاعى ، شانه شان العصر القديم الذى سبقه ، عصر الصراع الضارى بين النظرات الى العالم .

فبتزوير آراء ارسطو الفلسفية واستغلال افكار بعض الفلاسفة المثاليين فى العهد القديم ، عمدت الايديولوجية الكاثوليكية فى اوروبا الغربية الى صياغة المفاهيم الاساسية الدينية المثالية فى القرون الوسطى (توما الاكوينى ، الخ .) وفى الوقت نفسه اصبح المفكرون العرب دعاة لافكار الماديين القدماء ، بما فيها عناصر المادية التى يحتوى عليها مذهب ارسطو . من بين هؤلاء المفكرين تنبغى الاشارة بالدرجة الاولى الى ابن سينا وابن رشد . ان آراء ابن رشد كانت قريبة للغاية من آراء ديموكريتس . فقد نظر ابن رشد الى المادة بوصفها واقعا موضوعيا ، والى الذرات كجسيمات مادية . وذهب الى انه يوجد ، عند الفرد الانسانى ، بالاضافة الى «النفس الفانية» ، عقل عام ما يتّحد مع هذه النفس فى لحظة المعرفة . غير انه هنا ايضا يبدو الجانب الايجابى لآراء

ابن رشد وهو الفكرة الديموقراطية للمساواة الذهنية بين الناس بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي .

لقد استفاد من افكار ابن رشد المفكرون التقدميون ف اوروبا الغربية ، واعادوا صياغتها بروح ما يميّز اوروبا من ظروف اجتماعية واقتصادية وتقاليد مادية ناشئة . واصبحت الافكار المادية سلاحا هاما فى النضال الطبقى الايديولوجى الذى تخوضه العناصر التقدمية ضد الاقطاعية .

وقد كان سيغير برابانت فى فرنسا من الممثلين اللامعين للاتجاه المادى . فقد كان رائد ما يسمى بالنزعة الابن رشدية اللاتينية ومؤسس الدعامة النظرية للايديولوجية المعادية للاقطاعية . ثم جاءت مؤلفات بويثى داكيا تعزز مذهب سيغير برابانت .

ان اول تعبير لمادية القرون الوسطى هو ما يسمى بالاسمية التى نشأت فى القرن الثالث عشر . فقد اعترف انصارها وبينهم مثلا ، الفيلسوفان الانكليزيان دونس سكوت واوكام ، بمادية العالم واعتبروا العالم المادى ، الطبيعة ، شيئا اساسيا ، اوليا بالنسبة للوعى ، واقروا كذلك بامكانية معرفة هذا العالم . غير ان هذه المادية كانت مادية ميكانيكية غير دياليكتيكية . وفيما بعد – منذ نهاية القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر – تقوّت فى الاسمية عناصر تشهد على تنازلها امام الآراء المثالية .

الهرطقة

لقد انطلقت المعارضة المعادية للاقطاعية سواء من جانب سكان المدن الميسورين ام من جانب الفلاحين وبسطاء المدن . وكانت وثيقة الارتباط بالنضال ضد الكنيسة والدين السائدين .

وطبقا للانتماء الاجتماعي للمشتركين في النضال يمكن الحديث عن هرطقة المدينة وهرطقة الفلاحين وبسطاء المدن . وبما ان الهرطقة شكل ايديولوجي للنضال الطبقي فانها غالبا ما كانت تلتقي مع النضال المسلح ضد الاقطاعية . وفي بعض الاحيان كانت معارضة الفلاحين وبسطاء المدن تتجلى بشكل مذاهب صوفية موجهة ضد الدين السائد .

لقد هيأ نضال خصوم المثالية والدين في القرون الوسطى لظهور المادية والالحاد في العهد الحديث .

٧ ـ نضال الجماهير الشعبية ضد الاقطاعية

الاساس الاقتصادي للنضال ضد الاقطاعية

لقد اثار الاستثمار الاقطاعي مقاومة الفلاحين والحرفيين الضارية . والاساس الاقتصادي للنضال الطبقي ضد الاقطاعية هو التناقض بين استثمارة المنتج الصغيرة المستقلة اقتصاديا وتبعيته غير الاقتصادية للاقطاعي الذي كان المنتج مضطرا لاعطائه قسما من عمله او منتوجاته .

وكانت اشكال النضال الطبقي رهنا بالظروف التاريخية الملموسة المعنية : بمستوى تطور القوى المنتجة ، بشكل علاقات الانتاج ، بطابع مؤسسات الدولة وغيرها من المؤسسات السياسية .

وفي كل مرحلة من مراحل المجتمع الاقطاعي الثلاث ، كانت تختلف اسباب واهداف واشكال نضال الجماهير الشعبية ، وبالدرجة الاولى نضال الفلاحين ، ضد المستثمرين . والشيء المشترك بالنسبة لنضال الكادحين الطبقي في القرون الوسطى كان طموحهم الى التحرر من تبعية القنانة وغيرها من اشكال التبعية للاقطاعيين . ولكن

النضال الطبقى الذى خاضته الجماهير الكادحة لم يؤد الى تحطيم دعائم النظام الاقطاعى الا فى ظروف معينة ، فى عهد انحلال التشكيلة الاقطاعية . اما فى المرحلة السابقة ، فكانت علاقات الانتاج الاقطاعية ما تزال تساعد على تطور القوى المنتجة .

كان نضال الفلاحين فى عصر القرون الوسطى المبكرة موجها ضد القنانة كما سبق واشرنا . وقد دشنت احداث عاصفة المرحلة الثانية من القرون الوسطى ، وذلك عندما ظهرت المدن واخذت تتطور العلاقات البضاعية النقدية . ففى اوروبا خاضت المدن نضالا ضاريا ضد اسيادها الاقطاعيين فى سبيل ادارتها الذاتية ، فى سبيل تقليل وتنظيم الفرائض والاتاوات الاقطاعية . وبعد فترة من الزمن تأجج الصراع داخل المدن بين الباتريسيين – نبلاء القرون الوسطى ونقابات الحرفيين الطامحة الى المساهمة فى ادارة المدينة ، وتأجج اخيرا ، الصراع بين الفئة المسيطرة فى المدينة ومعلمى الحرف ، من جهة ، والصناع المدعومين من الفئات الفقيرة من سكان المدن ، من جهة اخرى .

دور الانتفاضات الشعبية

غالبا ما كان النضال الطبقى فى الريف يجد المساندة من جانب فقراء المدن . فى هذه الحالات كانت التناقضات الاجتماعية ترتدى طابعا حادا جدا . وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر اجتاحت موجة من الانتفاضات الكبيرة ، التى قام بها الفلاحون وفقراء المدن ، كل اوروبا تقريبا : انتفاضة «الرعاة» عام ١٢٥١ والحركة الشعبية عام ١٣٢٠ فى جنوب هولندا وفرنسا ، الحركة التى قادها دولتشينو فى أيطاليا سنوات ١٣٠٥–١٣٠٧ ، الانتفاضة التى ترأسها اتيان مارسيل وانتفاضة جاكيرى فى عامى

١٣٥٨-١٣٥٧ فى فرنسا ، انتفاضة اوت تايلير فى انكلترا عام ١٣٨١ ، حركة هوس الثورية فى بلاد التشيك فى بداية القرن الخامس عشر .

وفى عصر تطور الاقطاعية اندلعت انتفاضات شعبية كبيرة فى العديد من بلدان آسيا : الانتفاضات الشعبية فى خلافة بغداد فى القرنين الثامن والتاسع ، انتفاضة فقراء المدن فى دلهى (شمال الهند) فى بداية القرن الرابع عشر تحت قيادة حاجى مولى ، وحركة «الربطات الحمراء» فى القرن الرابع عشر فى الصين ، انتفاضة عام ١٢٣٣ وانتفاضة النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى كوريا ، انتفاضات فى اليابان فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهكذا دواليك .

لقد اتسمت كل واحدة من هذه الحركات الشعبية بخصائصها . فالحركة الشعبية عام ١٣٢٠ وانتفاضة الجاكيرى كانتا رد الجماهير الكادحة على تشديد الاستثمار فى عهد تطور العلاقات البضاعية النقدية الشديد . كانت الاولى موجهة لدرجة كبيرة ضد المرابين اليهود . وحركة الجاكيرى كانت بمعظمها نتيجة حرب المائة سنة التى ادت الى خراب الفلاحين الواسع . كان لدى المشتركين فى حركة الجاكيرى «برنامج» واحد فقط وهو ابادة جميع الاقطاعيين جسديا . وكانوا يهجمون على املاك الاقطاعيين ويحرقون قوائم الالتزامات الفلاحية .

اما فى زمن انتفاضة اوت تايلير ، فقد كان ثمة ، بالعكس ، برنامجان . احدهما طالب بتحرير الفلاحين من التبعية الشخصية ، والاستعاضة عن الفرائض الاقطاعية بدفع مبلغ قليل من النقد لقاء استخدام الارض ، الخ .. وكان الآخر اكثر ثورية . فانصاره لم يناضلوا فى سبيل الغاء التبعية الشخصية وحسب ، بل ناضلوا ايضا فى سبيل استرجاع الاراضى المشاعية التى انتزعها الاقطاعيون ،

فى سبيل توزيع املاك الكنيسة على الفلاحين ، وطالبوا كذلك بالمساواة فى الحقوق بين مختلف الفئات الاجتماعية .

اما اعظم حركة معادية للاقطاعية فى تاريخ اوروبا القرون الوسطى فهى حروب هوس التى اجتمعت فيها عناصر الحرب الفلاحية وحركة التحرر الوطنى والنضال المعادى للاكليروس . وقد سميت الحركة على اسم الوطنى التشيكى الرائع والمناضل فى سبيل حرية الشعب يان هوس . فان مختلف طبقات وفئات المجتمع التشيكى فى ذلك الوقت – الفلاحين الفقـــراء وفقـــراء المـدن ، الفلاحين الميسورين ، سكان المدن الاغنياء والاعيان – اذ ناضلت ضد الكنيسة الكاثوليكية والاقطاعيين الكبار من غير رجال الدين ، وضد الامبراطور الالمانى ، – قد وضعت مطالبها باشكال مختلفة .

ان حروب هوس ساعدت على تطوير الحركة الثورية فى العديد من بلدان اوروبا .

وبالنضال ضد النير الاجنبى ارتبطت ايضا انتفاضة «الربطات الحمراء» فى الصين . فالمشتركون فيها لم يناضلوا ضد اقطاعييهم الصينيين وحسب ، بل ناضلوا بصورة رئيسية ضد استعباد البلاد من قبل المغول . وجرت الانتفاضة تحت شعارات ملكية ، وكان الثوار فى حالة نجاحهم فى مختلف الاماكن يعلنون اقامة السلطة الامبراطورية . وكان تاثير الايديولوجية الدينية قويا هنا ايضـــا .

كذلك استخدمت الشعارات الدينية فى انتفاضات الفلاحين اليابانيين . لقد كانت هذه الانتفاضات ناتجة عن تردى اوضاع الفلاحين الشديد ، وزيـادة الاتاوات الاقطاعية وتراكم الديون عليهم للمرابين .

وكانت الثورات فى خلافة بغداد موجهة ضد بقايا العبودية . ففى نهاية القرن الثامن ، مثلا ، نشأت حركة فلاحية كبيرة فى

جرجان . وتكاد هذه تكون الحالة الاولى فى التاريخ لرفع الجماهير الشعبية الراية الحمراء كشعار للانتفاضة . وقد اطلق على المشتركين فى الحركـــة اسم «حمر الرايـــات» («سرخ علم» بالفارسية) . واكبر الثورات كانت الحرب الفلاحية تحت قيادة بابك فى النصف الاول من القرن التاسع . فقد شملت اذربيجان وشمال غربى ايران .

ان الانتفاضات الفلاحية الرامية الى تخفيف وطأة مصير الفلاحين ، ساعدت على تطور القوى المنتجة فى المجتمع الاقطاعى . وهذا هو الدور الثورى ، من حيث محتواه ، والتقدمى موضوعيا ، الذى لعبته الانتفاضات الفلاحية . ان تمنيات الفلاحين الذاتية لم تتعد فى المعتاد تحرير انفسهم وقطعات ارضهم من الفرائض الاقطاعية وتحويل الارض التى يستخدمونها الى ملكية خاصة بهم . بل ان الفلاحين فى زمن بعض الانتفاضات لم يعقدوا العزم على المطالبة بالغاء جميع الالتزامات والفرائض الاقطاعية ، مقتصرين على المطالبة بتقليلها فقط . وقد افترضوا خطأ ان الطابع المحدود لمطالبهم يضمن لهم التنازلات من جانب الطبقة السائدة .

ان نقص تنظيم المشتركين فى الانتفاضات وتفككهم – نتيجة لظروف عمل الفلاحين الخاصة – وانعدام الزعماء المجربين ، وجهل الفلاحين ، كل هذا قاد الانتفاضات الفلاحية الى الاخفاق .

نضال الجماهير الشعبية وطابعه المعادى للكنيسة

كثيرا ما كان نضال الجماهير الشعبية فى عصر الاقطاعية يتسم بطابع معاد للكنيسة . وقد ارتبط هذا بتسلط الكنيسة العام فى عصر القرون الوسطى ، عندما كانت حياة الناس الروحية تسير بمعظمها وفقا للتصورات الدينية . وبحكم هذا ، ارتدى احتجاجهم

الاجتماعي سمات الهرطقة اللاهوتية (بمختلف اشكالها) ، اي انتقاد النظم الاجتماعية السائدة بشكل النضال ضد الكنيسة الرسمية التي تبارك هذه النظم بمكانتها . هذا وكان الكادحون عادة يستخدمون افكارا مستوحاة من الدين .

وقد ارتدى هذا الاحتجاج اشكالا متنوعة . فكان الشغيلة يناضلون ضد الطقوس الرسمية والعقائد الاساسية للكنيسة السائدة ، ضد الكنيسة بوصفها اكبر مالك اقطاعي ، ضد الكهنة والرهبان بوصفهم ممثلي الطبقة السائدة ، وكذلك ضد الفرائض العائدة للكنيسة .

كانت حركات الهرطقة تقوم بمختلف اشكالها على اسباب اجتماعية واقتصادية معينة . وطابع هذه الحركات حدده مستوى التطور الاقتصادي في البلاد ، حدده ميزان القوى الطبقية . ولكن الآراء الدينية عند المشتركين في حركات الهرطقة لم تظهر من تلقاء نفسها ، وانما كانت تطورا لاحقا للآراء والتصورات المتكونة في السابق . الا ان التصورات الدينية الماخوذة عن الماضي ، طرأت عليها ، فضلا عن استخدامها ، تغيرات حددتها علاقات الناس الطبقية ، اى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للناس الذين يحققون هذه التغيرات .

كانت حركات الهرطقة الشعبية في اوروبا الغربية موجهة ضد الكاثوليكية . ومن ابرز الحركات من هذا النوع انتفاضة «الرعاة» التي قامت على اساس احتجاج الجماهير الشعبية وبالدرجة الاولى الفلاحين ضد الاستثمار المتفاقم . وحجة ظهور الحركة كانتها الحملة الصليبية التي قام بها الفقراء لنجدة الملك الفرنسي لويس التاسع الذي وقع في اسر المسلمين . وقد سمّى المشتركون في الحركة انفسهم «رعاة الرب» مما جعل الحركة كلها تسمى بهذه التسمية . ولكن بمقدار تطور

الانتفاضة التى تراستها الاوساط الراديكالية من سكان المدن ، اخذت تظهر الاهداف الفعلية للمشتركين فى الحركة . وقد روى المؤرخون الذين شهدوا هذه الاحداث ان «الرعـــاة» وضعوا نصب عيونهم مهمة من البديهى انها طوباوية : «فى البدء ابادة الاكليروس على الارض ، ومن ثم الرهبان واخيرا التوجه ضد الفرسان والاعيان» . وتحولت الحركة الى انتفاضة مسلحة مكشوفة من الشعب ضد الظالمين اتسمت بطابع من العداء الحاد للكنيسة ، للكاثوليكية . وفى النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية ، نضجت التصورات الالحادية . الا انه لم يكن بعد بمستطاع الجماهير الكادحة فى ذلك الوقت ان تناضل ضد الدين بوجه عام . ولذا اقترح «الرعاة» الاستعاضة عن الكنيسة الكاثوليكية بمنظمة دينية اخرى لا يعود فيها الفقراء يتعرضون للاستثمار . وبهذا ارتبط ايضا رفض الثوار للاسرار والطقوس الكاثوليكية .

ان آراء «الرعاة» الدينية كانت بمثابة هرطقة لاهوتية . وفى اوج نهوض الانتفاضة ، سادت سمات الهرطقة المعبرة عن مصالح الفلاحين وفقراء المدن . وهذا ما ميّز حركة «الرعاة» عن غيرها من بعض حركات الهرطقة التى لعبت الدور السائد او حتى الحاسم فيها العناصر الميسورة من سكان المدن .

بعد مرور عدة اشهر تمكنت الطبقة السائدة من تحطيم حركة «الرعاة» . وكانت اسباب الهزيمة تشبه تلك التى ادت الى اخفاق الحركات الشعبية الاخرى فى عصر القرون الوسطى .

كذلك اتصفت حركة هوس بنضال الجماهير الشعبية ضد الكنيسة الكاثوليكية السائدة . ذلك ان هوس دعا الى مصادرة اراضى الكنيسة وطرد الجهلة المفسدين الانانيين من صفوف الاكليروس وبالتالى الى بعث «الكنيسة المسيحية الحقيقية» .

قال هوس : «انتزع العظم من الكلاب ، فتكف عن العراك ، انتزع المُلك من الكنيسة ، فلا تجد لها كاهنا» .

وهكذا لم يناضل هوس هو ايضا لتصفية الكنيسة بوجه عام ، بل طالب فقط بالحد من نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وانشاء كنيسة قومية تشيكية .

والى ابعد من ذلك ذهبَ الجناح الراديكالى من معسكر هوس فى مطالبه المعادية للكنيسة الكاثوليكية ، وكان هذا الجنّاح يتالف من «التابوريين» الذين سموا هكذا باسم مدينة تابور التى اقاموا حولها مخيمهم الحربى . لقد اقترح التابوريون القيام فورا بتدمير جميع الاديرة وبابادة الايقونات والتماثيل وغيرها من حاجات الطقوس الكاثوليكية .

وقد بشّر التابوريون ذوو الآراء الاكثر ثورية (ممثلو فقراء الريف والمدن) بالافكار الهيليزمية وناضلوا على العموم فى سبيل تصفية النظام الاقطاعى . وقد حاولوا ، دون ان يفهموا طبعا طوباوية نواياهم ، ان يؤسسوا على الارض «مملكة الهية تدوم الف سنة» («هيليا» فى اليونانية تعنى الف ومن هنا اصطلاح «هيليزم») .

لقد عكست افكار الهيليزميين احلام الجماهير الشعبية بالقضاء على الاستثمار ، وطموحها الغامض نحو مجتمع لاطبقى . وقد حلم الهيليزميون بالاستعاضة عن الكنيسة الكاثوليكية بكنيسة جديدة ديموقراطية تسمى كنيسة الرسل وتزول فيها الفروق بين رجال الدين والدنيويين . غير ان الهيليزميين لم يتمكنوا بحكم الاسباب الآنفة الذكر من الامتناع عن صياغة افكارهم الثورية صياغة دينية .

واخذت الافكار الالحادية تبدو فى وجهات نظر انصار الآراء الهيليزمية المتطرفة . الا ان نظرية الهيليزميين لم تكن

منسجمة . مثلا ، كانوا يبشرون بانه لا يوجد لا اله ولا شيطان ، غير انهم اضافوا فى الوقت نفسه الى ان الاول يعيش فى قلوب الناس الخيّرين الصدوقين ، اما الثانى فيعيش فى قلوب الاشرار .

لقد هزمت حركة هوس ، الا انها لعبت دورا هاما فى اضعاف نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى اوروبا الغربية .

وفى روسيا غالبا ما كان احتجاج الجماهير الشعبية على الاستثمار الاقطاعى يندمج ايضا مع النضال ضد الكنيسة الارثوذكسية السائدة . فقد حدث فى المرحلة الممتدة من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر عدد كبير من نضالات الشغيلة فى المدن والارياف ضد الكنيسة .

ومن الحركات الشعبية الهرطقية المعروفة كانت حركة «الحلاقين» الذين كانوا ينشطون فى نوفغورود وبسكوف فى العقود السادس والسابع والثامن من القرن الرابع عشر . وقد سميت هذه الحركة على اسم احد قادتها «كارب» الحلاق . كان سبب الحركة الاستياء المتعاظم لدى حرفيى المدن من الظلم المتفاقم من جانب فئة التجار المسيطرة والاقطاعيين من دينيين ودنيويين . ناضل «الحلاقون» ضد جشع رجال الدين وتكديس الكنيسة للملكية العقارية وغيرها ، وضد استعباد الناس الاحرار .

لم يناضل المشتركون فى الحركة ضد الدين ككل ؛ فقد سعوا الى «التبشير بالانجيل» بقواهم الخاصة ، وانطلاقا من هذا الهدف انتخبوا «معلمى الشعب» .

اتخذت الطبقة السائدة بحق «الحلاقين» تدابير قمع وحشية . فاعدمت قائديهم نيكيتا الشماس وكارب الحلاق . الا ان هذه «الهرطقة» لم يقض عليها الا فى النصف الاول من القرن الخامس عشر .

كان النضال الموجه ضد الكنيسة السائدة يميّز ايضا العديد من الحركات الشعبية المعادية للاقطاعية التى جرت فى آسيا وشمال افريقيا .

دور حركات الهرطقة الشعبية

لقد لعبت حركات الهرطقة الشعبية دورا هاما فى النضال ضد الاستغلال الاقطاعى ، ضد الكنيسة الرسمية التى تساند بنفوذها الدول الاقطاعية . كذلك ساعد انتشار الهرطقة على تطور عدم الايمان وظهور أجنّة الآراء الالحادية . غير ان ثورية حركات الهرطقة كانت نسبية . فالشكل الدينى الذى ارتدته الحركات الشعبية أضعف النزعة المعادية للاقطاعية فى نضال الجماهير الشعبية ولم يمكّنهـا من التعبير بصورة انشط عن احتجاجها على النظم الاقطاعية السائدة .

الفصل الثالث

عصر انحلال الاقطاعية

(نشوء العلاقات الرأسمالية)

ان الخصائص الآنفة الذكر التي يتصف بها اسلوب الانتاج الاقطاعي قد احتفظت باهميتها في المرحلة الثالثة ايضا، آخر مراحل الاقطاعية . الا انه اخذ يطرأ عليها تغيرات كبيرة مرتبطة بنشوء العلاقات الجديدة ، الرأسمالية . وترجع بداية هذه المرحلة في تاريخ القرون الوسطى الى القرن السادس عشر ، رغم ان اولى أجنّة الانتاج الرأسمالي اخذت تظهر احيانا في المدن الايطالية منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

١ ــ التغيرات في ميدان الاقتصاد

في المرحلة الثالثة بالذات من القرون الوسطى ، بلغ تطور القوى المنتجة مستوى جعل من الممكن نشوء العلاقات الرأسمالية في احشاء الاقتصاد الاقطاعي على صعيد المجتمع باسره . وهذه العملية مرتبطة ببداية تكوّن البرجوازية ــ الطبقة المالكة لوسائل وادوات الانتاج ، والبروليتاريا ــ طبقة العمال الماجورين المحرومين من هذه الوسائل والمضطرين لبيع قوة عملهم من الرأسمالي . فان الرأسمالي مالك وسائل وادوات الانتاج اخذ يرغم

العامل على ان يكدح اكثر مما هو ضروري لاعالة العامل واسرته . ونتيجة لذلك تنشــأ القيمة الزائدة التي يمتلكهـــا الرأسمالي . وامتلاك القيمة الزائدة هو شكل خاص للاستثمار في ظل الرأسمالية وقانونها الاساسي .

تطور القوى المنتجة والتقسيم الاجتماعي للعمل

كان تطور القوى المنتجة الشرط الاساسي لنشوء النموذج الرأسمالي في احشاء التشكيلة الاقطاعية .

لقد عرف البشر استخدام الدولاب (العجلة) المائي بصفته محركا منذ العصر العبودي . غير ان هذا الدولاب كان يوضع آنذاك في تيار الماء مباشرة . وابتداء من القرن الرابع عشر اخذوا يستخدمون الدولاب الذي تديره قوة المياه المتساقطة عليه من فوق . وفعالية هذا الدولاب كانت اعلى بكثير من ذي قبل . واصبحوا يستخدمونه في مختلف فروع الانتاج .

وبعد انشاء الفرن العالي في القرن الخامس عشر جرى استخدام نظام النفخ الميكانيكي بواسطة الدولاب المائي المتقن . فقبل ظهور الافران العالية كان المعدن يصل بواسطة الكور اليدوي الى حالة التعجن فقط . اما بعد ظهورها فصار المعدن يصهر حتى حالة الميوعة ، مما جعل من الممكن سبك مختلف المصنوعات من الحديد الصب . وبدأ انتاج الفولاذ . كل هذا ساعد على اتقان وسائل وادوات العمل . وصارت تستخدم آلات الخرط والثقب والصقل والبردخة . واستخدمت ابسط الآلات في المناجم .

وفي انتاج النسيج حلت محل انوال النسيج العامودية البدائية انوال افقية اكثر تقانا .

وفى القرن الخامس عشر صنعت ساعات الجيب ذات الزنبرك فحلت محل الساعات المعروفة منذ القرن الثانى عشر .

ان استخدام القطع المعدنية مكن من بناء سفن اكثر اتقانا تصلح لشحن حمولات كبيرة على مسافات بعيدة . كذلك طرأ تحسن كبير على تصميم البوصلة .

وقد اخترعت طباعة الكتب وظهرت صناعة الطباعة والنسخ .

وفى الزراعة ايضا تطورت القوى المنتجة على اساس اتقان ادوات العمل ، ولكن بصورة ابطأ منها فى الصناعة . واتسعت المساحات المزروعة وازداد انتاج المحاصيل الزراعية وتحسنت اساليب فلاحة التربة . وبالاضافة الى نظام الدورة الزراعية الثلاثية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، ظهر نظام الدورة الزراعية المتعددة وزراعة الاعشاب فى الارض البور المرتاحة .

لقد زاد نمو سكان المدن الطلب على المؤن ، وفى الوقت نفسه زاد التطور الصناعى من الحاجة الى الصوف والجلود والكتان ونبات القنب وغيرها من المزروعات التكنيكية ، الصناعية .

وفى المرحلة الاخيرة من القرون الوسطى ، تطورت كثيرا تربية المواشى والبستنة وزراعة الحواكير ، وزراعة الكرمة وصناعة الخمور المرتبطة بها .

وتعاظم تخصص مختلف المناطق والمقاطعات واخذت تنتج منتوجات زراعية معينة .

ونشأت مناطق الزراعة التجارية . فقد تخصصت هولندا بتربية الماشية المخصصة لانتاج الحليب وبيع الالبان . وتخصصت بعض المناطق فى اسبانيا بتربية اغنام ميرينوس ذات الصوف الناعم ، وتصريف الصوف ، الخ . .

ان تطور مختلف فروع الصناعة والزراعة قد ادى الى المزيد من انعزال الصناعة عن الزراعة والى بروز اتجاهات

جديدة فى الانتاج الصناعى . وقطع التقسيم الاجتماعى للعمل اشواطا اخرى فى نموه . وقد تطلب هذا ، طبعا ، نمو العلاقات البضاعية النقدية ، وتطور الصلات التجارية . من قبل كانت السوق تنحصر فى بعض المناطق ، ثم اخذت تتكون بالتدريج على صعيد البلاد قاطبة .

ان تطور التجارة فى الظروف الجديدة ساعد على تفسخ الانتاج الصغير ونشوء عناصر العلاقات الراسمالية .

الممهدات التاريخية لنشوء الراسمال وتراكمه البدائى

لقد ادى المستوى الرفيع نسبيا للانتاج البضاعى الى تراكم مبالغ نقدية هائلة فى ايدى بعض الاشخاص – التجار ، المرابين ، الخ . . ان هذا كان احدى الممهدات التاريخية لنشوء الراسمال . العامل الثانى الممهد هو وجود جماهير من الناس الاحرار شخصيا والمحرومين من وسائل الانتاج ، وبالتالى ، من مقومات الحياة نتيجة للتسلط الفظ والاستثمار من جانب طبقة الاقطاعيين ، وكذلك من جانب البرجوازية الناشئة . ان نشوء هذين العاملين الممهدين شكّل جوهر عملية التراكم البدائى الاولى للراسمال . ومن الافضل تتبع التاريخ الملموس لهذه العملية استنادا الى مثل انكلترا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اذ بلغ تطور الراسمالية فى هذا البلد قبل اى بلد آخر ، مدى كبيرا .

فى القرن السادس عشر كانت انكلترا دولة صغيرة يتراوح عدد سكانها بين ثلاثة ملايين وثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة . ولكن فى تلك الحقبة بالذات بدأ فى الاقتصاد الانكليزى ذلك النهوض الذى اصبحت انكلترا بفضله بعد ثلاثة قرون

البلد الصناعى الاكثر تطورا ودولة جبارة . فمنذ القرن السادس عشر بدأ فى انكلترا تطور الصناعة الرأسمالية والزراعة الرأسمالية . ان اشكال الاقتصاد الرأسمالية قد تطورت هنا بصورة أتم واسرع منها فى البلدان الاخرى .

التعاون الرأسمالى البسيط والمانيفاكتورة

كان التعـــاون الرأسمالى البسيط المرحلة الاولى فى تطور الانتاج الرأسمالى فى الصناعة . ظاهرا كان هذا مشغل الحرفيين نفسه ، مع زيادة الحجم فقط . غير ان العدد الكبير من المنتجين المباشرين ، الذين تحولوا الى عمال مأجورين ، لم يبق يعمل لنفسه وانما لرب العمل الرأسمالى ، وهو فى المعتاد التاجر ، او التاجر الوسيط ، او المرابى ، او المعلم الحرفى المغتنى . وفى هذا المشغل الرأسمالى لم يكن ثمة تقسيم للعمل ، بل كان جميع العمال يقومون بعمل متشابه . ومع هذا ، اعطى التعاون توفيرا كبيرا فى العمل وساعد على زيادة انتاجيته بالمقارنة مع عمل المشغل الحرفى . وكان الرأسمالى ــ رب العمل يمتلك الفرق فى نتائج العمل .

اما الخطوة التالية فى تطور الانتاج الرأسمالى فهى المانيفاكتورة التى تمثل التعاون الرأسمالى القائم على تقسيم العمل . وقد استخدم فيها كالسابق التكنيك الحرفى .

فى القرن السادس عشر ، حدثت تغيرات هامة فى جميع فروع الصناعة الانكليزية ولا سيما فى صناعة الجوخ . فقد اخذ انتاج الجوخ ينتشر فى القرى بعد التضييقات التى عاناها من جانب النقابـات الحرفيـة فى المدن . وكان المعلمون فى القرى يمارسون فى آن واحد الزراعة والحرفة اى الغزل والحياكة .

فى البداية كان التجار المرابون او معلمو الحرف ارباب العمل الصغار يستغلون بعد الحرفيين الريفيين عن اسواق التصريف وصعوباتهم المادية ، فأخذوا يقومون بدور المشترين الوسطاء للمصنوعات الجاهزة التى ينتجها هؤلاء الحرفيون .

كان المشترى الوسيط يحدد اسعار المصنوعات على هواه ويقدم الحرفيين بالتسليف الخامات والادوات ، وفى نهاية الامر كان يتحول من وسيط الى موزع . وهكذا اصبح فى الواقع رب عمل رأسماليا يدفع للحرفيين المستقلين سابقا اجورا قليلة . وبالمقارنة مع التعاون الرأسمالى البسيط كان هذا طرازا جديدا من المؤسسة الرأسمالية يقوم كذلك على العمل اليدوى . وقد سميت هذه المؤسسات بالمانيفاكتورات (من اللاتينية Manus، – يد و Factura – مصنوع) . ان طراز المانيفاكتورات هذا انشأه فى الاساس الرأسمال التجارى وسمى المانيفاكتورة المشتتة . فقد كان المنتجون يعملون فى هذه الحالة كل فى بيته وليس فى مشغل مشترك .

ولكن ثمة طريق آخر لتكون المانيفاكتورة . وهو ان رب العمل الصناعى كان بنفسه يشترى المعدات والخامات الضرورية وينشئ مشغلا كبيرا يعمل تحت سقفه العمال المأجورون . وهذه كانت المانيفاكتورة الممركزة .

لقد فتح الطريق الثانى امام تطور المانيفاكتورة المرتبط بتمركز الانتاج اوسع المجالات لنمو العلاقات الرأسمالية الناشئة .

انتزاع ملكية الفلاحين بالعنف

كان للتغيرات المذكورة التى حدثت فى الصناعة عواقب ضخمة بالنسبة للمجتمع الانكليزى بأسره .

فقد تطلبت صناعة النسيج الرأسمالية النامية من الصوف والايدى العاملة اكثر مما تطلبه الانتاج الحرفى . لذا صارت تربية

الاغنام عملا مربحا . لكن الامر اقتضى مساحات واسعة من الارض، لتربية القطعان الكبيرة . والحال كان القسم الاكبر من الاراضي الصالحة للمراعي تشغله الاستثمارات الفلاحية الصغيرة . وفي القرن السادس عشر بدأ الاقطاعيون الانكليز الذين كانوا يربون الاغنام منذ امد بعيد على اراضيهم ، يطردون الفلاحين من قطع اراضيهم وينتزعونها منهم . وقد جرى طرد الفلاحين على نطاق واسع ، لدرجة ان مناطق كبيرة من البلاد اصبحت خالية من الناس . كتب الانساني الانكليزي توماس مور في كتابه المشهور «طوباوية» عن بلاده في ذلك الوقت يقول : «هنا أكلت الاغنام الناس» . فاضطر الفلاحون المطرودون من ارضهم والفاقدون لملكهم ومقومات حياتهم الى العمل بالاجرة في المانيفاكتورة الرأسمالية . وعلى ذلك ساعدت الحكومة الاقطاعية باضطهاد «المتشردين» ، بواسطة قوانينها الصارمة (ما يسمى ب«التشريع الدامي») .

ان انتزاع ملكية الفلاحين بالعنف ، بوصفه احد اساليب التراكم البدائي للرأسمال ، قد جرى كذلك في هولندا وفرنسا .

ديون الدولة والحماية

كانت ديون الدولة احدى الوسائل الهامة لتراكم الرأسمال . فالدولة كانت تحتاج على الدوام الى الاموال من اجل اعالة الجيش وجهاز الموظفين . وكقاعدة لم تكن تكفي الاموال الناتجة عن جمع الضرائب . ولذا غالبا ما كانت الدولة الاقطاعية (وخصوصا في فرنسا) تستدين الاموال من المرابين والتجار دافعة على القروض فوائد عالية .

وترتبط بنشاط الدولة الاقطاعية وسيلة اخرى واسعة الانتشار للتراكم البدائي وهي الحماية . ففي فرنسا ، وثم في

انكلترا وهولندا ، اخذت الحكومات تفرض رسوما جمركية عالية على المصنوعات الجاهزة المستوردة ، وتمنع تصدير الخامات والاغذية ، وتقدم للتجار وارباب العمل فى بلدها معونات نقدية وجوائز وتسهيلات اخرى .

الاكتشافات الجغرافية العظمى وبدء الاغتصابات الاستعمارية

بالاضافة الى انتزاع ملكية الفلاحين بالعنف ، اتاح نهب الاراضى المكتشفة حديثا وتحويلها الى مستعمرات اوسع الفرص لتراكم الراسمال . وشدد تطور العلاقات البضاعية النقدية طموح طبقة الاقطاعيين السائدة فى البلدان الاوروبية الى تكديس الثروات النقدية .

وقد دفعهم التعطش للربح الى البلدان الآسيوية النائية . وكانت تروج الاشاعات عن بلدان ما اسطورية مجهولة توجد فى مكان ما فى الغرب وراء البحور . وكانت الرغبة فى الحصول على الذهب وغيره من الكنوز سبب ما يسمى بـ«الاكتشافات الجغرافية العظمى» واصبحت فى الوقت نفسه نقطة انطلاق السياسة الاستعمارية عند الدول الاوروبية .

كان الاقطاعيون والتجار الاسبان والبرتغاليون اوائل المستعمرين . فقد بلغ البرتغاليون سواحل افريقيا بحثا عن الذهب . وبعد مرورهم حول القارة الافريقية وصلوا فى نهاية الامر الى الهند .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر اخذ البرتغاليون ينهبون الهند ويشحنون من هناك التوابل ودقيق الذهب والعاج وغير ذلك .

وفى عام ١٤٩٢ اكتشف خريستوفوروس كولومبوس اميركا ، وكان من سكان جنوى فى خدمة ملك الاسبان . واعلنت جميع

الاراضى التى اكتشفها كولومبوس ممتلكات للتاج الاسبانى . غير ان كولومبوس لم يعلم انه اكتشف قارة جديدة . لقد فهم هذا اميريكو فيسبوتشي من فيرنزه (فلورنسا) الذى استقصى ووصف القسم الشمالى من اميركا الجنوبية . لذا سمى على اسمه هذا القسم الجديد من العالم .

وفى بداية القرن السادس عشر اكتشف النبيل البرتغالى ماجيلان ، الذى كان فى خدمة ملك اسبانيا ، الطريق الجنوبى الغربى من اوروبا الى الشرق الاقصى واثبت ان المحيط الاطلسى يتصل مع المحيط الهادى . وكانت هذه الرحلة اول رحلة فى التاريخ حول العالم .

لقد نهب الفاتحون الاسبان ثروات الاستيكيين فى المكسيك والانكيين فى البيرو ودمروا حضارتهم الرفيعة ، ثم باعتمادهم على تفوقهم فى السلاح وباستفادتهم من معونة المبشرين الكاثوليك ، استولوا على قسم كبير من اميركا الوسطى والجنوبية .

«ثورة الاسعار»

ان نهب المستعمرات الفاضح قد اتسم بعواقب غير متوقعة ابدا بالنسبة لاقتصاد اوروبا الغربية ، وقبل كل شىء ، اسبانيا والبرتغال . فالذهب والفضة المستخرجة فى اميركا بواسطة عمل العبيد كانت ارخص بكثير من المعادن النفيسة الموجودة فى اوروبا كوسيلة للتداول . ولقد افضى هذا الى ارتفاع هائل فى اسعار منتوجات الضرورة الاولية . ومن جراء ذلك ، عانى بالدرجة الاولى فقراء الفلاحين غير المرتبطين بالسوق ، وكذلك شغيلة المدن .

وعلى نهج الاسبان والبرتغاليين فى البحث عن الاراضى الجديدة ،

سارت زمر التجار الهولنديين والانكليز . فالهولنديون وصلوا لاول مرة الى سواحل قارة جديدة اسموها اوستراليا اى «الارض الجنوبية» .

وقد سلكت فرنسا كذلك طريق الاغتصاب الاستعمارى باحتلالها العديد من مناطق اميركا الشمالية والجنوبية .

نظام استثمار المستعمرات

بالاضافة الى النهب المعتاد انشأ الفاتحون الجدد نظام الاستغلال الوحشى الاستعمارى .

واتسمت بشهرة خاصة شركات الهند الشرقية التجارية التى اسسها الهولنديون ، وثم الانكليز لاستثمار شعوب الهند . وتمكن المستعمرون الانكليز فى القرن السابع عشر من ازاحة «زملائهم» الهولنديين من الهند . اما الهولنديون فقد كانوا اقوى فى اندونيسيا حيث حاول الانكليز تثبيت اقدامهم .

فى بادئ الامر لجأ المستعمرون الى التجارة غير المتكافئة . ثم اخذوا تدريجيا باستخدام السلاح على نطاق متسع ابدا . وتحولت الهند واندونيسيا الى مستعمرتين يستغلهما ارباب الاعمال الاوروبيون .

وبدأ الاستثمار الوحشى للسكان الافريقيين فى المستعمرات الاميركية . فالمئات والالوف كانوا يختطفون ويكبلون بالقيود ويشحنون من القارة الافريقية بواسطة تجار الرقيق الى اميركا الشمالية والجنوبية . وهنـا فى المزارع الكبيرة خلق العبيد الافريقيون بعملهم ثروات هائلة للملاكين العقاريين الكبار . ان اغتصاب ونهب الاراضى الجديدة وتدفق الثروات الطائلة ، كل هذا قد سرّع تطور الاقتصاد الرأسمالى فى اوروبا .

٢ ـ تطور العلاقات الاجتماعية والسياسية

تكوّن الامم

ان ظهور العلاقات الرأسمالية وتطورها اللاحق قد اثرا تأثيرا بالغا على النظام الاجتماعى والسياسى فى اوروبا .

ان عملية تكوّن الاقوام كانت قد بدأت فى حقبة تفسخ النظام المشاعى البدائى . والقوم هو عبارة عن تشكيلة تاريخية ظهرت بعد العشيرة والقبيلة . ففى البلدان التى كانت تتطور فيها العلاقات العبودية اخذت الاقوام تتكون جنبا الى جنب مع نشوء نظام الرق . اما فى البلدان التى تجنبت نظام العبودية فقد تكونت الاقوام فى آن واحد مع نمو العلاقات الاقطاعية . وفى مرحلة الاقطاعية المتطورة تم تكوّن الاقوام فى العديد من بلدان آسيا واوروبا .

ان تطور العلاقات الرأسمالية قد استتبع عملية تكوّن الامم على اساس الاقوام الموجودة . وقد جرت هذه العملية على اساس الاقتصاد المشترك والدولة السياسية المركزية . فتعزيز الروابط الاقتصادية بين مختلف المناطق داخل البلاد اوجد الظروف لظهور اللغة المشتركة وتطور الثقافة القومية .

لقد نشأت الامة على اساس تطور علاقات الانتاج الرأسمالية . لذا كانت الصلات داخل الامة المتكونة علاقات برجوازية . واصبحت الامة تضم جميع طبقات وفئات السكان . ولكن بما ان البرجوازية كانت طبقة سائدة اقتصاديا وسياسيا فان الامة الناشئة قد اتسمت بطابع برجوازى . كذلك اتسمت ايديولوجية هذه الامة بالطابع البرجوازى .

تكوّن البرجوازية والبروليتاريا

يرتبط بعملية تكوّن الامم توطد البرجوازية التى انفصلت عن سواد الطبقة «الثالثة» (فى فرنسا) . وقد عنى هذا ظهور طبقة مستغلة جديدة . ومع البرجوازية تطورت ايضا الطبقة المضادة لها – البروليتاريا .

ان البروليتاريا تجتاز فى تطورها عدة مراحل ولا تصبح طبقة بحد ذاتها الا فى المجتمع الراسمالى المتطور ، فى فترة نمو الانتاج فى المعامل . فتتحول البروليتاريا من طبقة «فى نفسها» الى طبقة «لنفسها» ، طبقة تدرك مصالحها وتكون على استعداد للذود عنها فى النضال ضد البرجوازية .

الحكم الملكى الاقطاعى المطلق

لقد وضع تطور العلاقات الرأسمالية امام الاقطاعيين مهمة ايجاد شكل سياسى جديد لسيطرتهم الطبقية ، وهذا الشكل اصبحه الحكم الملكى الاقطاعى المطلق .

وطمح الاقطاعيون الى استخدام الانتاج النامى فى مصلحتهم . ولم يتصوروا ذلك الخطر الذى كان تطور الرأسمالية يحمله فى ثناياه فدعموا البرجوازية فى بادئ الامر . وقد فرضت التطورات الاقتصادية ظهور تحالف معين بين الاقطاعيين والبرجوازية مع المحافظة على سيطرة الاولين . فلم يكن بوسع هذا الاقطاعى او ذاك ، حتى ولو كان كبيرا ، ان يخضع بمفرده المؤسسات الرأسمالية المتاخمة وان يستغلها لمصلحته . ولم يكن هذا الا بمقدور الدولة الاقطاعية وجهازها المتشعب وكانت الطبقة السائدة بفرضها الضرائب على المشاريع الرأسمالية تبتز نوعا من الفرائد المئوية على تطور التجارة والصناعة . وبالاضافة ، ازدادت ازديادا حادا

فى هذه الفترة الحاجة الى اعالة الجيش وجهاز الدولة المتضخمين . لذا كانت طبقة الاقطاعيين معنية بزيادة مداخيل الدولة وضرائبها . واخذ الريع الاقطاعى يرتدى ، لدرجة ملحوظة ، شكلا عاما ومركزا .

وعلى هذا النحو ادت الحاجات الاقتصادية لطبقة الاقطاعيين الى استمرار تركيز الجهاز البيروقراطى . وقد ارتبط هذا باحتدام التناقضات الطبقية ، لان تنامى جبروت البرجوازية الاقتصادى افضى الى تشديد استثمار الفلاحين وفقراء المدن . لذا رأت الدولة الاقطاعية المطلقة هدفها الرئيسى فى اخماد استياء الشغيلة . فقد قمعت فى انكلترا انتفاضة الفلاحين الذين طردوا من قطع اراضيهم قمعا وحشيا . وبجهد جهيد تمكن النبلاء فى روسيا من قمع انتفاضة الفلاحين الجبارة التى قادها اميليان بوغاتشوف فى القرن الثامن عشر .

٣ ـ ظاهرات جديدة فى ميدان الايديولوجية

ثقافة وايديولوجية عصر النهضة

ان تطور العلاقات الرأسمالية فى مدن ايطاليا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد بعث الى النور ظاهرات جديدة فى ميدان الايديولوجية . فقد نشأت فى ذلك الزمن ثقافة جديدة ، هى الثقافة البرجوازية المبكرة المسماة ثقافة النهضة .

ان اوائل الايديولوجيين البرجوازيين كانوا يظنون انهم «ينهضون» الثقافة القديمة ، لذا سميت الحركة كلها بالنهضة .

وقد ايقظ الانتاج الرأسمالى الناشئ الاهتمام بدراسة الظاهرات الطبيعية . وهذا ما يفسّر تعاظم نهوض التكنيك والعلوم الطبيعية الذى كان قد بدأ فى القرن الخامس عشر .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر حدث انعطاف جذري فى تطور العلوم الطبيعية . فخلافا لعقائد الدين ، بدأت دراسة الطبيعة استنادا الى التجربة . واحرزت نجاحات باهرة بالنسبة لذلك الوقت فى ميدان معرفة قوانينها . وتمت الاكتشافات العلمية فى جو من النضال العنيد ضد النظرة الاقطاعية الكاثوليكية القديمة الى العالم . ونشأت نظرة جديدة الى العالم تطرقت الى جميع وجوه حياة الانسان الروحية ، الى العلم والادب والفن . وكان ذلك انقلابا تقدميا بالغ العظمة .

كان ليوناردو دى فينتشى الرسام والرياضي والمهندس العظيم (١٤٥٢-١٥١٩) احد عظام عصر النهضة . وكان ميكل انجلو بوناروتى (١٤٧٥-١٥٦٤) الرسام والنحات الرائع شخصية رائعة كذلك . واحتل مكانا بارزا فى تطوير الثقافة العالمية الرسامان رفائيل سانتى (١٤٨٣-١٥٢٠) وتيتسيان (١٤٧٧-١٥٧٦) ، والشاعر لودوفيكو اريوستو (١٤٧٤-١٥٣٣) ، والكاتب فرانسوا رابله (١٤٩٤-١٥٥٣) وآخرون غيرهم .

واخذ ممثلو ثقافة النهضة يرمزون الى جوهر الظاهرات الايديولوجية الجديدة باصطلاح الانسانية . فقد ارادوا التأكيد على الطابع الدنيوى للثقافة الجديدة وتحررها من التبعية الاقطاعية والدينية . وابرز الانسانيون قيمة الشخصية الانسانية .

غير ان الذى ميّز الانسانيين بصفتهم ايديولوجيى الرأسمالية النامية هو تمجيدهم للفردية المتطرفة ، وطموحهم لبلوغ النجاح الشخصى باية وسائل كانت ، اى تمجيد البرجوازى الذى يحالفه التوفيق .

وفى هذا المجال كانت بالغة الدلالة الآراء السياسية التى نادى بها المفكر الايطالى نيكولو ماكيافلى (١٤٦٩-١٥٢٧) . فقد كتب مثلا فى مؤلفه «الامير» بان الوسائل حسنة من اجل

بلوغ الاهداف الشخصية والطبقية : العنف ، المكر ، الغدر ، القسم الكاذب ، الكذب والنفاق . ولذا تختلف «انسانية» عصر النهضة اختلافا جذريا عن الانسانية الحقيقية للبشرية عامة ، التى اعلنتها اكثر الطبقات ثورية فى التاريخ ، عنينا بها البروليتاريا .

الاصلاح الدينى

ان البرجوازية فى نضالها ضد الدين الكاثوليكى ، هذا الاساس الايديولوجى للمجتمع الاقطاعى ، لم تستطع – بوصفها طبقة استثمارية – رفض النظرة الدينية الى العالم رفضا تاما . لذا كانت المهمة التى طرحتها لا تبتغى تصفية الكنيسة والدين بصورة تامة ، بل اصلاحها فقط ، اى الاستعاضة عن الكنيسة الكاثوليكية بكنيسة جديدة ، بروتيستانتية . والدين البروتيستانتى عكس على اكمل صورة آراء ومصالح الطبقة البرجوازية الفتية .

ان العقائد والطقوس القائمة على جهل المؤمنين والمستندة الى التقوى الظاهرية عند الشغيلة ، والتى وضعتها الكنيسة الكاثوليكية على مر القرون ، كانت تستجيب كليا لاهداف طبقة الاقطاعيين السائدة ، وهى ابقاء الجماهير الشعبية فى حالة من الخضوع .

وقد رافق نجاحات تطور الانتاج البضاعى ، وثم تطور العلاقات الرأسمالية ، تحرر الفلاحين من تبعية القنانة الشخصية ، ونمو عدد سكان المدن وارتفاع مستواهم الثقافى . لهذا السبب كان على البرجوازية النامية ان توجد فى الظروف التاريخية الجديدة عقائد اكثر دهاء وان تستنبط اساليب لتضليل الجماهير الشعبية افضل من تلك التى استخدمها ايديولوجيو الكنيسة الاقطاعية الكاثوليكية ، كما كان عليها ايجاد ادهى الاساليب لضمان سيطرتها .

ان مصلحي الكنيسة والدين رفضوا العديد من العقائد والطقوس في الكاثوليكية الاقطاعية وتقدموا بعقائد جديدة . وجوهر هذه العقائد يكمن في ان التقوى انتقلت الى عالم الانسان الداخلي . ولذا بسّط الطقوس الى اقصى حد ورفع مطلب اقصاء كل التجهيزات والموجودات النفيسة من الكنيسة وانشاء ما يسمى بالكنيسة «الرخيصة» .

واعتبرت البروتيستانتية «الكتاب المقدس» المصدر الوحيد لمعرفة الحقيقة ، ولهذا السبب انكرت عصمة بابا روما في شؤون الدين .

الاصلاح الديني في المانيا .
الحرب الفلاحية العظمى في عامي ١٥٢٤-١٥٢٥

كانت المانيا وطن الاصلاح الديني . ان الاصلاح والحرب الفلاحية العظمى في عامي ١٥٢٤-١٥٢٥ كانا اول معركة كبرى خاضتها البرجوازية ضد الاقطاعية ، واول عمل للثورة البرجوازية في اوروبا . في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر نشأت العلاقات الرأسمالية في مختلف فروع الصناعة في المانيا . غير ان النهوض الاقتصادي في بعض المدن والمناطق رافقه الركود والتأخر في البعض الآخر . وكان هذا نتيجة للتجزئة والتفكك الاقطاعي . ومن العوامل التي عرقلت تطور العلاقات الرأسمالية ، اشتداد الرجعية في الريف وتشديد الاستثمار الاقطاعي للفلاحين .

وهذا ما ادى الى احتدام وتأزم الصراع الطبقي في الريف . فمنذ بداية القرن السادس عشر اخذت تمارس نشاطها في جنوب غربي المانيا جمعيات سرية للفلاحين الثوريين معروفة باسم «الحذاء» . وقد طالب اعضاء هذه المنظمات بمصادرة اراضي الكنائس والاديرة ، والغاء جميع الفرائض الاقطاعية وهلمجرا .

كذلك تقدم الفلاحون بمطلب تصفية تجزئة البلاد وانشاء دولة مركزية . وقد ساندهم فى ذلك ممثلو الفئات الشعبية الدنيا فى المدن . وهكذا قامت الأسس لتنظيم معسكر ثورى موحد يضم الفلاحين وفقراء المدن .

وساهم فى الجمعيات السرية اشخاص من عداد سكان المدن ذوى الافكار الراديكالية . كذلك لم يكن قسم معين من النبلاء الصغار ، الفرسان ، راضيا عن تسلط الاقطاعيين الكبار وعن التجزئة السائدة فى المانيا .

كل هذه التجمعات المعارضة وحدتها الكراهية للاكليروس الكاثوليكى والكنيسة الكاثوليكية بوجه عام . فالكنيسة الكاثوليكية فى المانيا كانت اكبر مالك للارض ؛ وبواسطتها كانت مبالغ طائلة من النقود تتدفق الى خزينة البابا ــ عن طريق الحكام الدينيين الذين جمعوا فى انفسهم بين المالكين الاقطاعيين وخدام الكنيسة الكبار فى اراضيهم ، عن طريق باعة ما يسمى بصكوك الغفران التى يمنحها البابا «لغفران الذنوب» .

اتخذت الحركة الاصلاحية الموجهة ضد الكنيسة طابعا جماهيريا . وقد ارتبطت بداية هذه الحركة بتقدم مارتين لوثر فى ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٥١٧ بخمس وتسعين موضوعة ضد صكوك الغفران .

توجه لوثر بصورة رئيسية الى اوساط الشعب الالمانى الميسورة ودعاها الى النضال النشيط ضد نفوذ الاكليروس الكاثوليكى فى المانيا . وقد ضمنت الجماهير الشعبية صياغات لوثر الدينية امانيها الاجتماعية الخاصة . وقد تقبلت الاصلاح قبل كل شىء بوصفه مطلبا للتحرر الاجتماعى . ان توماس مونزر الثورى المتحمس والقائد الكبير لمعسكر الفلاحين وبسطاء المدن الذى تكون ابان الحرب الفلاحية ، كان اسطع معبر عن الفهم الشعبى للاصلاح .

وفى مجرى تطور الحركة الاصلاحية اخذ يتفسخ معسكر المعارضة الموحد الذى توحد فى بادئ الامر حول لوثر . اما لوثر نفسه فقطع صلته بفئات الشعب الالمانى الثورية . واصبح توماس مونزر زعيما للجماهير الشعبية . ان الايمان لم يكن فى نظره سوى ايقاظ العقل فى الانسـان . وحلم مونزر بانقلاب اجتماعى عظيم يقوم به الشعب الثورى المتمرد . وتصور النظام الاجتماعى المقبل نظاما تزول فيه الفروق الطبقية ، والملكية الخاصة ، والنفور بين اعضاء المجتمع ، وسلطة الدولة . لقد كانت هذه بعض الافكار المسبقة لافكار الشيوعية . وبديهى ان الجماهير الشعبية الواسعة لم تستطع ان تفهم هذا المثل الاعلى الذى تصوره مونزر نفسه تصورا غامضا للغاية .

ان الحركة الثورية التى قامت بها الجماهير الشعبية والتى تعاظمت فى غضون عدة سنوات ، قد نمت وتحولت فى عام ١٥٢٤ الى نضال مكشوف ، الى الحرب الفلاحية العظمى . ولكن جميع قوى الطبقة السائدة توحدت ضد الشعب . وفى نهاية الامر تمكن الامراء والاقطاعيون بمساعدة قوات الخيالة والمدفعية من انزال الهزيمة (فى ايار ١٥٢٥) بالكتائب الفلاحية .

لقد كانت هزيمة الفلاحين فى الوقت نفسه هزيمة للاصلاح كحركة اجتماعية واسعة . ان محاولة الثورة البرجوازية فى المانيا قد منيت بالفشل نتيجة لتردد وجبن البرجوازية الالمانية التى كانت فى ذلك الوقت ما تزال ضعيفة اقتصاديا وبدأت لتوها بالانتقال الى الانتاج الراسمالى .

غير ان الاصلاح والحرب الفلاحية استتبعا عواقب بعيدة المدى . فقد سددا ضربة الى النظام الاقطاعى على صعيد اوروبا كلها . وظلت افكار الاصلاح تتطور بين السكان الميسورين فى المدن .

تجسدت افكار البروتيستانتية بشكلها الكلاسيكى فى مذهب المبشر السويسرى جان كلفين . وقد زعم كلفين بان مصير كل انسان حدده الله سلفا قبل خليقة العالم (المذهب القائل بالتقرير المسبق المطلق) ، ولذا لا يستطيع الانسان ، ايا كانت مهنته ان يبرهن بغير نجاحاته على انه قد أختير من قبل الله . وبشر كلفين بان على التاجر ورب العمل ان يزيدا ثروتهما بجميع الوسائل ، وذلك لأن هذه الثروة عهد بها الله اليهما على حد زعمه . وهكذا تحول استثمار العمال الماجورين عند انصار كلفين ، ثم عند ممثلى اتجاهات اخرى فى البروتيستانتية ، الى «امر يرضي الله» .

لقد انتشرت البروتيستانتية بصورة ناجحة فى البلدان الاوروبية التى تطورت الرأسمالية فيها بسرعة .

٤ ـ الثورة البرجوازية فى الاراضى المنخفضة فى القرن السادس عشر

حتمية حلول الثورة

كانت القوى المنتجة النامية بلا انقطاع تدخل فى تناقض متزايد ابدا مع علاقات الانتاج الاقطاعية التى ولى زمانها . الا ان توطد العلاقات الرأسمالية نهائيا كان مستحيلا بدون تصفية المؤسسات الاقطاعية السياسية ، وقبل كل شيء الدولة الاقطاعية . ولم يكن بوسع هذا ان يجرى سلميا ، بواسطة التطور التدريجى . لذا كانت الاطاحة الثورية بالنظام السياسى الاقطاعى سنّة للتطور الاجتماعى .

كانت الحركة الاصلاحية والحرب الفلاحية فى المانيا اول محاولة فاشلة للثورة البرجوازية . اما المحاولة الثانية فكانتها الثورة البرجوازية فى الاراضى المنخفضة التى استمرت من عام ١٥٦٦ الى عام ١٦٠٩ ، والتى اتخذت شكل حرب وطنية تحررية ضد السيطرة الاسبانية .

الاراضى المنخفضة فى بداية القرن السادس عشر

كانت محافظات الاراضى المنخفضة الـ ١٧ تشمل اراضى بلجيكا الحالية ، وقسما من شمال فرنسا ولوكسمبورغ والمانيا الحالية . وكانت الاراضى المنخفضة فى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر بلدا متطورا من الناحية الاقتصادية . وعلى تخوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر طرأت تغيرات على الحياة الاقتصادية فى المحافظات ، استتبعت نموها الاقتصادى اللاحق وتركت اثرها على العلاقات الاجتماعية والحياة السياسية فى البلاد .

فى هذا الوقت بالذات اخذ انحلال العلاقات الاقطاعية والتراكم البدائى للراسمال اللذان بدآ قبل ذلك ، يؤثران تأثيرا حاسما على التطور الاقتصادى والاجتماعى فى الاراضى المنخفضة .

سقوط النقابات الحرفية وتطور الراسمالية

كان الانتاج الحرفى فى اطار النقابات يفقد اهميته باستمرار . مثلا ، انخفض عدد انوال النسيج العاملة فى واحد من اكبر مراكز صناعة الجوخ الحرفية النقابية ، اى فى مدينة ايبر ، بين عام ١٥١٧ وعام ١٥٤٥ ، من ٦٠٠ نول الى ١٠٠ . وصارت المانيفاكتورات الراسمالية تلعب دورا متزايد الاهمية ، سواء

كانت هذه من الطــراز المشتت او الممركــز . وقد نشــات المانيفاكتورات فى فروع جديدة من الانتـاج وفى الاساس فى المراكز الصناعية الكبرى . ففى مدن فالانسيان وموج وهوندسكوت ظهرت مانيفاكتورات ممركزة للنسيج . وبنيت مانيفاكتورات فى صناعة الصابون وصناعة السكر فى انفرس ، حيث جاورت فى الآونة الاولى ورشات صناعة الجوخ النقابية . وتطورت فى محافظتى نامور وليج صناعة التعدين والمناجم . واصبحت العلاقات الرأسمالية فى المحافظة الشمالية – هولندا – تهيمن فى صناعة بناء السفن ، وفى صناعة صيد الاسماك وصناعة الزبدة والبيرة وما الى ذلك .

وتطورت التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء تطورا واسعا . وتكوّنت فى البلاد السوق الرأسمالية الداخلية وغدت انفرس فى الجنوب وامستردام فى الشمال مركزين رئيسيين لها . وفى اواسط القرن السادس عشر اصبحت انفرس اكبر مركز للتجارة والمصارف .

غير ان العلاقات الرأسمالية تطورت بصورة متفاوتة . فقد شملت بالدرجة الاولى المحافظتين الشماليتين – هولندا وزيلاندا . اما فى العديد من المحافظات الجنوبية فقد ظلت تسود العلاقات الاقطاعية . ورافق نمو العلاقات الراسمالية تكوّن طبقتين متناحرتين هما البرجوازية والبروليتاريا . وكان عدد الاخيرة يزداد على حساب الفلاحين والحرفيين المنهوبين .

النبلاء الاقطاعيون والظلم القومى

لقد عرقل تطور الرأسمالية ونمــو البرجوازيــة النبلاء الاقطاعيون الذين احتلوا مواقع السيادة فى حياة البلاد السياسية . وكانت الاريستقراطية الاقطاعية تتمتع بنفوذ كبير فى المحافظات

الجنوبية . اما برجوازية الاراضى المنخفضة فكانت سيئة التنظيم سياسيا ، ولم تدرك بوضوح كاف مصالحها الطبقية . يشهد على هذا واقع ان الافكار الدينية (الكلفينية) كانت تعبيرا عن آرائها السياسية .

وقد سعى النبلاء الاقطاعيون الى تعزيز التحالف مع الغزاة الاجانب – الاعيان الاسبان . واشتد ظلم الحكم المطلق الاسبانى على الاخص فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بعد ان جلس على العرش الاسبانى فى عام ١٥٥٦ ابن الامبراطور شارل الخامس ، فيليب الثانى الذى عادت له الاراضى المنخفضة بعد انهيار الامبراطورية . واستندت سلطة الملك الجديد الى الجيش والى الكنيسة الكاثوليكية على حد سواء .

ان الكراهية للحكم المطلق الاسبانى وللكنيسة الكاثوليكية ارتدت طابعا شعبيا عاما . واخيرا ، تحولت هذه الكراهية فى عام ١٥٦٦ الى حركة شعبية واسعة ، حتى ان قسما من النبلاء فى هولندا اشترك فيها .

تشكل جمهورية هولندا . اهمية ثورة فى الاراضى المنخفضة

كانت البرجوازية فى المحافظات الشمالية اكثر تطورا وتنظيما . ولذا تمكن ممثلوها من احراز النصر فى عام ١٥٧٩ بعد ان انشأوا تحالفا اطلق عليه اسم اتحاد اوتريخت . وفى عام ١٥٨١ اعلن ممثلو المحافظات الشمالية الذين اجتمعوا فى لاهاى اسقاط فيليب الثانى . والدولة الجديدة ، «المملكة المتحدة» او هولندا ، التى تشكلت نهائيا فى عام ١٦٠٩ ، كانت اول جمهورية برجوازية فى اوروبا .

ان ثورة الاراضى المنخفضة ، شانها فى ذلك شان الثورات البرجوازية التى تلتها ، على الرغم من اهميتها التقدمية الكبرى ، لم تقض على الاستثمار بوجه عام ، بل أدت فقط الى الاستعاضة عن سيطرة الاقطاعيين بسيطرة البرجوازية .

ان الجماهير الشعبية هى التى حققت انتصار البرجوازية الهولندية . وكانت هذه اول ثورة برجوازية ناجحة فى الكرة الارضية عامة وفى اوروبا خاصة . غير ان تاثير الثورة فى الاراضى المنخفضة على تطور الاحداث لاحقا فى اوروبا كان محدودا . ولذا لا يبدأ العصر البرجوازى بالمعنى الواسع للكلمة الا بعد الثورة الانكليزية فى اواسط القرن السادس عشر ، ولا سيما بعد الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر .

هـــذا الكتاب

يتضمن هـــذا الكتاب سلسلة محاضرات في منهاج « عرض أقتصادي تاريخي » تلقى في جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب بلغات كثيرة أمام طلبة من بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية منذ السنة الدراسية ١٩٦٠ – ١٩٦١ .

ومادة المنهاج هي تاريـخ تطور المجتمع البشري . والمنهاج يكشف عن طابع هذا التطور الذي هو عبارة عن انتقال حتمي من تشكيلة إقتصادية اجتماعية الى أخرى ، اكثر تقدماً ؛ ويحلل مستوى القوى المنتجة ، وخصائص العلاقات الاقتصادية الاجتماعية والمؤسسات السياسية والظاهرات الايديولوجية الملازمة للنظـــام المشاعي البدائي ، وللمجتمعين العبودي والاقطاعي ، وللرأسمالية ومرحلتها الأخيرة – الامبريالية ، وللتشكيلة الشيوعية وطورها الأول – الاشتراكية . ويدرس بصورة مفصلة قضايا مثل بناء المجتمع الشيوعي على نطاق واسع من قبـــل الشعب السوفياتي ، وتطور المنظومة الاشتراكية العالمية ، وتوطد الحركة الثورية العالمية الطبقة العاملة ، ونمـو النضال الوطني التحرري ونضال الشعوب في سبيل السلم .

الثـــمن : ٢٠ ل.ل.
أومـــا يعـــادلهـــا